



إن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية منظمة حرة تحت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية، انشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى و كجزء من برنامج مطبوعات الموجه لتحقيق هذا الحوار الثقافي بين الهند و البلدان الأخرى، ينشر، بين ما ينشر، خمسة مجلات، ففي الانكليزيـــة "Indian Horizons" و "Africa Quarterly" و في الفرنسيـــة "Rencontre Avec l'Inde" و في الاسبانيـــة "Papeles de la India" و في الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات في السنة. وبدل الاشتراك السنوي للمجلات في الانكليزية و في الهندية مطبوع في العمود المقابل إلا ان مجلات *المجلس في اللغات العربيـة و الفرنسية و الاسبانيـة* توزع مجاناً و المراسلات المتعلقة ببدل الاشتـراك و دفع الثمـن و بشئون الطباعة و النشر توجه إلى:

The Programme Director (Pub)
Indian Council for Cultural Relation,
Azad Bhavan,
Indraprastha Estate
New Delhi - 110002

بدل الاشتراك

(المجلات في الإنكليزية و في الهندية فقط)

عدد واحد ، ٥ روبيات، £1.00 - $2.50
سنويا - ٢٠ روبية، £4.00 - $10.00
٣ سنوات - ٥٠ روبية، £10.00 - $25.00

نشـرهـا و طبعهـا السيـدة فينـا سيكري المديرة العامـة المجلس الهندي للعلاقات الثقافية . آزاد بهوان ، نيو دلهي - الهند. طبعت في مطبعة ثاب انتربـرائسيـز جريـن بارك ، نيو دلهي.

توزع مجاناً

رئيس التحرير: البروفسور نثار أحمد الفاروقي

مجلــة ثقافة الهند فصليــة

المجلــد ٤٣ العــدد ٢

١٩٩٢م

محتويات هذا العــدد:

الحلقة الأولى :

حياة العلامة شبلي النعماني

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي

شهد القرن التاسع عشر المسيحي في العالم الإسلامي بأسره صراعاً بين القديم و الحديث ، صراعا آذن بانصرام عهد و استهلال عهد جديد ، و انقلاب الموازين الفكرية و المقاييس النظرية ، و تطور القيم و المثل و تبدل الوجهات و الآراء ، و تحول القيادة من المتزعمين الدينيين إلى حملة لواء التحرير و الاستقلال.

أما الغرب المسيحي فقد خضع لهذا الوضع الجديد و استسلم أمام الثورة الفكرية الحديثة المعارضة للدين و المعادية له ، و لكن العالم الإسلامي ـ بناء على الاختلاف الجذري بين طبيعة المسيحية و طبيعة الإسلام ـ لم يستسلم للحضارة الإلحادية الناهضة بل حاول التوفيق بينها و بين مبادئه الأصيلة المحكمة ، و اختلف مواقف القادة المسلمين و الزعماء الدينيين نحو مواجهتهم لهذا السيل الجارف و التيار العرم للحضارة الغربية

انقسم العلماء و القادة المسلمون في هذا الوضع العصيب القاسي نتيجة لما يواجهه العالم البشري من صراع مرير عات إلى طائفتين، طائفة تمسكت بمنهجها القديم و اعتبرت الانحراف عنه ردة و مروقا من الدين ، و طائفة آمنت بكل حديث مستورد من الغرب مهما عارض العقل و النقل و ناقض المأثور الثابت و المعهود المؤيد بالمنطق و البرهان إيمانها بالغيب ـ فكان العالم الإسلامي في أمس حاجة إلى شخصية بارزة فذة تتصف بالفكر السليم و الدراسة الواسعة العميقة الناقدة لكل قديم و حديث ـ تعيد إلى الطبقة المثقفة ثقتها بالدين و تعاليمه الثابتة الخالدة و تميز بين الطيب و الخبيث مما تمخض عنه العهد الحديث في عالم الفكر و الثقافة و التعليم ، و تقضي على هذا الصراع الذي وزع العالم الإسلامي و مزقه شر تمزيق.

برز العلامة شبلي النعماني على مسرح الوجود في النصف الثاني من هذا القرن بفكره الخاص الدقيق و اتزانه العميق، و هو في الواقع نقطة بداية لعهد جديد لا في الهند وحدها بل في العالم الإسلامي بأسره ـ كان متخصصا

في العلوم الدينية والفنون اللغوية و الأدبية و العقلية القديمة، و خبيراً بالآراء و الأفكار و الثقافات و الصناعات الحديثة. صحب العلماء و الأساتذة الكبار القدامى، و المثقفين العظام و خبراء التعليم الحديث. كان محققاً، باحثاً، أديباً، شاعراً، منشئاً، خطيباً، كاتباً قديراً، مؤرخاً، متكلماً، مفكراً، مصلحاً، سياسياً محنكاً، إخصائياً في التعليم و ثورياً تجاه كثير من متطلبات و مقتضيات العصر الراهن، فكأنه باقة أزهار منضودة ذات ألوان زاهية جميلة.

مولده:

ولد العلامة شبلي النعماني في إحدى قرى مديرية "أعظم كره" بولاية اترابراديش شمالي الهند. و تمتاز أرض "أعظم كره" من بين بقاع الهند بما أنجبت من رجالات العلم و الفن و الشخصيات البارزة في كل مرحلة من مراحل التاريخ و لاتزال أرحاماً خصبة منجبة.

القرية التي ولد فيها تسمى "بندول" كان يسكنها "راجبوت" (و هي طبقة الفروسية و الحكم و السيادة) ينتمي إليها العلامة شبلي.

نسبه:

اعتنق جده الأعلى من طبقة "راجبوت" الإسلام قبل أربعة قرون تقريباً، و كان إسمه شيو راج سينغ، ثم سمي "سراج الدين" يتصل إليه العلامة شبلي بثلاث عشرة واسطة، و نسبه كما يلي:

العلامة شبلي النعماني بن الشيخ حبيب الله بن المنشي الشيخ حسن علي بن الشيخ عبدالله بن الشيخ كريم الدين بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد شكر جهان بن الشيخ أمان الله بن الشيخ محمد اسماعيل بن الشيخ مهدي بن الشيخ لال محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ سهراب بن شهباز بن شيو راج سينغ (سراج الدين).

قصة إسلام سراج الدين :

يحكى عن إسلام سراج الدين أنه خرج يوماً إلى بعض مقاطعاته في صباح مبكر، و استغرق ذلك وقتاً طويلاً، فتأخر رجوعه و وصل إلى بيته عند الظهيرة بعد ما قطع أميالاً مشياً على الأقدام و كان قد بلغ الجوع و الظمأ منه مبلغهما فغسل وجهه و قدميه و نزل من فرسه و دخل المطبخ من دون أن يخلع نعليه (يعتقد الهندوس أن دخول المطابخ في النعال ينجس الطعام. و أما الإسلام فقد رفعه الله عنه هذا الإصر) و كانت زوجة أخيه تنتظره، فغضبت عليه و قالت: أصبحت تركياً ؟ (و كان الهندوس يسمون المسلمين أتراكاً (تراكا)) حتى دخلت المطبخ في نعليك و تنجس الطعام.

ففعل فيه كلام المرأة ما لا تفعله الخطب المثيرة و المناظرات و المجادلات العلمية و الدلائل البرهانية و قال : " إذا كنت ترمينني بالتركية فأنا تركي

منذ الآن" و خرج من بيته توّاً ، و دخل مسجد الزاوية حيث الشيخ جسمه و روحه و دخل الدين الحق ، و سمى سراج الدين.

والده:

كان لجده أربعة بنين: حبيب الله ، و محبوب الله و عجيب الله و نجيب الله. و أبوه هو الشيخ حبيب ، تعلم المقررات الدراسية الابتدائية ، و برع في اللغة الفارسية ، و كان يتذوق بها ، و كان يحتل مكانا مرموقا بين الناس ، و له يد كبير في إطفاء نار كثير من الحروب و الفتن ، و الإصلاح بين الناس. و كان متسما بالكفاءة العلمية و الكرامة و الأخلاق و العزة الدنيوية و القبول بين الناس ، و كان ذا ثروة و مال يمتاز بالورع و التقوى و الصلاح.

والدته:

كانت أمه إمرأة صالحة متدينة ، تقوم الليل ، و كان العلامة شبلي يثني عليها و يشيد بذكرها ، كان يقول : إنما تعودت على النهوض مبكرا بحسن تربيتها ، و استأثرت بها رحمة الله قبل سنة ١٨٨٦م.

مولده:

ولد العلامة شبلي النعماني في شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٤هـ الموافق لشهر مايو سنة ١٨٥٧م و صادف ميلاده الثورة الهندية الكبرى التي قامها المسلمون ضد استيلاء الإنجليز على الهند الإسلامية.

سماه أبواه محمّد شبلي، و كان العلامة كذلك يسمي نفسه محمّد شبلي ، ثم اقتصر على "شبلي" و أضاف إلى إسمه نسبة "النعماني" و لقد أخطأ من ظن أن نسبه ينتهي إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، بل الواقع أن العلامة كان في بداية أمره متصلبا في المذهب الحنفي و مفتخراً به و معتزاً. و كان يحب الابتداع و الابتكار في كل شيء، فلقب نفسه النعماني بدل الحنفي.

طفولته:

عاش طفولته في نعمة و رفاهية و هناء ، و كان مطبوعا على الذكاء و الذاكرة القوية ، و كان يتذكر كثيرا من قصص طفولته و يحكيها ، ذكر مرة أنه كان مضطجعا في فناء بيته و هو صغير، في ليلة مقمرة ، فحاولوا أن يحملوه إلى المظلة و لكنه امتنع ، فقال بعضهم انهض و أسرع فالسماء تمطر، فقال : كيف تمطر و القمر طالع ، فضحكوا على ذلك و عجبوا منه .

دراسته :

كان العلامة بكرة أولاد أبيه ، و لم يكن إلى ذلك الوقت اطلع على التيار الثقافي الجديد و الحضارة الغربية الحديثة ، فوثب على اكتساب العلوم

و المعارف الدينية ، تعلم قراءة القرآن الكريم و اللغة الفارسية المبادئية في قريته على الطبيب عبدالله المتوفى سنة ١٣٠٧هـ الموافق لسنة ١٨٩٠م. و هو من سكان "جيراج فور" المجاورة لقريته . ثم قرأ على المولوي شكر الله المتوفى سنة ١٣١٥هـ الموافق لسنة ١٨٩٧م.

نبوغه الطبيعي:

كان مطبوعا على الذكاء النادر و النبوغ و الفضل و حب العلم و الأدب و كان الذوق الأدبي متوافرا فيه منذ الطفولة، إذا رأى منظومة رائعة أكب على دراستها و لم يتمالك نفسه . و اهتز و طرب لشعر بديع استمع إليه.

و كان يقضي أوقاتا طويلة في مكتبة تجارية في طفولته يطلب أوراق الكتب و يتصفح دواوين الشعراء . و كانت الأبيات الرائعة تعلق بذهنه.

بعض أساتذته:

قرأ بعض الكتب العربية على المولوي فيض الله الرحوي صاحب الشيخ سخاوت علي الجونفوري الذي كان قد عين مدرسا أعلى في مدرسة العلوم العربية بأعظم كره.

و تلمذ على المولانا علي عباس الجرياكوتي، و كان أحد المنطقيين الكبار و المجادلين المعروفين . و شاعراً أديباً باللغة العربية . و توفي سنة ١٣٠٢هـ و على المولوي هداية الله خان الرامفوري في المدرسة الحنفية بجونفور لمدة قصيرة.

مولانا محمّد فاروق الجرياكوتي

يدين العلامة شبلي النعماني في تكوينه الشخصي للشيخ المربي الأستاذ المولانا محمّد فاروق الجرياكوتي . و كان يدرّس في مدرسة "چشمه رحمت" في غازيفور فأرسله أبوه إليه ليستفيد منه.

كان العلامة شبلي النعماني طالبا مطبوعا على الذكاء النادر والفهم القوي كما كان الشيخ محمّد فاروق الجرياكوتي معروفاً بتبحره في العلوم و اضطلاعه من الفنون . و منهجه التدريسي البديع، و لم تمض مدة يسيرة من الزمن حتى طلع العلامة شبلي النعماني نجما متلألئاً ، و مفخرة عظيمة لأستاذه الجليل . كان المولانا محمّد فاروق الجرياكوتي يقول له - " أنا أسد و أنت شبلي "

ركز مولانا محمّد فاروق الجرياكوتي اهتمامه الكبير على تعليم الفلسفة و بذل العلامة شبلي جهده المستطاع في طلب هذا العلم. يكتب في إحدى رسائله:

" درست الفلسفة بعناية بالغة و اجتهاد كبير و دقة عظيمة

و ظلت مكبًّا عليها مشغولًا بها مدة طويلة".

رحلاته:

أتم دراسته على أستاذه الشهير مولانا فاروق الجرياكوتي ثم حمله الحنين إلى العلم و الشغف به على أن ينهل من منابع العلم المنتشرة في أرجاء الهند حتى يوسع دراسته و يعمق نظره و فكره، و أراد أن يرحل إلى أساتذة الأدب و الفقه و الحديث الذين ذاع صيتهم و عرفوا كمراكز علمية تشدّ إليها الرحال.

و كان من بين هؤلاء العلماء الجلة و الأعلام الأفذاذ الشيخ مولانا عبدالحي الفرنكي محلي المحدث الكبير في لكناؤ، و الشيخ أحمد علي المحدث في سهارنفور، و الشيخ المولانا محمّد قاسم النانوتوي في ديوبند.

اجتذبه أولا صيت الإمام اللكناوي مولانا عبدالحي الفرنكي محلّي إلى لكناؤ، و لكن لم يعجبه منهجه في التدريس لما طبع عليه من النقد الفكري و الاجتهاد النظري، و كان الإمام اللكناوي إمام الحنفية مجادلا عنهم.

فتوجه إلى رامفور و تلمذ على مولانا إرشاد حسين المجددي و درس عليه الفقه و أصوله و مكث لديه سنة.

ثم سافر إلى ديوبند و استفاد من مكتبتها العلمية، و لاتزال كثير من الكتب بها مكتوبا عليها إسمه بخطه.

كان الشيخ مولانا فيض الحسن السهارنفوري الأستاذ بالكلية الشرقية في لاهور قد بلغ في الأدب العربي ذروة عالية و قمة سامقة، لم تنجب أرض الهند مثله منذ القرون، فأراد العلامة شبلي النعماني أن يرحل إليه و يرتوي من نميره العذب الفياض، و شمر عن ساق الجد للسفر إلى البنجاب، و لم يوافق أبوه على هذه الرحلة أول الأمر، و لكن عزيمته أحرزت الانتصار، و خرج ببشاشة مزجاة، و أقام بلاهور محتملا المشاق و المصاعب في سبيل العلم.

كان مولانا فيض الحسن أستاذا موظفا في الكلية الشرقية بلاهور، و كان التدريس الوظيفي يستغرق معظم أوقاته، و أما بقية أوقاته فقد كان يدرس فيها عليه الطلاب الوافدون من مختلف نواحي الهند، فكانت أوقاته كلها مشغولة، و لكن الأستاذ -نظرا إلى شوق العلامة العلمي- لم يستطع أن يرفض طلبه و يحرمه، فأمره أن يرافقه من بيته إلى الكلية و يدرس عليه كتب الأدب طول الطريق، و استمرت الدراسة على هذا المنوال حتى جاء وقت الإجازة، فأراد مولانا السهارنفوري أن يقضي إجازة شهرين في وطنه بسهارنفور، و رغب العلامة كذلك في مرافقته حتى يواصل الدراسة.

و لاشك أن مرافقته لمولانا فيض الحسن تركت فيه آثارا كبيرة بعيدة المدى، و أنشأت فيه ذوقا أدبيا رفيعا و نمت فيه ملكة أدبية و شعرية و نقدية لم تتوافر في أحد من أقرانه.

كان أستاذه مولانا محمّد فاروق الجرياكوتي مولعا بالابتكار و الابتداع

و التفلسف و التعليق . فكان يقدم المتأخرين من الشعراء و على رأسهم أبوالطيب المتنبي على شعراء الجاهلية . و كان العلامة شبلي كذلك يذهب هذا المذهب.

و لكن رحلته إلى لاهور أحدثت انقلابا في فكره و تغييرا في اتجاهه و تجاوبت نفسه مع الشعراء العربي الجاهلي الصادق الواقعي حتى حفظ ديوان الحماسة و كان يحتفي بشعره إلى آخر أيام حياته.

و اطلع على كتاب جمهرة أشعار العرب عند مولانا فيض الحسن السهارنفوري ، و استعار الكتاب منه ثم أعطاه لمولانا محمّد فاروق حتى يطالعه.

اختار الكتابة بالأسلوب العربي السلس المترسل بعد ما طالع كتب الجاحظ في كلية عليجره ، و لكن مرافقته لمولانا فيض الحسن السهارنفوري هي التي بذرت فيه البذرة الأولى.

من أكبر مآثر مولانا فيض الحسن السهارنفوري إدراكه للبيان القرآني المعجز و تذوقه به ، و كان يلقي على تلامذته دروس ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية وفق منهجه الخاص المعتمد على الإشارة إلى المناحي البيانية ، و كان يطلعهم بنكات الفصاحة و البلاغة و دقائق البيان و الإعجاز و ظل هذا الذوق و الاتجاه مسيطرا على العلامة شبلي طول حياته . و له خطاب مطبوع فيه إيعازات إلى هذا المنهج الفريد ، و ألقى دروسا أمام بعض طلاب دار العلوم ندوة العلماء حول دقائق الإعجاز و البيان في القرآن الكريم

استأثرت رحمة الله تعالى بمولانا فيض الحسن سنة ١٣٠٤هـ الموافق لسنة ١٨٨٢م . تلقى العلامة هذا النبأ المؤلم الفجيع و هو يلقى المحاضرة في بعض الفصول في كلية عليجره الإسلامية فأغلقت عيناه و أشار على الطلاب أن يقوموا منه ، ثم كتب رثاءً عليه باللغة الفارسية يفيض تفجعاً و ألماً.

رحلته إلى المحدث مولانا أحمد على السهارنفوري :

كان من العادة في تلك الوقت أن يعتني الطلاب بالحديث النبوي الشريف و علومه بعد أن يستطلعوا من غيرها من العلوم و الفنون و الصناعات ، و طبقا لهذا المنهج فإن العلامة اهتم لطلب الحديث بعد أن تخرج من العلوم و الصناعات السائدة في زمنه و كما أنه اختار في كل علم و فن عالمه الفريد الفذ المتخصص فيه ، كذلك قصد بطلب الحديث أشهر المحدثين في عصره.

كان مولانا أحمد علي يلقب بإمام الحديث ، و لم يكن في الحنفية أعلم منه بالحديث ، و من مآثره هنا كعرفه أنه تتبع كتب الحديث و علومه الخطية ثم قام بطبعها بعد مقابلتها و تصحيحها ، أشرع جامع الإمام الترمذي سنة ١٢٦٥هـ ، و صحيح الإمام البخاري سنة ١٢٦٧هـ ، يقول العلامة شبلي النعماني :

"إنه لقي عشرين سنة بكاملها في تصحيح جامع البخاري و التعليق عليه ، و قد تلمذ عليه معظم علماء الحنفية و كان قد أوتي علما جما و عملا صالحا و رزقا واسعا ، و كان متواضعا تقيا صالحا توفي في سهارنفور سنة ١٢٩٧هـ"

المناظرة و المجادلة :

الجهد الذي بذله مولانا محمد فاروق الجرياكوتي في سبيل تدريس العلامة شبلي المنطق على النهج التطبيقي كان من تأثيره أنه أصبح راوما بمراعاة النظام المنطقي و الاستدلال المنطقي و مبادئ المناظرة و أصولها ، يضعها بين يديه في كتاباته و خطبه و محادثاته . و كان معروفا بهذه الميزة بين الطلاب. إذا وصل إلى مجلس من مجالس الطلاب ناقشوه حول موضوع من المواضيع أو مسألة من المسائل . و كان هذا منهجا سائدا في ذلك الزمان ، يجتمع الطلاب و يعقدون بينهم المناقشات و المباحثات العلمية ، و من فائدة ذلك أن الطلاب الأذكياء كانوا يزيدون به في تدريبهم العملي و التطبيقي و حفظ المسائل عن ظهر القلب ، و كانت هذه المناقشات و المسابقات تحمل الطلاب على دراسة شروح الكتب و تعليقاتها و المطورات العلمية.

إكمال الدراسة :

كان المحدث الكبير الشيخ مولانا أحمد علي السهارنفوري المدرسة الأخيرة للعلامة شبلي النعماني ، كان يقرأ عليه سنن الإمام الترمذي إذ نوى أبوه و بعض أقاربه الحج إلى بيت الله الحرام. و نشأ في قلبه كذلك الشوق و الحنين إلى هذه الرحلة الميمونة المباركة فتأرجح بين حنين إلى دراسة الحديث النبوي الشريف و حنين إلى زيارة الوطن النبوي الشريف مهوى قلوب المؤمنين ، فاستشار أستاذه و شيخه فقال .

" تمكنك الدراسة و الطلب متى أردت ، لكن هذه الرحلة الميمونة لن تتهيأ دائما."

فعزم على الرحيل و غادر سهارنفور إلى بلدة بومباي . و كان ابن تسعة عشر عاما تبلغ مدة دراسته نحو أربعة عشر عاما ، واصل الدراسة منذ سنة ١٢٧٩هـ الموافق لسنة ١٨٦٢م حتى سنة ١٢٩٢هـ الموافق لسنة ١٨٧٦م.

رحلته للحج :

سافر إلى الحجاز مع الركب الكريم من الحجيج بقلب ملئ بالحب و الولهن و حنين إلى التشرف بزيارة الأمكنة الإسلامية الشهيرة و المشاهد النبوية

و المراكز و المكتبات العلمية . و زار جميع المكتبات في المدينة المنورة ، يقول :

"لم أر في مكان من كنوز الحديث الشريف و علومه ما رأيته في المدينة المنورة."

إعجابه بالأخلاق العربية :

و لقد أعجب خلال رحلته إعجابا كبيرا بأخلاق العرب و سخائهم و كرمهم و بساطتهم و أنفتهم و خصائلهم . و يحكي قصة لجماله يقول فيها:

"إذا قدمت طعاماً أو شراباً إلى جمالي لم يتناوله وحده، بل قال . هلموا و دعا من حوله من البدو ثم وزعه بينهم و آخر نفسه .."

و يقول العلامة .

" أردت مرة أن أختبره ، فقدمت إليه قطعة لحم صغيرة ، فدعا رفقته و زملاءه و قسمها بينهم ، فسألته ما فائدة ذلك ؟ إنها قطعة لحم صغيرة لا تكفيك وحدك فلما قسمتها لم تستفد بها أنت و لا أصحابك . فأجاب بالرد الكريم الذي هو منهج كرم العرب و شرفهم وقال. "يا شبلي! هذا عار علينا أن نأكل وحدنا."

قال مرة و هو يشرح الفرق بين لغة الكتابة و لغة الحديث .

" كنت خلال إقامتي بالحجاز إذا تحدثت باللغة العربية تقيدت بقواعد النحو و الإعراب فقال لي الجمال مرة: يا شبلي ! أنت نحوي . فظننت أنه يمدحني و يشيد بعربيتي، و لكن انكشف لي فيما بعد أنه إنما عرض بلهجتي و تكلفي بالعربية لا أنه أشاد بها."

أول مشاركة في عمل قومي :

العهد الذي أكمل فيه العلامة دراسته كان العالم الإسلامي يشهد فيه حركة قوية كبيرة . و هي حركة الوحدة الإسلامية (الجامعة الإسلامية) و كان السيد جمال الدين الأفغاني من أسبق الدعاة إليها. و كان أخيرا قد أقام بقسطنطينية أو كان قد اضطر إلى الإقامة بها. واستغل السلطان عبدالحميد خان هذه الحركة و عرف خليفة للإسلام و أميرا للمؤمنين في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي و ذكر في الخطب و على المنابر إسمه . و خلال هذه الفترة نشبت حرب بين روسيا و تركيا سنة ١٨٧٧م و أشعلت هذه الحرب النار في أنحاء العالم الإسلامي . و أقبل المسلمون على الدعاء لنصرة السلطان و خليفته و جمع التبرعات و المساعدات المالية للجرحى و المصابين . و إلقاء الخطب الحماسية المثيرة و إخراج الكتابات في تأييد السلطان . و كان ذلك و العلامة

شاب يافع ، فألهبت هذه الهجرة فؤاده ، و بذل جهده المستطاع في سبيل جمع التبرعات في أعظم كره ، و بعث بالمساعدات المالية بواسطة سفير تركيا في بومباي حسين حبيب أفندي إلى قسطنطنية.

أشغاله العلمية والأدبية قبل احتكاكه بالسيد أحمد خان :

انتقل العلامة شبلي النعماني إلى سنة ١٨٨٢م في أعظم كره و نواحيها ، و أخذ خلال هذه الفترة امتحان الحقوق و اشتغل بمحرر الوظائف و التجارة و عني بالشئون الزراعية ، و لكن ـ رغم هذه الأعمال الشاغلة ـ واصل أعماله العلمية و الأدبية و الدينية و القومية.

كتب المرحوم الشاه معين عالم القادري الندوي مقالة عن حياة العلامة شبلي النعماني في مجلة " Muslim Review " في عدد أغسطس سنة ١٩٦٢م يقول فيها

> "قضى سنتين بعد إتمام دراسته مدرساً و مناظراً و واعظاً و درّس خلال هذه الفترة ابن خاله إمام المفسرين العالم الصالح التقي مولانا حميدالدين الفراهي ـ رحمه الله تعالى ـ و المولوي محمّد سميع المرحوم ، و هو من أخص تلامذته و غيرهما."

و كان يقول الشعر باللغتين الفارسية و الأردية ، و ناظر المعارضين للتقليد و كتب الرسائل و المقالات في الردّ على مذهبهم و ألف كتاب "ظلّ الغمام في مسئلة *القراءة خلف الإمام*" باللغة الأردية سنة ١٢٩٢هـ

كان العلامة شبلي يرى ـ اتباعا لعامة علماء الحنفية ـ قراءة الفاتحة خلف الإمام مكروهة ، فألف رسالة باللغة العربية في أوبع و عشرين صفحة أسماها "*إسكات المعتدي على إنصات المقتدي*" و نالت هذه الرسالة قبولا كبيرا ، و اخترقت حدود الهند إلى مصر و الشام و الروم. و لما زار بلدان العالم الإسلامي سنة ١٣٠٩هـ أكرمه علماءها و أجلوه من أجل تأليفه هذه الرسالة ، و كان قد كتبها بلغة فصيحة قوية متينة.

و كان حريصا على البحث عن الكتب و المصادر النادرة البديعة القديمة و دراستها ، و كان يقضي معظم أوقاته في مكتبة في أعظم كره ، يطالع الكتب العلمية و دواوين الشعراء.

و كان لدى العلامة نسخة خطية للكتاب "*ديوان الصبابة*" لابن أبي حجلة التلمساني الحنفي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ جمع فيه أفضل ما قاله المجون و المتهمون العرب في التشبيب و الغزل ، و هذه النسخة موجودة الآن في مكتبة دار المصنفين و في طياتها رسالة للعلامة تقدمها فيما يلي حتى يطلع القراء على أسلوبه في اللغة العربية في العهد الذي كانت الصناعة تغلب عامة الكتابات.

سـلام عليكم:

"هذا مشوار السياحة يحمل إليكم ، و أما إنني فلا يمكنني ... ، لا إنني انشغلت بأمور ليس ... و ... ، و صرفت عيون العناية إلى الدنيا الدنيئة و بت من تحصيل كمال العلم و الأدب ... ، فكأني ... و ... الشغل ... من ... ، فمن لا يخالفني إن شاء الله تعالى في ... و ... ، بل أنتم ... هذه الصحة الشيقة ... أتأمل في حالتي ... و ... ، ... الإنسانية ، ... هذا إلا الزور و ... ، حسبي ... ، هو حسبي و نعم الوكيل."

(١٢- ف النعماني)

دراسة الحقوق :

أخذ امتحان الحقوق خلال سنتي ١٨٧٩م و ١٨٨٠م و اشتغل بوظيفة المحاماة لمدة يسيرة.

رحلته إلى عليكره :

كانت حركة عليكره التعليمية قد نالت قبولا كبيرا في ذلك الوقت في الأوساط العلمية و الثقافية ، و كان من هدفها تحلية المسلمين بالثقافة الحديثة و صبغهم بالحضارة الغربية الراقية و رفع مستواهم العقلي و الفكري لاستقاء من المنابع العقلية و الفكرية الأوربية و إلحاقهم بركب العلماء الأوربيين . كان هذه الحركة كانت محاولة لعزل المسلمين من ماضيهم التليد و حضارتهم الإسلامية العريقة و جعلهم متطفلين على مائدة الغرب.

كان أخو العلامة شبلي مهدي حسن يدرس في كلية عليكره ، فسافر أبوه مرة معه إليها للقاء ابنه ، و كتب العلامة بهذه المناسبة قصيدة في مدح السير سيد أحمد خان ، أعجب بها إعجابا بالغا ، و أشاد بها و طبعها في صحيفة "علي كره جازيت" في عدد ١٦/أكتوبر سنة ١٨٨١م، ندرج هذه القصيدة فيما يلي:

الجد يصحب علما حيث يحصل — و العلم من قومنا لا يزال يرتحل
خلوا من العقل ما لا ناله أحد — إذ لا يجري فيهم علم و لا عمل
و لا تزال ترى يتشتت شملهم — في كل يوم و قد ضاقت بهم حيل
لا يرغبون إلى ما كان ينفعهم — فهل مستحكم للغي و الخطل
تراهم اليوم في كتاب و في شغل — فلا لداء فتيلا ما به اشتغلوا
لا ينتهون و قد ذاقوا وبالهم — من سوء صنع فقد باءوا بما عملوا
و هل يجازيهم إلا بما كسبوا — من كان من عنده الأحكام تنفصل

فمن سعى الهوم في إصلاح بالهم — فذلك جازيه يوماً بمقطع الأمل
إن كنت تسألني من هذه صفته — فالسيد الإمام الهمام السيد البطل
هو الذي فاق في الآفاق منزلة — و نال ما لم تنله الأعصر الأول
من أقبل الدين و الدنيا عليه معاً — و الآن في نهج ما قد راح مشتغل
نال المكارم من آبائه و مضى — في المكرمات على آثار ما فعلوا
فجده سيد الأعراب و العجم — قد قال يا أمتي لا دينا الأجل .
و هكذا صنع هذا السيد العلم — يقول يالهف قومي بسيء ما عملوا
يا خير من حبط حب القوم من عمه — أحسن و لا تبتئس من سوء ما عملوا
أحسن إليهم و لو جازوك بمحنة — و لا تبال بما قالوا و ما فعلوا

كلية عليجره :

و بعد سنة و نصف من زيارته لعليجره، شعرت الكلية بحاجة إلى أستاذ للغات الشرقية . فقدم العلامة طلبه ، و اختاره السيد أحمد خان لسابق معرفته و الاطلاع على مواهبه.

عين العلامة شبلي أستاذ مساعدا للغة العربية في يناير سنة ١٨٨٢م. على راتب أربعين روبية شهريا . و أخذ يدرس اللغة الفارسية و اللغة العربية في الكلية.

احتكاكه بالسيد أحمد خان :

كان العلامة نازلا في البلدة خارج محيط الكلية فقلما يتيسر له لقاء السيد أحمد خان ، و لكن منذ أن تعارف كل واحد منهما على صاحبه عرف فضله ، و أدرك مكانته و شهمته و كان العلامة يحب مكتبة السيد أحمد خان و كان السيد أحمد خان يبحث عمن يحل له عقد المسائل العقلية الصعبة. فأنزله السيد أحمد خان بمكان قريب من مقره ، و أصبحت المجالس تدور بينهما كل يوم ، يتبادلان الأفكار و الآراء العلمية و الثقافية و الأدبية. يقول العلامة شبلي النعماني :

> " *كان السيد أحمد خان ذات مرة ينظر في كتاب "الإشارات" لابن علي سينا ، و اعترضت له مشكلة عجز عن حلها ، إذ وصلت إليه ، فقال السيد : أهلا ، هذه مشكلة أعياني حلها ، يقول العلامة: فأبشر لساني قائلا: و أني تستطيع ذلك ؟ قلت ذلك ثم ندمت على نفسي ، ثم شرحت له المشكلة ، فتهلل وجهه بشرا.* "

رأيه في الثقافة الحديثة :

كان العلامة حتى الآن يسمع عن الثقافة الحديثة و محاسنها و مثالبها و هو بعيد عنها و عن مراكزها ، و لكن لما وصل إلى عليجره تهيئت له الفرصة

أن يخلو منها من كذب و يختبره ما فيها من محاسن و مثالب، كتب بعد إقامته بعليكره شهور، رسالة إلى عزيز له يقول فيها:

> قد تأكد لي و تحقق عندي أن الطبقة المثقفة بالثقافة الإنجليزية و دراسة اللغة الانجليزية طبقـة فارغـة ، من الدين و علومه و شعائره ، لا عهد لها كذلك بسعة الفكر و تنوره و الحرية الصادقة و الطموح و الهمة العالية ، و حماس الرقي . و التقدم ليس هذا إلا معرض للملابس و المظاهر الجوفاء، كان الناشئون في بلدنا يزعمون لنا أن الفائزين بدرجة البكالوريوس ينتقدون المعتقدات الدينية و يدحضون المسلمات الإسلامية _ إن هؤلاء البؤساء المساكين لا يفهمون حركة الأرض و دورانها ، و قد قال لي السيد أحمد خان غير مرة أنه ليس بين المسلمين المثقفين بالثقافة الإنجليزية الحديثة شخص واحد يقدم رأيا له أو فكرة في مجال من المجال بخطابة أو كتابة.

يتبين من هذا الانتقاد المر الواضح الصريح أن بريق الثقافة الحديثة و الحضارة الغربية المادية لم يبهر عينيه ، و لم يسلبه لحظة واحدة بصيرته للتمييز بين الحق و الباطل ، الأمر الذي يدل على أن العلامة شبلي النعماني إنما أخذ من الثقافة الحديثة جانبها النافع للبشرية من علومها و معارفها التجريبية . ثم ضمه إلى التراث القديم الصالح ، و فكره هذا المعتدل المتزن المتسم بالدقة و الشمول تجسد في صورة دار العلوم لندوة العلماء.

الشعور بالحاجة إلى الثقافة الإنجليزية :

و كان من فضل إقامته بعليكره أن انفسحت له ضرورة الثقافة الإنجليزية، فاستلفت أنظار أقربائه و استرعى انتباههم نحوها و أسس مدرسة إنجليزية في بلده أعظم كره في ٢٠/يونيو سنة ١٨٨٣م

و إنما ضمت مادة اللغة الإنجليزية في مقررات المنهاج الدراسي لدار العلوم ندوة العلماء بإلحاح منه سنة ١٩٠٢م.

الذوق التاريخي :

يعتبر العلامة شبلي النعماني أول رائد للتاريخ المتفلسف في العصر الحديث في الهند ، و لكنه يدين في رياداته هذه الكلية عليكره ، فلم يكن ذوقه التاريخي بارزا قبل اتصاله بعليكره ، و لما وصل إلى الكلية نمى ذوقه التاريخي و هذبه و أضفى عليه لون الفلسفة . و لعل مرد ذلك إلى اطلاعه على كتاب الدكتور "G.W. Lainan" عن التاريخ الإسلامي . و كان مؤسسا و أستاذا للكلية الشرقية بلاهور و عالما باللغتين العربية و الفارسية . و كان العلامة شبلي يطالع هذا الكتاب و يطريه معجبا بمآثر التاريخ الإسلامي.

و اطلع خلال إقامته بعليجره على مكتبة السيد أحمد خان الحافلة بالكتب الفريدة النادرة من الجغرافيا و التاريخ الإسلامي و العربي المطبوعة في أوربا و مصر و الشام و استنبول . و من هنالك ابتدأ عهد جديد لدراسته للتاريخ الإسلامي.

ذوق التأليف :

كان مطبوعا على ذوق للتأليف . و كان من قبل قد طبعت له رسالة "إسكات المعتدي" و الرسائل الأخرى . و لكن لما وصل إلى عليجره تهذب ذوقه للتأليف و ذلك بفضل مكتبة السيد أحمد خان.

و كان السيد أحمد خان أذن له بالاستفادة من مكتبته فكان يقوم بين يدي الرفوف ساعات . و قد يجلس على الأرجل . فلما رأى السيد أحمد خان ذلك أمر له بمقعد يجلس عليه و يدرس الكتب.

الاطلاع على البحوث و الدراسات العلمية الغربية :

كانت الكلية مجمعا لأساتذة الشرق و الغرب . و كانوا يتبادلون بينهم أحدث ما وصلت إليه المعارف و البحوث و الدراسات . فكانت أتيحت له الفرصة للاطلاع على أفكار الغرب و بحوثه و دراساته العلمية و ساعدته على ذلك مكتبة السيد أحمد خان و حظي بوجود الأستاذ آرنولد في الكلية . يقول الأمير العالم حبيب الرحمن خان الشيرواني أحد المؤسسين لندوة العلماء:

> "و من سعادة حظ العلامة شبلي النعماني أنه عاصره في الكلية الأستاذ الباحث البروفيسور آرنولد . فامتزج هذان الفرسان بالعلم امتزاج أشعة الأضواء المختلفة الألوان التي تنشر النور في العالم . اطلع البروفيسور آرنولد العلامة شبلي على مبادئ الثقافة الحديثة و نسجها . و وسائل البحث العلمي الغربي و أساليبه و الاختراعات و الشبهات و المطاعن الموجهة نحو العلوم القديمة . و كان من شيات العلامة شبلي النعماني و قوته العقلية أنه لم يبهره بريق المبادئ الحديث بل أعمل فكره فيها بهدوء و رزانة و أخذ بالصالح منها بل اتخذها رائدة لحياته و رفض المظاهر الجوفاء . و أما البروفيسور ارنولد فدرس اللغة العربية على العلامة شبلي . و استفاد منه في الجوانب المختلفة من التاريخ الإسلامي و تاريخ الدعوة الإسلامية . الأمر الذي حدا به إلى تأليف كتاب "دعوة الإسلام" و تعلم العلامة شبلي اللغة الفرنسية من البروفيسور أرنولد.

بركات إقامته بعليكره :

لا شك أن العلامة شبلي كان منذ طفولته مطبوعا على الذكاء و الذهن و كفاءات الانتقاد و النظر و مواهب الكتابة و التأليف و الشعر و الأدب ، و لكنه يدين في تنمية هذه الكفاءات و توجيهها شطر التقدم و الازدهار لجو عليكره العلمي و الأدبي و مجالس السيد أحمد خان . و أقام في عليكره نحو ستة عشر عاما ، استفاد خلال هذه الفترة في نواحي الثقافة المختلفة و استقى من مصادر الفكر الحديثة ، تعرف على الأوضاع و الظروف السياسية و الاجتماعية و العلمية و الحضارية للعهد الحديث و مقتضياته و متطلباته و وسع في دراساته ، و هذب صناعة الكتابة و أساليب التأليف ، أدرك قيمة تراثه الإسلامي العلمي و الحضاري ، عرف الغرب و درس اتجاهاته العلمية و الأدبية و رسم حدود محاسنها و مساوئها . ملخص القول إنه ظهر في عليكره مؤرخا ، مؤلفا ، كاتبا ، شاعرا و أديبا ، بل و شيخا للعلماء و علامة الزمان و قد صرح بذلك في إحدى خطبه التي يقول فيها:

> " *الواقع أنه إذا كان جزء من حياتي يستحق أن يسمى علميا و تعليميا فإن هذه الكلية هي التي يرجع إليها الفضل في سعته و نشاطه و نموه و ازدهاره و تقدمه.*
>
> *لا أقول إنني لم أدخل في مجال التأليف و الكتابة من قبل ، فقد طبع لي كتابان بل ثلاثة كتب قبل مدة طويلة ، و لكنها لم تكن تهدف إلا إلى تأجيج نار الخلاف و النزاعات الدينية و المذهبية ، و تشتيت شمل المسلمين و تمزيق جمعهم و الزيادة في الفوضى السائدة من قبل.* "

و قال :

> " *فأنى أدين في كل ما تعلمت أو جميع ما تكسبت به لهذه الكلية ، فأني تلميذ لهذه الكلية و طالب من طلابها كما أني أستاذ بها و معلم.* "

إن ما صرح به العلامة شبلي النعماني عن نفسه لا يشوبه شيء من المبالغة ، فعند عليكره و ليس له ذكر في الدوائر العلمية و الأدبية و لكن لم تمض خمس سنوات حتى اخترق صيته حدود البلاد ككاتب ألمعي و مؤلف شهير بارع ، و دبج يراعه أحسن مقالاته التاريخية و سيره القيمة و منظوماته البديعة و هو مقيم بعليكره.

و قام العلامة شبلي بمشاركة عملية فعالة في نشاطات الكلية العلمية و الأدبية و الثقافية و حركة السيد أحمد خان الإصلاحية و التأليفية ، و وقف

مؤلفاته على الكلية حتى تعود منافعها إليها . و ظل يعمل مساعدا للسير سيد أحمد خان.

و لكن العلامة شبلي النعماني كان يحمل عقلا كبيرا و دراسة عميقة للإسلام و تاريخه . فلم يقبل من السيد أحمد خان آراءه الشاذة التي تعارض المعتقدات الإسلامية و الأسس الدينية ، بل انتقدها انتقادا حرا أداء للفريضة الدينية و الخلقية التي تعود عليه.

كان السيد أحمد خان و أتباعه قد انبهروا بالحضارة الغربية و الثقافة الحديثة فأقبلوا عليها و أخذوها على علاتها و مفاسدها . و قاموا بتأويل الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و المعتقدات الدينية في ضوء المعارف الغربية ، بينما كانت الطبقة القديمة للعلماء قد أغلقت على نفسها كل باب ، فحرمت على نفسها حتى الاستفادة من العلوم الغربية الإنسانية و التجريبية . و لكن العلامة شبلي بفضل تربيته الخاصة و عقليته الإسلامية المتفتحة اختار طريقا وسطا ، فلم يحرم المعارف الحديثة و لم يؤمن بها إيمانا أعمى . بل استغلها بعين مفتوحة و عقل واسع ناقد . كان الله تعالى تولى تربيته و إعداده في أكبر معهد علمي حديث في الهند لذلك العمل الجليل الذي حققه بمؤلفاته القيمة و مقالاته البديعة الغالية . و أدائه دورا بارزا في حركة ندوة العلماء و رسمه خطة دار العلوم لندوة العلماء ، و صياغته المنهاج التعليمي الجديد المستمد من تجارب المناهج التعليمية العالمية.

و كان من سعادة حظه أن وفقه الله تعالى لجولة للبلدان الإسلامية اكسبته تجارب واسعة و نضجا في العقل و الفكر.

• للبحث صلة ــــ

تعريب : محمد أكرم الندوي

مولانا حسين أحمد المدني

بقلم : سماحة الشيخ
أبي الحسن علي الندوي

كان الزمن زمن سنة ١٩٢٨م ، و كان مؤتمر متحدي الأحزاب يمارس إجراءاته و برامجه في مبنى المعروف باره دري الأبيض بلكناؤ، و كان تقرير "نهرو" في دور البحث و النقاش، و ألقى الشيخ شفيق أحمد خان الشرواني خطبته حول تقرير النهرو، و عرض فيها بعض إحصاءات، فبرز عقب خطبته رجل وقور، عليه قباء عربي و عمامة هندية ، و لكن الذي يبعث على الدهشة و الاستعجاب أنه تناول بالضبط و التصحيح بعض الاحصاء، التي قدّمه الشرواني رغم أنه كان زعيما سياسيا محنكا، فكان الجواب المنتظر للأنظار المتطلعة هو "مولانا حسين أحمد المدني".

ثم استمعت لخطبة الشيخ و ابتدرته أبصاري في حفلة سرور و شكر بمناسبة نهاية مقدار الدرس المقرر في السنة للقرآن عقدها طلبة صف من صفوف دار العلوم لندوة العلماء في رحابها، وجدت فيها كلمته علمية دينية قيمة ، تناول فيها بذكر فضائل و آداب القرآن الكريم و التنبيه للطلبة إلى احترام القرآن و احترام الذين خدموه، و التوجيه و بيان السبب فيها أن بعض الفرق لايتثنى لها حفظ القرآن المجيد، و قراءته عن ظهر القلب كما تناول بالتشريح و الانتقاد لزيادة قسط المنطق في منهاج الدرس القديم و توغل العلماء في هذا الفن و بخسهم لنصيب القرآن العظيم و الحديث الشريف، و كيف أدال الله بعد ذلك للقرآن و الحديث من هذا الفن الطارئ، الشاغل من الفكر و الدراسة مكانا لا يستحقه، و تشرفت بزيارة الشيخ لدى عودته من الحج عند ما كنت طالبا في لاهور، رجعت إلى ذاكرتي و تلقفت أحوالي فاذا بها أول معرفتي بالشيخ و صلتي به، فطالب لايزال شبابه غضا طريا و ثوب عمره لايبقى نقيا، نشأ و ترعرع بعيدا عن جو الاصلاح و التربية ، و لا يكون لديه ميل طبيعي الى المجال السياسي، و لا عمر طبيعي يقتضيه، فمثل هذا الطالب لايمكن له أن يتشوف أكثر من هذا بزيارة عالم جليل معروف جل همه و شغله الشاغل خدمة الشعب و الوطن.

ظل بيتنا منزلا مستقلا لإقامة الشيخ في لكناؤ سنة ٣٦ ـ ١٩٣٠م و كان أخ كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبد العلي من المتخرجين من دار العلوم ديوبند و تلاميذ شيخ الإسلام شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي رحمه الله. و كان لبيتنا " البيت الحسني " بفضل السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد أواصر و أرحاما دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في كل ناحية من نواحي الهند خصوصا المنتسبين منهم إلى مدرسة شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي الدينية و العلمية و منهم علماء ديوبند. و يكتسب بها بيتنا وُدّهم و التفاتهم و عطفهم و عنايتهم. فلم يزل أخي متمتعا بحدب شيخ الهند و عنايته مادام يقيم في ديوبند. و كلما أراد أن ينتمي إلى مصلح رباني لإكمال ناحية التزكية و الإحسان لم يقع اختياره إلا على شيخ الهند، و لم تحقق هذه الرغبة حتى اعترض لشيخ الهند السفر إلى الحجاز و واجه مرحلة "مالطا" و لم تسنح له الفرصة لتحقيق ذلك في العودة كذلك، فشاء الله أن تحقق هذه الرغبة بشيخ كان من المقدر أن ينجز و يحقق كثيرا من رغبات و مشاريع ذلك الشيخ.

كانت لكناؤ ـ لأسباب و خصائص عديدة ـ مركزا كبيرا بل و كبرى المراكز للحركات السياسية و القومية، فكانت تنعقد فيها احتفالات حزب المؤتمر الوطني حتى الجمعيات و الهيئات السياسية المدنية العديدة، و كان كثيرا ما يتفق للشيخ أن يحضرها، و لم يستطع الانهماك السياسي و لا الحضور المذكور الدائم لمؤتمرات و احتفالات حزب المؤتمر الوطني أن يغير شيئا من طبعه و أشغاله و واجباته. كانت مقرات الزعماء السياسيين و المندوبين في لكناؤ دائما هي الفنادق الفخمة أو المنازل القديمة لقيصر باغ أو أعيان البلد. لكن الشيخ لم يتلاءم طبعه مع هذا الجو الأنيق المزخرف. فكان منزل بسيط مخلص قريب من المسجد يسهل به إتمام و إنجاز مشاغله و لايكون به التصنع في المأكل و المسكن كان ذلك أحب إليه ألف مرة، و كانت حارتنا ـ سوق جهاؤلال ـ امتازت دائما بأن تسكن فيها المسلمون الأصحاء العقيدة، المتمسكون بالدين و الشريعة. و لم تزل هذه الحارة و مسجدها مركزا للعلماء و الباحثين بفضل والدنا ـ العلامة السيد عبد الحي الحسني ـ و العلاقة الندوية، فاختار الشيخ لإقامته هذه الحارة و بيتنا. و لم يتخلف من تلك طوال هذه الفترة، و قد اتفق أنه ساهم لساعات في مناقشات و احتفالات القصر الفخم "تسليم بور هاؤس" و "بارة دري" الملكي، لكنه تناول الطعام على مائدتنا "الفقيرانية" مهما أدى ذلك إلى تأخير و وقت طويل. كما حدث أنه زار بعض مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلامية و عاد في الليل متأخرا و هو لم يتناول الطعام بعد، فتناول عندنا "ماحضر" و استراح، هذه هي البساطة و عدم الاحتشام لبيتنا كان الباعث على إعجابه و تفضيله، و كلما حاولنا شيئا من التكلف و الاصطناع شكاه، و وجد في نفسه من ذلك شيئا.

نزل الشيخ عندنا و أقام في بيتنا أياما و ليالي متوالية بل و أسابيع بمناسبة الهيئة البرلمانية الاسلامية و حركة مدح الصحابة و غيرها، إذ عرفت ذلك و أنت تعلم كثرة أسفاره، فلاتسأل عن حديث يدور و مجالس تنعقد و اجتماع يحصل، و لا تسأل عن سرور و أنس و لا تسأل عن بركة و خير، و لا عما يتمشى من دراسة و مشاهدة الضيوف الكرام عن كثب في منزل محدود و عيشة بسيطة، و عن اليسر حدث و لا حرج!

و الشيء الذي لاحظته بصورة خاصة هو بشاشته و طلاقة وجهه، و نشاطه و تيقظه و إعطاء كل ذي حق حقه من العناية و الالتفات، و التزام الأوراد و النوافل و الاشتغال بالليل، و قد شاهدت عيناي مناظر مدهشة متعارضة، حيث رأيت في جانب عاطفة الحب و الانقياد و روح التضحية و الفداء في بعض الحركات الملية، و في جانب آخر رأيت اشتعال غضب و استياء الجماهير الذين سرعان ما يتخلطون و ينفعلون، و سمعت المسئولين يؤنبونهم و يؤنبونهم وجها لوجه، و لكني وجدت الشيخ قائما على حالة واحدة، و شاهدت أن الأعلام و المشاهير يحضرون إليه و يمثلون بين يديه بكل أدب و احترام و يستكتبون منه رسائل التعريف و الوساطة، و لمست فيهم ظاهرة التكران للجميل و سوء الأدب و شدة اللهجة و الضراوة و التعسف، و قد شعرت - سواء عبروا عن ذلك بعقلية الناقد أو مشاهدة الواقع و وضع الشيء في نصابه - بأن الواردين و الحاضرين في مجلس الشيخ قل منهم من استفاد من ذوقه الأصيل و انتفع بعلمه الخاص، و إنما كان جل وقته ينقضي في ذكر الأشخاص أو الجماعات أو التعليمات الفارغة أو طلب التمائم و التعاويذ و الدعاء، و كان الشيخ بفضل كرم طبعه و أريحيته المعروفة و حضارته النادرة المثالية يتحمل كل ذلك و يتكلف الطلاقة و البشر و لايبدي أي عبوس أو فظاظة بل يبقى بهي الطلعة و هش الجبين دائم البشر طليق المحيا، و كان لايلبث أن تنبسط أساريره و يتهلل وجهه بشرا إذا ما وجّه أحد سؤالا من التزكية و الاحسان أو أثار بحثا علميا أو طرح ذكر الربانيين و الصالحين و المصلحين، فإذا به طلق الوجه مشرق المحيا، كأنما ضرب على وتر القلب و أثيرت أوتاره.

لم يكتف هذا العاجز بمشاهدة الشيخ في الشارع و السفر فحسب و إنما شاهده في منزله كذلك، فقد أقمت عنده في ديوبند لأربعة أشهر، أقمت حوالي شهر عنده في منزله بصورة خاصة، ثم تحولت باصراري و إلحاحي إلى غرفة لدار الشفاء تتصل بباب الشيخ و تقع على الممر، عز ذلك على الشيخ كما ظهر على وجهه، و لكنه تنازل إلى رغبتي و أذن لي بالتحول، و كانت هي الأخيرة أيضا تحت ظله و كرمه، فقد كنت ألتقي به ذهابا و إيابا و قياما و قعودا و تنزها و تفرجا في الحديقة صباح مساء، و لدى تصحيح الجرائد و الفطور لشاي الصباح الذي اشترطه عليّ، فكنت ألتزم ذلك، و رأيت يوم مضى الشتاء

إلامتي هذه أيضا لوسيعته المعروفة و مقاومته الشاهرة و بخلافته الشهيرة و برسمه كتابا جليلا و طالعت صحيفة تلك فصول و أبواب منها الدين و منها الأخلاق و منها السياسة ، صحيفة حية ناطقة صحيفة عنوانها الحسن و الحمد . و ليس لي إلاّ أن أكرر ما كتب كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه على حاضر العالم الإسلامي : قد رأيت في العهد السند بالعيان ما كنت أتخيله و حقّ لي و الله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا و الله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

و وجدت منزل الشيخ محيطا عامرا بالضيوف، من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء و سياسيين و متصوفين و مظلومين يذهبون إلى السجون، و الزمن زمن الحكومة الانجليزية و الأيام أيام حركة التحرير و الجلاء ، و من أعضاء الجمعية و العاملين الشباب و رجال المظاهرات و الراغبين في البيعة و الاصلاح و الطالبين للتعويذ و الدعاء، وجدت مائدة واسعة و وجدت قلبا أشمل و أوسع من المائدة . قلبا لايعرف السآمة و الفتور و الملل من كثرة الوفود و حشد الضيوف، و وجدت بيته زاوية دينية ومدرسة سياسية و ناديا علميا تأتيه الصحف و المجلات من جميع أنحاء الهند، و يتهافت عليها الطلبة الذين قد كثروا و فكرته السياسية الشاملة تهافت الظمآن على الماء، لأنهم لايجدون الصحف في غير هذا المكان . ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث و يتبادلون وجهات الأنظار، و قد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ و هكذا يتلقون ثقافة سياسية و يخرجون رجالا متحمسين و أحرارا ثائرين.

هنالك تعارفت بالسياسي النابغ مولانا محمد سجاد البهاري نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار (BIHAR) الذي رزق به المسلمون حديثا. رحمه الله رحمة المجاهد الذي مات بالميدان، و كان الشيخ عظيم الإكرام و الإجلال له كثير الاستشارة منه، و هناك تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء، و تعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيته، و قد كانت تنعقد مجالس منبسطة بعد صلاة المغرب في حديقة الشيخ الصغيرة و بين أشجار الزهور أمام حجرته.

وكان يحضر في بعض الأحيان عالم وقور عليه سيما الشيوخ الكبار و روعة المعلمين السلف، كثير السكوت قليل الكلام إلاّ أنه إذا تكلم تكلم بكلام محكم فصل، وكان ممتازا في هذا المجلس كأنه من أشد الناس حبا لصاحب البيت و أكثرهم إجلالا له و إنصاتا لكلامه، يملأ قلبه من حبه، و أذنه بكلامه و لا يكاد يملأ عينه منه ، غاض الطرف من غير مرض، مطرق الرأس من غير حياء، صامتا من غير عيّ ، سألت بعض الإخوان عنه فأخبرني أنه مولانا إعزاز علي،

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئا، فقبل و سمح لي بالاشتراك في درس شرح الوقاية، كان الشيخ مهتما بهذا الدرس جد اهتمام، و اختار عددا من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص. و أذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درسا من نور الأنوار بعد صلاة العصر.

و كنت أشترك في درسين آخرين مهمين، يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث و رئيس الأساتذة في دار العلوم بنفسه. و يواظب عليهما، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي و درس الجزء الثاني من صحيح البخاري، فسرعة و دقة خاطر الشيخ و قوة ذاكرته و العلاج الشامل الكافي للمسئلة ليس خفيا على الذين يطلعون على مشاغله السياسية و كثرة أسفاره. و قد كان تقريره حول مسئلة واحدة يستمر ثلاثة أو أربعة أيام - اعتبارا من ستين دقيقة لحصة تعليمية واحدة - و يعالج مرتجلا كل ما يتعلق بأثناء المسئلة و شقها و اختلاف المذاهب و الأئمة و دلائلهم و مصادرهم و المتن و رجال الأسناد، فكانت له روعة في قلبي ، و كانت تغشى دار الحديث غاشية من الدين، و سحابة من الروحانية ، و لايزال يرن في أذني صوت الشيخ العذب الرنان و لحنه العربي الجميل.

و كانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة و مقدار الدرس المقرر لم ينته بعد. فكانت دروس متوالية و يكاد يكون النهار كله درسا، درس بعد صلاة الصبح و كذلك درس بعد صلاة العصر و فترة بعد المغرب، و درس بعد صلاة العشاء يستمر إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، و ذلك في الشتاء في البرد الشديد، و لكن الطلبة قلما كانوا يملون لفكاهة الشيخ و نوادره و دعابته

كان الزمن زمن سنة ١٩٣٢م ، و كانت برامج أسفاره تعد مسبقة، و أكثر ما يقضي جمعته في الخارج، و إن الله تعالى قد ذلل له السفر مثلما ألان لداود عليه السلام الحديد، حيث قال : و ألنا له الحديد" فكان مصداقا لقول الشاعر: "ما أب من سفر إلا إلى السفر" ، كنت مشغوفا بمطالعة تفسير القرآن الكريم و أواجه فيها مشكلات ربما يستعصي عليّ حلها بأي كتاب، فكان الشيخ خص لي وقته بعد كل جمعة لأعرض عليه ما يشكل عليّ من مطالعة تفسير القرآن المجيد. و لكن لم يتأت لي سوى بعض الصحاب، و متحمسي للدراسة و المطالعة بعض كتب سياسية مثل "حكومت خود اختياري" (حكومة الاستقلال) لمؤلفه طفيل أحمد و رسائل مولانا محمد قاسم نانوتوي رحمة الله عليه، و كان من بركة الإقامة في ديوبند أن اشتدت فيّ عاطفة كراهة الانجليز التي كانت تتوفر جراثيمها في قلبي وراثة، و قد تضاعفت هذه النزعة فيّ كثيرا فيما بعد حتى عدت أعتقد عن صميم القلب أن ليس إنجليزي واحد فقط بل أوربا كلها داعية للإلحاد و المادية ، و لا يمكن ازدهار الدين و الأخلاق و لا انتشار الدعوة الإسلامية و انتعاشها إلا إذا انهارت أوربا و دبّ فيها دبيب التدهور و الانحطاط، و ليس

الأمر أمر حكومة و عبودية دولة أخرى فحسب، و إنما هو أمر حضارة متكاملة و منهج فكر مستقل و دعوة شاملة لها أسسها و مناهجها و أساليبها الخاصة و هي تعارض التعاليم النبوية و الوصايا الدينية و آثارها و مقتضياتها في نهاية المطاف و طول الخط، فلم أدرك و لم أتفطن للجو و البيئة التي دعا فيها موسى عليه السلام بغاية من العجز و الاضطرار. ربنا إنك آتيت فرعون و ملأه زينة و أموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم الخ لم أتفطن لذلك إلا بعد ما بسطت أوربا نفوذها و سيطرتها على العالم، و أحرزت تقدمها الهائل المدهش ، لقد كان الانجليز وسيطا متحمسا و عميلا ناجحا لأوربا المادية اللادينية في الشرق، و كنا نحن أهل الشرق أول من واجهوه ، و أكثر من تعرضوا لهجماته الشرسة فاستفزازنا و تقززنا منه أمر طبيعي. لكن الكفر ملة واحدة فتنبغي هذه الحضارة و دعوتها و تتحمس لها أمريكا و روسيا و الدول و الأقطار الآسيوية اللادينية نفسها التي اعتنقت فكرة أوربا و نظام حياتها بجملته و احتضنته بحذافيره و على علاته، كما أن الواقع أن الخسارة الدينية و الإيمانية و الخلقية التي تصيب العالم الاسلامي من أوربة أعظم و أخطر مما يصيبه من الخسائر المادية من الحكومة الأجنبية. على كل فقد كان هذا التقزز الخاص يحتل أهمية خاصة في حين من الأحيان، و كان في ذلك ـ دونما شك ـ نصيب للبيئة التي نشأتها و فضل كبير لصحبة الشيخ و المطالعة.

لم يكن لأثناء إقامتي في ديوبند ما يبعث على السلوان و تمكين الخاطر إلا الشيخ وحدها، و ذلك لأن نشأتني و تربيتي العقلية و التعليمية قد تمت في بيئة فلت معها رغبتي في البيئة الدرسية و المدرسية هناك، و لكن نظرة عناية منه و ملاقة و بشاشة له و سؤاله عن شيء بكل عطف و كرم في حين من الأحيان كان كفيلا بأن يخفف وطأة الثقل و ضغط البيئة كله، و أتلذذ به طويلا.

رجعت إلى الهند في نهاية شهر رجب أو بداية شهر شعبان، و استمر أيابه و ذهابه و إقامته عندنا و بذلك لم نزل يشرفني لما شرف خدمته. و اتفق لي أن صحبته في السفر فانكشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الانسانية و قرأت صفحة جديدة من صفحات حياته ـ تغمده الله ـ و الانسان في السفر غيره في الحضر، و لكن رأيته عين ما رأيته في بيته بل و أجمل ، نزاهة أخلاق و عفة بطن و علو همة و شهامة نفس. و صبر لا يعرف السآمة و الملل ، و همة لاتعرف الفتور و الكسل ، سهر في طاعة و يقظة في شغل و نومة في اعتدال، و أكلة في اقتصاد، و حياة كلها جد و اجتهاد و تضحية و جهاد. اتفق لي أن صحبته في إحدى مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلامية، و كان الشيخ من برامجه أن يقوم بالجولة في منطقتنا (راي بريلي) و كان مجهودا مكدودا قد بلغ منه الإعياء كل مبلغ للأسفار المتواصلة، و الناس إنما يهمهم شأنهم أنفسهم ، لايبالون بصحة الآخرين و راحتهم، فجعلني أبقى مع الشيخ ـ

بعد ماشعر بإعيائه و تعبه الشديد ـ لكي أوفر للشيخ الراحة و الاستجمام عندي في "دائرة الشاه علم الله" براي بريلي ليوم أو يومين ، وأحاول أن يقضي الشيخ بعض أوقاته في الراحة و الاستجمام و فراغة البال، كانت الجولة المخططة في منطقة جانسي (نصيرآباد) و السفر بالسيارة، و كان معنا كذلك المرشح الذي هو محام مسلم معروف لاترابرديش، فانكشف لي بهذا السفر أن الشيخ يمارس هذه المهمة و هو يعتبرها وظيفة دينية خالصة يدفعه الى ذلك اعتقاد جازم و عاطفة دينية قوية، يتحلى بنزاهة أخلاق و عفة بطن و يقظة مخاطرة تتوفر في الجندي و هو في ساحة الحرب، ففي صلاة الجمعة في جامع قرية، و كان الخطيب من المكفرين لأبناء ديوبند فاغتنم الفرصة و قال عن بعض علمائها الكبار شيئا كثيرا، جلس الشيخ بعدما فرغ من السنن يستمع إلى الخطيب هادئا، و انصرف ساكتا بعدما قضيت الصلاة، و لم يتكلم عن الخطيب شيئا إلى نهاية السفر و لو سهوا، نظم المرشح طعاما لذيذا ذا ألوان و فنون ، كما هو عادة المرشحين و كما يرجوه خطباء الدوائر الانتخابية ، اشركني الشيخ معه في صحيفة واحدة و لم يلبث أن نزع يده حتى ظننت أنه لايعتقد حل هذا الطعام إلاّ سداً للرمق ، أقام الشيخ في راي بريلي ليلة ، و اعتكف وحيدا في مسجد الشيخ الشاه علم الله جد سيد أحمد الشهيد طويلا يراقب ذكر الله ، و بعد ما خرج منه وجد في البهجة قليلا لم يكن يتصل إلاّ بالآخرة و البرزخ و عالم الأرواح ، و أبدى مشاعره و انطباعاته القلبية عن هذا المكان المتبرك التاريخي لدى المغادرة، و أعرب عن رغبته في طول الإقامة ، الذي لم تكن تتسع له حياة الشيخ النشيطة الحافلة إلاّ قليلا.

ثم توترت الأوضاع و الملابسات و جاء الزمان الذي كان فيه رأي الشيخ و حنكته السياسية معارضا في طول الخط لرغبات و عواطف جماهير المسلمين و الفكر السياسي للزعامة المقبولة السائدة آنذاك. صدع الشيخ بوجهته بكل قوة و جراءة ، و بيّن الخسائر و الأخطار المتعلقة بالانفصال، و لم يقتصر على ذلك، بل قام بجولات موسعة في أرجاء البلاد لبث دعوته و إنعاش حركته و ترويج آرائه و خطب في مختلف الأماكن و نشر لذلك كتيبات و مقالات عديدة، و كان المسلمون آنذاك عرضة لصراع عقلي و توتر نفسي عنيف مرجعه سببان: أحدهما تزعزعت أبناء الوطن و جبانتهم و نفسية الأمر التي طالما ظهرت زمن الحكومة الإنجليزية، و لأجل ذلك لم يكن في مقدمة هذه الحركة إلاّ الطبقة التي احتكت بهم في المكاتب و الدوائر الرسمية و المعاهد و المرافق العصرية الأخرى، و الثاني يرجع إلى طبيعة القيادة الوطنية للمسلمين، إن هذه الزعامة المتطرفة أشعلت عواطف المسلمين و بلغت بحماستهم مبلغا أصبحوا به يتقلبون على الجمر ثورانا و هيجانا و فقدوا كل صلاحية للاستماع إلى أي رأي معارض و تحمله و اعمال الفكر في أي قضية بقلب سليم و ذهن فارغ و تقليبها على جميع وجوهها ـ و لكن إخلاص الشيخ و عزمه الصميم و شعوره بالواجب

أبى أن يخضع لهذه الظاهرة المؤسفة و أن يستسلم لها، و اعتبر أفضل الجهاد و عد من واجباته أن يصمد في وجه هذه الظاهرة المتفشية و يصدع بكلمة الحق أمام قوتها الهائلة وفق ما يملي له ضميره و عقيدته الثابتة. مما أدى إلى أن حدث في الأسفار و الاجتماعات و الحفلات ما لم يكن بالحسبان. و لقي في ذلك ما لم يكن يليق بتاتا بشخصيته البارزة و خدماته السابقة المشكورة و مكانته العلمية الدينية، و كانت هناك طبقة يدرك حقائق الأمور الباطنة بجانب الأمور الظاهرة، و كانت هذه الطبقة تتألم و تتضايق بالأحداث التي كانت تظهر في مختلف الأماكن، و تشهد شهادة ظاهرة بعلو مكانة الشيخ و نزاهته و إخلاصه و ربانيته، و تعتبر هذه الأحداث المؤلمة جرحا و خسارة فادحة للمسلمين، أتذكر أنه لما كان يقرأ علينا أحد منا في أي مجلس من مثل هذه المجالس حادث محطة "سيدبور" لم يتمالك الشيخ الرباني مولانا عبدالقادر الراي بوري و شيخ الحديث مولانا محمد زكريا اللذان كانا موجودين في ذلك المجلس، من البكاء من شدة التأثر بهذا الحادث المفجع، و لم يبق أحد منا إلاّ و ابتلت عيناه . فأصبحت الثقة لذلك بحب الشيخ و الهيام به و خلوصه و نزاهته شبه جزيرة يحدها من كل جانب بحر زاخر من الغضب و الاستياء، و سوء السمعة و الفضاحة ، و الشوسمية و الارتزاق و التلفية و العملية تصطدم أمواجه العاتية بشاطئ هذه الجزيرة ثم تنصرف . و كانت هذه الجزيرة عامرة بآلاف بل عشرات الآلاف من المسلمين المتطوعين الذين كانوا يشعرون الثقة - حتى في تلك الساعات الحرجة الشائكة - في خلوص الشيخ و عفته و نزاهته التي لاترتقي إليها الشبهة ، و كانوا يؤمنون عن قرارة القلب بأن الشيخ يمكنه أن يجتهد فيخطئ، فإن جميع أصحاب الاجتهاد، و لكن الله رفعه عاليا عن كل من الانتهازية و الشوسمية و الإعجاب بالنفس و حب الشقشقة و الظهور، و بحثنا في لكنئو إنما كان يلح على نفس الجزيرة ، و بناءا على أن لكنئو كانت من المراكز الهامة لهذه الحركة الشعبية اتفق لنا أن نحتك بهذه الموجات العاتية من الغضب و القلق و نصطلي بنيرانها الساعرة.

و بالجملة فقد جاء الزمان الذي انسحب فيه الزعماء و القواد من الميدان و غادروا المسلمين الذين أخلوا مواطنهم و أثاروا حماستهم و التزموا عالمهم الذي بنوه. مما أدى إلى تعرض المسلمين لليأس الشديد وقطع الرجاء عن المستقبل و عدم الثقة و الاعتداد بنفوسهم و مركب النقص فهم حائرون متخاذلون تتحكم غاشية من الذعر و الهوان و الإهمال، لايجدون من يعزّيهم و يسليهم حتى كأنهم أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، هنالك برز الشيخ و أتباعه ليعيدوا إلى المسلمين ثقتهم و اعتصامهم و يحركوا فيهم الرجاء و الطمأنينة إلى المستقبل و يشحذوا هممهم و يشحذوا عزائمهم لمقاومة الأوضاع الحرجة و الصمود في وجهها صمود الجبال الراسيات و البقاء في

أوطانهم، مهما أدى ذلك إلى الخسائر الروحية و المالية، و ثباته و بقاء المسلمين لشمالي الهند و لا سيما لاترابراديش - التي تحتل مكانــة المركــز العقلــي و العلمي و السياسي لمسلمي الهند - انما كان يتوقف على بقاء و ثبات المسلمين في المديريات المتاخمة لغربي أترابراديش أي سهارنفور، مظفر نغر، ميرت ، فلو كان المسلمون لسهارنفور التي هي واسطة مديريات اترابراديش و شرقي بنجاب زلت أقدامهــم و ضعــفت هممهم لتعسر للمسلمين الثبــات و البقاء في أي مديرية، و كانت سهارنفور و المديريات المجاورة لها تشهد تحت ضغط الأوضاع المحلية و قربها من شرقي بنجاب كانت تشهد حركــة متهافتــة و دافعا قويا إلى النزوح و الانفصال ، فمن فضل علماء ديوبند و سهارنفــور و مشيختهم الجديرة بالتقدير و الثناء أنهم قاوموا حركة النزوح أشد المقاومة، و اعتبروه احتضار المسلمين دينيا و سياسيا، و شمروا عن ساق جدهم و بذلوا قصارى جهودهم في الأخذ بحجــز المسلمين و بعث هممهــم و تثبيت أقدامهــم و كان في ذلك أيضا نصيب كبير لجهد الشيخ المتواصل فقيامه نفسه و خطبه الملتهبة الحماسية لعبت دورا بارزا في خلع الروح الدينية في مسلمي هذه المديريات و تشحيذ عزائمهم و إثارة عواطفهم ، حتى هدأت الموجات و توقف النزوح ، و قد يشعر كثير من الناس كنفسي أنه لو كانت في صحة الشيخ بقية من الجد و الجهد و سامحته الأوضاع و ساعده الرفقاء و الأتباع، و لم تكن الأوضاع و الملابسات . على العكس مما كان يرجى - أنهكت قواه و أضعفت جوارحه لاستطاع الشيخ أن يعالج الأوضاع المتغيرة المتدهورة و يوجهها توجيها رشيدا و يسد خللها و يقاوم الاتجاهات المنحرفة بنفس الهمة و الطاقة -

و لو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت و لكن الرماح أجرّت

بذل الشيخ أنفس طاقات شبابه و فتوته و أروع صلاحيات عقله و قلبه و جل شهامة نفسه و علو همته القلبية في مقاومة الإنجليز و إجلائهم، الأمر الذي قد أمدته لذلك صحبة شيخ الهند و تجربته و دراسته، فلما ظهرت طلائع ثورة ١٩٤٧م العنيفة بمقتضياتها الطريفة و متطلباتها المتنوعة كان يواجه انحطاط السن و اضمحلال الأعصاب و القوى و تضخم الأشغال و الواجبات، و كان الولي السائد أن مجرد بقاء المسلمين في هذه البلاد في خضم الأوضاع الشائكة آنذاك نوع من الفتح و الانتصار العظيم، و أنه قد جاء دور أولائك الذين يعثرون على الآثار البعيدة لهذه الثورة و يقدرون على الصمود في وجهها علميا و فكريا.

إن شخصيته تجمع أشتاتا من الفضائل و المتناقضات من الخصائص، يتعسر علينا أن نقدر الميزة التي تتصدر المقدمة و تحتل أبرز المكانة و أروعها من بين مزاياها و خصائصها، و التي يمكننا أن نعتبرها قطبا لتلك الشخصية تدور حوله جميع مواهبها و مزاياها و نسهل به معرفة حياتها و خصائصها إن

كثيرا من الناس يعرفون الشيخ كعالم و محدث، و آخرون كمصلح و عارف رباني و منهم من يعرفه كموجه سياسي و مجاهد. و لا شك أن الله تعالى وفقه أن يتحلى بإشتات هذه الفضائل و المتناقضات من الخصائص و الأعمال ، و لكن ميزتين لحياته تحتلان - في رأيي الناقص - المكانة الرئيسية في حياته و تميزانه من بين أقرانه و معاصريه . و هما العزيمة و الأنفة و الحمية . و أي دليل أكبر على عزيمته أن تجاوز و تخطى مآثر العلماء، و أهل التدريس ، و اعتنى بالقضية التي كانت من أهم و أخطر القضايا آنذاك، و أحرز شرف أفضل الجهاد لـ "كلمة حق عند سلطان جائر" بما أعلن الحق مدويا و رفع كلمته عاليا أمام حكومة الإنجليز و هي في ريعان شبابها و حسنها في رابعة النهار. قضى شبابه أسيرا في "مالطا" و اقتفى السنة اليوسفية بإسارته في المعتقلات الهندية شهورا و أسابيع، و صمد في وجه أعظم و أقوى دولة العالم صمود الجبال الراسيات سنين طوالا، حتى حقق الله غايته المنشودة، ثم إن هذه العزيمة تتجلى بأروع أشكالها في جميع نواحي حياته. فالقيام بالواجبات و المحافظة على السنن و المندوبات و التزام الأوراد و الوظائف بإستقامة عظيمة في هذا الزمان . كما أن إيفاء العهود و المساهمة في الاحتفالات و الاجتماعات النائية و تحمل كل صعوبة و مشقة في سبيلها استقامة مستقلة، ثم إن المواظبة على دروس دار الحديث و إكمال المقرر الدراسي جهاد كبير. و إكرام الضيوف و لقاء الزوار بوجه طليق و حسن معاملته مع الأشخاص المختلفي الطبائع و العادات و تحمله و صبره على خصائصهم الطبيعية المتنوعة أيضا جهاد كبير. و زد على ذلك تربيته لمنتسبيه و مراقبتهم و رده على الرسائل الكثيرة، و كل ذلك في خضم أشغاله و واجباته و ضعفه و شيخوخته ، أفليس كل ذلك دليلا على عزيمته المدهشة الخارقة و علو همته المعجز الباهر؟ الواقع أنه برهن على العمل بالحديث الشريف: إن الله يحب معالي الأمور و يكره سفاسفها . و أشهد عمر هذا الحديث في جميع نواحي حياته.

و الحمية أروع و أزهر عنوان لصحيفة حياته، فهي التي أثارت فيه عاطفة مطارحة الإنجليز و مكافحتهم التي لم يشبع منها إلا بعد ما طوى الإنجليز بساطهم من هذه البلاد . و هي التي كانت تدفعه إلى الحماسة و الانبعاث في شئون حركة الخلافة و جمعية العلماء، و هي التي جعلته شابا متحمسا و متحمشا في كل حين و آن، و هي التي أثارت حماسة مئات بل و ألوف من الناس ، و كانت هي الحمية التي حملته على أن يقرأ القنوت شهورا ضد القوى المعادية للإسلام مدويا مجلجلا بخشوع، كثير من الحماسة و النشاط حتى يظهر أن المحاريب قد تتصدع و أن ليست هنالك كلمات تنطلق و إنما هي شررات يلفظها القلب قذفا، و كان من نتيجة هذه الحمية نفسها أن لم يتحمل قط ، و لو للحظة - أن ينظر أمامه منكرا يرتكب أو عملا مخالفا للسنة يقترف، و كثيرا ما كان تلاميذه و الحاضرون حوله يشعرون بحرارة هذه

العصبية، و قد استغله أحيانا أناس عرفوا فيه هذه العاطفة النارية، و أدركوا مدى سريانها هذه العصبية في شرايينه و سيطرتها على نفسه، كما أن كثيرا من الناس استغلّوا كرم طبع الشيخ و مروءته هي ميراث الآباء و من شيم السادات الكرام، و بذلك تسببوا في خزي سيئ للشيخ و معتقديه البارين، و برهنوا بتحقيق أغراضهم النفسية و رغباتهم الشخصية على توسعيتهم و انتهازيتهم و نفعيتهم و مصلحيتهم و ألحقوا الضرر بشخصية الشيخ و أذوه.

مهما كان الشيخ رفيعا من الناحية العلمية و السياسية فلا أنكر ذلك، و سيكتب عن ذلك الكاتبون و يتابعه التابعون، و لكن الناحية التي هي أروع و أشرق نواحي حياته و أكثرها جدارة بالتقدير و الإعجاب إنما هي مروءته السامية و عاطفته الانسانية.

إن دنيا العلم و الأدب لاتخلو من الشخصيات الفذة و الباحثين البارعين المتبحرين، و يمكنهم أن يختلفوا في آراء الشيخ السياسية. فكم أحرز الشيخ النجاح و السراب فيما عقد رجاءه بتحرير البلاد ببعد نظره، و فيما قدره من أغلبية هذه البلاد بكرمه الفطري و نزاهته النفسية. و ماالقى الشيخ البائس و القنوط في آخر عمره من تأمين الضمان و منح الفرصة، الذي ضمنه قرار حزب المؤتمر الوطني و دستور الهند، للأحوال الشخصية و اللغة و الثقافة و التعليم الديني، و مالقي تجارب مرة مؤسفة عن زملائه و رفقائه. بعد ما شغلوا المناصب و حصلوا على السلطة و النفوذ ـ في المعتقدات و الجهود السياسية، كل ذلك من الظواهر التي مهما عجزنا عن إظهارها لكن قلم مؤرخ المستقبل لن يمنعه شيء عن تسجيلها و إبرازها أمام العالم من مجاهل التاريخ. على أن الشئ الذي لاترتقي إليه الشبهة و لا يقبل أي بحث أو نزاع و جدال هو سمو خلق الشيخ و قداسة شخصيته و نزاهة نفسه و نقاء بطنه و خلوص جهده و صفاء حياته و شفافية قلبه و مكارم أخلاقه التي جعلت شخصيته ذهبا خالصا و جوهرا صافيا، و يلحق به إلى قمة العظمة المثالية و السمو الطبيعي التي تمثل به شاعر الدور الأول العربي قائلا:

هجان الحي كالذهب المصفى　　　صبيحة ديمة يجنيه جان

وفق الله كاتب هذه السطور أن يشاهد الشيخ عن كثب وفي مختلف الأحوال من السفر والإقامة والرضى و الغضب و الشغل و الفراغ و الخلوة و الاجتماع، وقدر الله أن يتخذ الشيخ بيتنا منزلا له في لكناؤ منذ سنة ١٩٣٠م في أسفاره و هي كثيرة تكاد تكون مستمرة. و هذه السعادة يرجع فيها الفضل إلى شرف بيتنا ومجد أسرتنا حضرة الدكتور السيد عبد العلي مدير ندوة العلماء، فكان له خصائص اكتسب بها ودّ الشيخ وعنايته الزائدة، كما أتيح لي أن أتعرف على كثير من نواحي حياة الشيخ و أشغاله وخصائصه الطبيعية أثناء إقامتي المتتالية الطويلة في ديوبند و مختلف الإقامات فيما بعد.

تذوق السير و التراجم و دراستها و لاسيما المطالعة المتكررة و المتمعنة المتواصلة لأكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية في السير و التراجم "نزهة الخواطر"(١) لمؤلفه والدي الجليل العلامة السيد عبد الحي الحسني عميد ندوة العلماء السابق عوّدني ذلك على مشاهدة الشخصيات بدقـة و رصانـة و دراسة سيرهم و خصائصهم بنظر دقيق و تحديد و تعيين و اختبارهم بمعايير السلف الثابتة. و انطلاقا من هذه الوجهة و الطبيعة كلما رأيت الشيخ وجدته القمة في الكرم و الشرف و المروءة و سمو النفس و هضمها و الخلوص و النزاهة و السيرة و الأخلاق . و قد ترك ذلك على نفسي أثرا عميقا لمسته و شعرته، بحيث كلما اعتذر ذوقي و عقلي عن التجاوب مع أي رأي سياسي للشيخ أو تعليق و اتجاه علمي له و لم يستسغه عقلي تماما فإذا جاذبية ذوقي جاذبية شخصيته و سمو سيرته و خلقه و نزاهة نفسه و شفافية قلبه، و أطلقت على حبيبي فإذا بقلبي عامر بود الشيخ و حماسه و يفيض حبا و حنانا، لم ينقص منه شيئا.

ووجدت الشيخ كاملا على المعايير السامية للعظمة الانسانية و السمو الخلقي. فكان الخلوص و الصفاء جوهر حياته و الدافع لجميع أعماله و جهوده و نشاطاته. فكما أن بعض الانتهازيين يصعب لهم أن يكونوا مخلصين على أي حال و في أي عمل مهما تكلفوا لذلك و اجتهدوا فيه ، بناءا على أنه قد أصبحت الانتهازية و التوسعية و حب الظهور بمثابة الطبيعة الثانية لهم، كذلك إن المخلصين الذين طبعهم الله على النزاهة و الاخلاص يستحيل لهم أن يكونوا غير مخلصين، و تندفع طبيعاتهم بدافع من نفسها إلى الاخلاص و التقى ، حتى أن العمل الذي تتم مزاولته مخلوطا بالأغراض في عامة الأحوال، من مزايا الصالحين المخلصين أنهم يقومون بهذا العمل أيضا مترفعا عن الأغراض الخسيسة و مدفوعين بدافع من الاخلاص و الاحتساب. فالدور الريادي المعظم الذي لعبه الشيخ في حركة تحرير الهند، و ما تحمل الشاق و الصعوبات في سبيل ذلك، إنما قام بذلك كله مدفوعا بدافع قوي من بغضه الشديد و كراهيته للانجليز - الذين كان يعدهم من أعدى أعداء الاسلام و معاديه - و تحرير الهند ، و تمهيد الطريق بذلك لتحرير الدول الاسلامية ، و زد على ذلك ماطلقته - و لعلها كانت تعدل سابقتها - الطاعة و الاتباع لمشائخه و أسلافه و لاسيما مربيه و مرشده المحبوب شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي ، و لم تخطر بباله سوى ذلك أي خاطرة من النفع المادي و المصلحة الشخصية، و لذلك لما نالت استقلالها و قامت الحكومة النيابية اعتزل الشيخ السياسة العملية، و عكف على الدرس و الافادة ، و أكب على الدعوة إلى الله و تربية النفوس، لايتصل بالحكومة و رجالها، كأنه قد أدى وظيفة و انتهى دوره، و أعتقد أنه لم يكن في الزعماء و قادة الدرجة الأولى إلا هو وحده الذي لم يتسلم أدنى قيمة لتضحياته الجسيمة و جهاداته السياسية السابقة، حتى أنعم عليه

رئيس الجمهورية في جمادى الأولى ١٣٧٣هـ برتبة فخرية. فرفض ذلك قائلاً إنه لا ينسجم مع طريقة سلفه، و بقي في ديوبند يدرس الحديث الشريف، و يتجول في الهند، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين، و اتباع الشريعة الغراء، و اقتفاء السنن النبوية و إصلاح الأعمال، و لم يقتصر الشيخ على أنه لم يتسلم أدنى قيمة لخدمات و جهوده السياسية بل لم يطلب أي قيمة لأي ميزة له و لا أي صلاحية و لا موهبة و لا براعة فنية له. و قد يشهد من يعرف الواقع و بخابيا الأحداث أن الراتب الذي كان يتقاضاه في ديوبند ـ و الذي كان يظهره و يعلنه كدليل على أنه متبوع ـ لم يكن ليغطي نفقة مائدته الواسعة لأسبوع بل و لنصف أسبوع، و قد كان يتقشف جله لعدم المقدور بالأسفار و الجولات . الواقع أنه قضى حياته كلها في الإخلاص و الاحتساب، و إنما ألقى عليها إخفاءاً لها ستار راتب المدرسة ، و قد كان يمكن أن يتقاضى تلاميذه راتباً أضخم منه بكثير

و كان الشيخ نسيج وحده في التعامل بمعيار آخر للسمو الانساني و الخلقي و هو ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ و ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و الصبر على المكاره و المسامحة للأعداء بل إسداء الخير إليهم و الشراء الدعاء في صالحهم . فلم يشتك و لم يجد شيئاً مما لقيه في محطة جالندهر و بريلي و سيد بور من الأحداث المخزية المحزنة التي شنعت حتى الحدود البدائية للانسانية و الشرافة و التي بمجرد ذكرها يندى جبين الانسانية حياءً و تكاد تتصدع الأكباد بحسبانها. بل سمعه الناس ـ على ما أعلم ـ يدعو بهؤلاء الكفوريين في سحره و تهجده بالضراعة و الابتهال، و كلما مست الحاجة هؤلاء الطاعنين المتهمين المستهزئين و طلبوا منه أو أقاربهم من الشيخ رسالة شفاعة، لم يبطل عليهم بمقاولته و بشاشته، و وده و محابته و شفع لهم من طيب الخاطر و البشاشة الكاملة بكلمات حانية غالية، و إن حاول أي خادم من خدامه أو رفيق من رفقائه بهذه المناسبة أن يعرفهم به و يذكره ماجرياتهم السالفة حرمه حرماً و أنبه تأنيباً شديداً. الواقع أنه كان يقتدي بالأسوة النبوية العطرة و أنْ أعفو عمّن ظلمني و أصل منْ قطعني و أعطي منْ حرمني

لم يكن الشيخ ينتمي إلى بيت غني و ثري نسبياً و عائلياً. و لكن الله وهبه همة الملوك و سماحتهم ـ ماسمعني الله لله لحظات ـ بل و سماحة الأتقياء و العارفين و ورثة الأنبياء، وسعة صدورهم و رحابة ذرعهم. فكان عمله في الحياة بطولها طبقاً لـ "اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليدِ السفلى" و قل أن أصبح معهما للفضل الأخرين ، بل ـ على العكس من ذلك ـ أنعم على عالم بيسره و أنفس إليه الكبير، فقد كان مضيفه من أوسع مضيفات الهند، و كانت مائدته من أوسع موائدها. و الواقع أن قلبه كان أوسع من مائدته، و يقدر أن كان يجلس حول مائدته حوالي خمسين رجلاً كل يوم ـ من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء

، سياسيين و متصوفين و متطوعين يذهبون إلى السجون ثم منها يخرجون.
و كانت حلاوة الشيخ و بشاشته و نشاطه و تحمسه و تلطفه و ابتسامه ينم كل ذلك عن مدى سروره و أنسه . و انبساطه و ابتهاجه. و لذته و حلاوته الروحية

لقد كان تسبيح إكرام الضيوف و النزلاء و تأمين راحاتهم و إطعام الطعام غذاءه الروحي و طبيعته الثانية. ثم إن التواضع و الانكسار و التكريم و الاحترام و الطلاوة و البشاشة التي كان يلقي بها ضيوفه يذكرنا بشعر الشاعر العربي القديم:

و إني لعبد الضيف ما دام نازلا   و ما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

و لم يكتف بذلك بل حاول في كل مناسبة و فرصة أن تكون يده عالية و تسنح له فرصة النفع و الافادة بدل الانتفاع و الاستفادة. فإن أحسن إليه أحد شيئا أو خدمه في أي أمر حاول بالحص وسعه أن يحسن إليه خيراما و يوفي حقه ، فكل ما قرأت عن سماحة أهل المجد و شهامتهم و جراءتهم و بسالتهم وجدت عكسه و ملامحه بارزة متجلية في حياة الشيخ و سيرة بعض أقرانه و معاصريه الكبار .

إن سوء الظن بنفسه و استصغار معاليه و إملائها مع التحلي بمحاسن الخلق و مكارمه و شهامته لدليل على سمو المروءة و كمالها و برهان على أن الانسان قد ارتفع عن سيطرة النفس الأمارة و تنزه عن الاغترار بالنفس و الاعجاب بالنفس، قد تجلت هذه الخصلة في حياة الشيخ و ازدان بها عمله دون قوله.

كان الشيخ يكتب اسمه مقرونا بـ "سبة الأسلاف" و كم استهزأ بذلك بعض الصحفيين الفساق. لكن الذين يعرفونه عن كثب و يعثرون على أحواله الواقعية ليحكمون أن هذه التحوط و الأوصاف يمكن أن تكون عاداته و تقاليد للآخرين لكن كان ذلك إيمان الشيخ و اعتقاده في نفسه و لم يكن يشوبه شئ من التكلف و الاصطناع، فكان يعتبر نفسه "سبة الأسلاف" و يؤمن بذلك عن قرارة النفس و بشاشة القلب، بينما جعله الله خير خلف لأسلافه و مصداقا لـ "نعم الخلف لنعم السلف".

و إضافة إلى هذا اللقب المتواضع - سبة الأسلاف - كان الشيخ كثيرا ما ينشد بحزن كثير من التلهف و التأوه و الزفرة المتصاعدة أشعارا تنم عن مدى ندامته و خجالته من نفسه و إنكار الذات و عدم اعتبار نفسه شيئا. أذكر أنني ذات مرة - و كنت آنذاك في سن صغير - أسكب الماء على يد الشيخ أو كان يتوضأ فكان ينشد البيت التالي بحسرة زائدة و لهفة كبيرة و زفرة متصاعدة:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   بقي الذين حياتهم لا تنفع

كما كان ينشد البيت الفارسي التالي

نه گلم نه برگ سبزم نه درخت سایه دارم
درین حیرتم که دهقان بچه کار کشت ما را

يقول الشاعر: لست بزهرة و لا ورقة خضراء و لا شجرة مظللة، فالتحير على أن الفلاح لأي غرض زرعني و أنبتني؟

و يمكن أن أقدم كثيرا من مقتبسات رسائل الشيخ، تدل على أنه كان لا يعتبر نفسه شيئا و أن الله بلغ به إلى القمة في التواضع و إنكار الذات و كسر النفس، لكنني اقتصد فيما كتبت ما يتصل بمعرفتي الشخصية و ما شاهدته عيناي عن كثب لا من كتب، و شتان ما بينهما.

لقد كثر المتأسفون على ما وقع بوفاته الفراغ في نادي العلم و السياسة، لكن قل من يتألم و يشعر بالفراغ الذي وقع في مقدمة الأخلاق و الانسانية و قطبها الرئيسي، و لعل السبب في ذلك أنهم لايعتبرون المروءة عزة يزنون بها شيئا أو عالما فيشعروا بأي فراغ بوفاة "شيخ رباني" لكنني أعتقد - على العكس من ذلك - أن فاجعة وفاة الشيخ المدني في هذا العهد الذي يعاني من جفاف ينابيع الانسانية و يشكو من قحط الرجال ليس إلاّ خسارة خلقية فادحة و رزيئة إنسانية لاتعوض

و ما كان قيس هلكه هلك واحد
و لكنه بنيان قــــــوم تهدما

تعريب: آفتاب عالم الندوي

الهوامش:

١ - أكبر كتاب يعرف في جنسه الذخيرة الهندية في تراجم الرجال الذين نشؤوا في الهند من القرن الاسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، و المساحة المكانية من ممر خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، و من تلال كشمير إلى "ملابار" و "كالي كوت" في الجنوب، و الأجيال من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية و اتجاهاتهم العلمية و تخصصاتهم الفنية، جاء في ثمانية مجلدات كبار، يحتوي على أكثر من أربعة آلاف و خمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد-الهند

الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي
و أسرتـــــــه

بقلم: المفتي نعيم أحمد الفريدي
شيخ الحديث بالمدرسة الإسلامية امروهه، الهند

إن الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي - رحمه الله - من علماء الهند الذين تعتز بهم الهند بحق، و إن بركات هذه الشخصية العظيمة لم تقتصر على الهند و السند بل نفذت إلى الدول الأخرى و العالم الإسلامي بأسره أيضا. فقد كان محدثا نابغا و فقيها منقطع النظير في جانب، و خبيرا برموز علم التصوف و صوفيا محققا و مفكرا و متكلما ذا مكانة عالية في جانب آخر و كانت دائرة تلاميذه واسعة جدا، منهم مولانا نور الدين البدهانوي، و الخواجة أمين الله ولي اللهي الكشميري، و الشيخ محمد عاشق الفولتي، و العلامة السيد مرتضى البلغرامي ثم الزبيدي مؤلف "تاج العروس في شرح القاموس"، و الحاج نواب رفيع الدين الفاروقي المراد آبادي صاحب مؤلفات جمة.

كان الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رجلا عبقريا. و يتصل نسبه من أبيه بأمير المؤمنين عمر الفاروق - رضي الله عنه -، كما ينتهي نسبه من أمه إلى خليفة الرسول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -. و قد كان في عمومته و خؤولته شخصيات مجيدة و أصحاب العلم و حملة القلم.

و قد نص كل من تصدوا لترجمة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي أنه ولد في قرية "فولت" (PHULAT) بمحافظة مظفر نغر في عام ١١١٤هـ و كان الشيخ محمد الفولتي، جدّه لأمه، صوفيا و درويشا ملحوظ المكانة. و كان بايع الشيخ عبد الرحيم، و كانت بنته فخر النساء والدة الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان نجله الشيخ عبيد الله الفولتي حماه و خاله الحقيقي. و كان يتمتع بمكانة مرموقة بين مشائخ فولت.

كان الشيخ عبد الرحيم الفاروقي والد الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا قد حوى فضلا جما، فقد تلقى العلم على نابغة العلوم العقلية ميرزا زاهد الهروي،

كما أخذ عن شقيقه أبو الرضاء و الخواجه خورد، و استفاد مـــن الحافظ السيـــد عبد الله الأكبر ابادي في السلسلة الأدهمية الهندية، و الخليفة أبي القاســـم الأكبر ابادي في السلسلة الأبي العلائية، والسيد عظمة الله الهشتي الأكبر ابادي في السلســلة البختية. و الشيخ وجيه الدين والد الشيخ عبد الرحيم أيضا كان عالما متدينا و شجاعا ثابت الجنان. إن البيئة العلمية و الروحانية لطفولة الشيخ ولي الله الدهلوي و عمومته قد أثرت تأثيرا حسنا في سيرته و سلوكه، و لم يأل والده الشيخ عبد الرحيم الفاروقي جهدا في تعليمه و تربيته، فلم يكن يلغ السنوات العشر من عمره حتى استظهر القرآن الكريم و فرغ من تحصيل العلوم العقلية و النقلية و هو ابن ستة عشر عاما. و لما استأثرت رحمة الله بأبيه حل محله و هو في سنته السابعة عشرة من عمره، و نفع غلة عطاش من عاشقي العلم و طلبته. و قام بترقية المدرسة الرحيمية، كما طور طرق التعليم في دهلي. و بعد نحو اثنتي عشرة سنة منذ وفاة أبيه غادر في عام ١١٤٣هـ إلى الحجاز للحج و تحصيل علم الحديث، و مكث بها عامين، و قرأ على الشيـــخ أبي الطاهر المدني الكردي و غيره من المحدثين الكبار. و قد سرّ أساتذته بذكاءه الموهوب سرورا بالغا. و أثنوا عليه ثناء عطرا.

و على رجوعه من الربوع المقدسة أقبل على التدريس، و لكنه الآن أخذ يعتني بالتأليف عناية أكثر. و من مؤلفاته "*إزالة الخفاء*" و *حجة الله البالغة*" مما يصعب أن يوجد لهما من مثيل.

و إلى تلك ألف عشرات من الكتب و الرسائل. و كان قد حوى براعة في كل فن، و خاصة في علم الحديث و التفسير و الفقه و التصوف كانت له حلاوة أي حلاوة. و تلوح سمات الاجتهاد التحقيقي في كتبه التي حررها حول التصوف كما كتب فـــي خلقيا "*التوحيد الوجودي*" و "*التوحيد الشهودي*" و جعل هذا الخلاف خلافا لفظيا. و حاول في جميع مؤلفاته ما وسعته الطاقة أن يبعث الفن الحسن بجميع مظانّ التصوف. و إن كتبه من أمثال "*الانتباه في سلاســل أولياء الله*" و "*القــول الجميــل*" و "*الهمعــات*" و "*الهوامـــع*" و "*التفهيمات الإلهية*" و "*خير كثير*" و "*البدور البازغة*" و "*قرة العينين*" و ما إلى ذلك، خير شاهد على موهبته الفائقة. كما نقل القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية و سماه "*فتح الرحمن*" وهو من المستوى العالي بحيث يتفرد له مثيل بين الترجمات الفارسية، و لا يستطيع أن يدرك أسرار هذه الترجمة الفارسية و غرائبهـــا إلا من مرس ســـعة تفاسيـــر القرآن الكريم و ترجماته.

و ثمة رسالة صغيرة في حجمها و جليلة في معانيها في أصول التفسير، و سماها "*الفوز الكبير*"، و قد ترجمت أيضا في اللغة العربية، و هي تدل دلالة واضحة على نبوغ الشيخ ولي الله الدهلوي في تفسير القرآن الكريم.

و عاصر الشيخ ولي الله الدهلوي عديدا من الملوك المغول، و دعاهم ببصيرته السياسية إلى إقامـــة العـــدل، و قدّم إليهم خطة القيام على المال

و العباد. و إن رسائله التي تنم عن سياسة ذلك العصر تدل على أنه كان أوتي حظا موفورا من السياسة الدينية و الكياسة الدنيوية.

و تكاثر المسترشدون منه، و لكنه امتاز من بينهم الشيخ محمد عاشق الفولتي، و كان الشيخ أبو سعيد الحسني الرائي بريلوي جد السيد أحمد الشهيد لأمه أيضا قد أخذ عنه و تدرب عليه. و كان خليفته و مجازا منه

و حصل نجله الكريم الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي منه جميع علومه الظاهرة و الباطنية. و انتشرت بعد على يديه و على يد الشيخ محمد عاشق الفولتي علوم الشيخ ولي الله الدهلوي أكثر فأكثر.

كان الشيخ محمد عاشق الفولتي ابن خال الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان أخا زوجته و تلميذه و مريده و خليفته، و كان حضر معه دروس الحديث بالحجاز و من أكبر مآثره أنه جمع مسودات كتب الشيخ ولي الله الدهلوي و قام بتبييضه و ترتيبه بجهد جهيد في حياته و بعد مماته أيضا. و كان بدوره مؤلفا، و رسالته *سبيل الرشاد* من أحسن كتبه في علوم التصوف.

و قد عني الشيخ محمد عاشق الفولتي بجمع رسائل الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا. و كان بادىء ذي بدء يقوم بجمعها إبنه الشيخ عبد الرحمن. و لكنه بعد وفاة إبنه أقبل على هذا العمل بنفسه. و أنجزه بجهد و تعب بالغين و قد التزمت ندوة المصنفين بدلهي بطبع الرسائل السياسية لهذه المجموعة مصحوبة بالترجمة الأردية لهذا العبد المتواضع، و قدم لها البروفيسور خليق أحمد النظامي و وضع عليها تعليقات. و سوف تقوم المؤسسة الهندية للدراسات الإسلامية بدلهي الجديدة بطبع أكثر من مئتي رسائله الدينية و العلمية الأخرى مع ترجمة هذا العبد المتواضع و مقدمته و تعليقاته. إن هذه الرسائل أيضا تلقي ضوءا على حياة الشيخ ولي الله الدهلوي، و نتعرف فيها ببعض ما لا نعثر عليه في مؤلفاته سوى هذه المكاتيب و الرسائل.

و ساهم الشيخ محمد عاشق الفولتي في تعليم الشيخ عبد العزيز و إخوته و تنشئتهم مساهمة كبيرة. فلما توفي الشيخ ولي الله الدهلوي عام ١١٧٦هـ كان الشيخ عبد العزيز آنذاك ابن ستة عشر عاما، و مع أنه كان قد أخذ من أبيه شيئا كثيرا و لكن تنشئة الشيخ محمد عاشق الفولتي قد جلت مؤهلاته العلمية و الروحانية.

كان الشيخ عبد العزيز أكبر أولاد الشيخ ولي الله الدهلوي من زوجته الثانية. و كانت ولدت له زوجته الأولى إبنه محمد الذي استوطن (بوذانا) (BUDHANA) من محافظة مظفر نغر و توفي بها و دفن في ركن من المسجد الجامع هناك.

و كان للشيخ عبد العزيز ثلاثة أشقاء آخرون. و هم: الشيخ رفيع الدين عبد الوهاب و الشيخ عبد القادر و الشيخ عبد الغني.

إن هؤلاء الإخوة كلهم كانوا أفذاذا في مواهبهم العلمية و توقد ذكائهم

و علو أخلاقهم و التزامهم بالشرع الحنيف. خلف الشيخ عبد العزيز أباه في مجلس العلم و قام بأداء حق خلافته خير قيام. و قد ترك عددا لا بأس به من تلاميذه و أتباعه. و الشخصيات البارزة منهم: أشقاؤه الثلاثة، و ابنا أخيه الشيخ محمد اسماعيل الشهيد و الشيخ مخصوص الله، و سبطاه الشيخ محمد اسحاق الفاروقي المحدث (المهاجر) و مولانا يعقوب الفاروقي المحدث (المهاجر)، و الشيخ غلام علي الدهلوي، و مولانا المفتي الهي بخش نشاط الكاندهلوي، و رشيد الملة مولانا رشيد الدين الدهلوي، و مولانا كرم الله المحدث الدهلوي، و مولانا سلامة الله كشفي البدايوني ثم الكانفوري، و مولانا حسين أحمد المليح أبادي و غيرهم - و من الذين تلقوا إجازة الحديث من الشيخ عبد العزيز الشيخ فضل رحمن كنج المراد أبادي.

إن مؤلفات الشيخ عبد العزيز و رسائله أيضا تدل على موهبته العلمية الفائقة، فإنه لايوجد مثيل لكتابيه "التحفة الإثنى عشرية" و "تفسير عزيزي". و كتبه الأخرى أيضا مفعمة بالعلوم و المعارف. و من الأسف أن كثيرا من مسوداته و كتاباته قد سقطت من يد الزمان

و قد عمّر الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي طويلا حتى ناهز ثمانين سنة، و كان كف بصره في أخريات أيامه، و تكالبت عليه الأمراض الأخرى حتى عاقته عن التدريس. فخلفه أخواه الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبدالقادر في مسند الدرس، و لم يدعا أن يحافظ أي فتور في النشاطات التعليمية و التدريسية و التصنيفية التي كان بدأها الشيخ ولي الله الدهلوي

و كان الشيخ عبد الغني أصغر الشقاء الذي لم يشتهر بنفسه، و لكن طار ذكره بسبب نجله الكريم الشيخ محمد اسماعيل الشهيد الدهلوي. و ترجم الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبد القادر أيضا معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية، و نعلاً هذه الترجمات بنكات و مزايا ما لا تخفى على العلماء. و قد أكثرا من استخدام الكلمات الهندية في هذه الترجمات.

و الجدير بالذكر أن الذي أخر من رأى نور الدنيا بين هؤلاء الإخوة الأربعة، كان أول من انتقل إلى الدار الآخرة، و كذلك توفى الشيخ عبد القادر أولا ثم الشيخ رفيع الدين - رحمهم الله رحمة واسعة -.

و بعد وفاة الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي خلفه سبطه الشيخ محمد إسحاق المحدث الدهلوي، و قام بمهمته خير قيام. و لكنه هاجر قبل ثورة ١٨٥٧م المصادف لـ ١٢٧٣هـ بخمسة عشر عاما في ١٢٥٨هـ

إن قائمة تلاميذه النبهاء أيضا طويلة جداً، و يدخل في عدادها المفتي عبد القيوم بن مولانا عبد الحي البدهانوي، و الشيخ عبد الغني المجاهر المدني، و المقرئ عبد الرحمن المحدث الباني بتي، و الأمير قطب الدين خان الدهلوي مؤلف "مظاهر حق"، و مولانا أحمد علي المحدث السهارنفوري، و مولانا شيخ محمد المحدث التانوي، و مولانا عالم علي النكينوي ثم

المرادآبادي، و مولانا نذير حسين المحدث الدهلوي و انتفع خلق كثير بمولانا عبد الغني الفاروقي المجددي و قد كان تلقى منه بالذات مولانا محمد قاسم النانوتوي و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي دروس الحديث في زاوية الشيخ غلام علي.

و قد تابع تدريس الحديث الشريف إلى زمن طويل مولانا أحمد علي السهارنفوري في سهارنفور، و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي في كنكوه، و مولانا محمد يعقوب النانوتوي في ديوبند، و مولانا محمد قاسم في ميرث، و مولانا عالم علي في مراد آباد، و مولانا حسن شاه المحدث ثم مولانا محمد شاه المحدث في رامفور، ثم أخذه مولانا سيد أحمد حسن المحدث الأمروهي و شيخ الهند مولانا محمود حسن المحدث الديوبندي تلميذا مولانا خليل أحمد و مولانا محمد يعقوب بروي عطشى علم الحديث من حوض الشيخ ولي الله الدهلوي و قد عمت بجهودهم بركاته في جميع مقاطعات الهند و أقطارها حتى خارج البلاد. و في الزمن الأخير كان من المنتسبين إلى أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي العلمية مولانا أشرف علي التانوي، و مولانا الحافظ عبد الرحمن الصديقي المفسر الأمروهي، و كبار المحدثين مولانا محمد أنور شاه المحدث الكشميري، و شيخ الإسلام مولانا سيد حسين أحمد المدني، و مولانا عبيد الله السندي، و المفتي محمد كفاية الله الشاهجهانفوري ثم الدهلوي، و مولانا شبير أحمد العثماني، و مولانا سيد فخر الدين أحمد المحدث الذين نفعوا المسلمين عربا و عجما بمؤلفاتهم و خدماتهم التدريسية. و ليس عدد مسترشديهم الروحانيين بأقل من الذين أفادوهم في حقل التعليم و إلى جانب دار العلوم في ديوبند، و مظاهر العلوم في سهارنفور، و دار العلوم لندوة العلماء في لكناؤ، و المدرسة الإسلامية العربية في أمروهة، و مدرسة شاهي في مرادآباد، إن جميع معاهد تدريس الحديث و المدارس الشهيرة في ميرث، و مظفر نغر، و جولاوتهي (GULAOTHI)، و خورجه، و سنبهل، و عليجر، ونجيبة، (NAGINA) وبريلي، وشاهجهانفور، و مئوناث بهانجن، و غوسي، (GHOSI) و مبارك فور، و سراي مير، و بنارس، و مقاطعات بيهار و بنغال و غجرات و حيدر آباد الدكن، و بوفال و تونك (TONK) و مدراس و دولة باكستان، كلها تتفرع في سلسلة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي. و قد قال شيخ الحديث مولانا محمد زكريا -رحمه الله- : إنه لا يوجد أي معهد ديني و مؤسسة تعليمية و مدرسة لأهل السنة و الجماعة حيث يدرس القرآن الكريم و الحديث الشريف في شبه القارة الهندية لا تمت إلى الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي.

تعريب : ولي أختر الندوي

الشريفُ الرّضي
الشّاعر الأبي و الأديب العبقري

بقلم: مروان العطية
ديرالزور - سوريا

تمهيد:

ولد الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري، و قد لقي هذا القرن من الباحثين في العصر الحديث عناية فائقة، و اهتماماً كبيراً، و حرصاً على كشف جوانبه المختلفة من سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية، لأسباب عدة أظهرها أنه كان العهد الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية ذروتها، و استوت فيه على سوقها. و الباحثون تغريهم دائماً الفترات المشرقة في حياة الأمم لأنها بخصوبتها و اتساعها تجذبهم إليها فإذا ما فرغوا من الشغف على أسرارها ثنوا عطفهم إلى ما هو أقل اتساعاً منها في سائر العصور.

و كانت حياة الرضي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و السنوات الست الأولى من بداية القرن الخامس، في بغداد، و عاصر في تلك الفترة من خلفاء بني العباس المطيع لله و الطائع لله و القادر بالله، و لم ترضه منه الصلة بالمطيع لله، و إنما كانت له أعظم العلائق بولده الطائع لله. ثم لم يتح لعلاقته بالقادر بالله النجاح، بل قام بينهما نوع من العداء.

و كان البويهيون المتسلطون على العراق خلال هذه الفترة هم: معز الدولة و عز الدولة و عضد الدولة و صمصام الدولة و شرف الدولة، و لم تكن سن الرضي تؤهله لعلاقة بالأربعة الأول، كما كانت علاقته بشرف الدولة بسيطة، لا تتعدى شكره على إطلاق والده من سجنه، أما بهاء الدولة، فقد كان أمله، فلما خالطه لم يجد في نفسه ما يدفعه إلى علاقة مماثلة بخليفته سلطان الدولة.

و كانت الخلافة الفاطمية في غرب الدولة الإسلامية قد استقرت في مصر و شمال أفريقية، و بسطت سلطانها على مناطق من الشام و الحجاز

و اليمن، و قد عاصر الرضي من خلفائها العزيز بالله و الحاكم بأمر الله، كما كان الحمدانيون في شمال الدولة الإسلامية بالموصل و حلب يدفعون عنها عادية الروم، و قد ضعف أمرهم، فاستولى العقيليون خلال هذه الفترة، على إمارة الموصل منهم، و استولى الفاطميون على حلب في السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري.

و على أطراف الشام و العراق، و في نجد و سواحل الخليج، كانت تنتشر قبائل الأعراب من خفاجة و أسد و غيرهما، تسد الطريق على قوافل الحجاج، أو ينتصرونها قوم على قوم، مما جعل لها ثقلاً في الميزان السياسي لهذه الفترة.

و قد أدى الصراع السياسي الذي عاشه العراق خلال هذه الفترة إلى اضطراب عظيم في شئون الحياة، من فتن قامت بين أهل السنّة و الشيعة، و بين الأتراك و الديلم، و من شغب يثيره العيارون و الشطار، و غلت الأقوات، و وقعت المجاعات حتى اضطر الناس إلى أكل الجيف، و بينما كانت ثروات بعض الناس مثل محمد بن عمر بن يحيى العلوي عظيمة جداً، لدرجة أن بهاء الدولة صادر بعضها، فوصل إلى مليون دينار عيناً، كان البعض الآخر لا يجد قوت يومه، و قد أدى هذا التفاوت إلى مصادرات من جانب ملوك بني بويه، و ثورات من عامة الناس.

و لكن هذا العصر بإضطرابه كان أحفل العصور بالرقي العلمي و الأدبي، و يكفي أنه أنجب هؤلاء الأعلام: المتنبي، و أبا فراس الحمداني، و الرضي، و المعري، و ابن العميد، و الصاحب ابن عباد و أبا حيان التوحيدي، و الصابي، و بديع الزمان، و أبا علي الفارسي، و السيرافي، و ابن جني، و الآمدي، و القاضي الجرجاني، و ابن فارس، و أبا هلال العسكري و الثعالبي، و ابن سينا، و الباقلاني، و القاضي عبد الجبار، و أبا حامد الإسفرايني، و أبا بكر الخوارزمي، و الشريف المرتضى، و الشيخ المفيد ابن النعمان.

و منذ مقتل المتوكل سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين للهجرة، أخذت الدولة العباسية تزداد وهناً على وهن، فتمشت في مفاصلها و أوصالها عوامل الانحلال و التفكك، و تهدم المجد الباسط الظل، و لم يكد القرن الثالث يشارف غايته، حتى انفكت فتك الدول العربية، فإذا هي وحدات سياسية متباعدة لا تجمعها إلاّ أوهى الروابط، و لا تصل بينها إلاّ أوهن الصلات، و ما انتقض هذا البناء العظيم إلاّ لأن الخلفاء العباسيين قربوا الدخلاء الأجانب، و اعتمدوا عليهم، فكان منهم الوزراء و الجند و العمال، و حنقوا على العرب أبناء أرومتهم و أصحاب البلاد الأصلاء، أن يسوسوا بلادهم و يصرّفوا شؤونهم و يذودوا عن حماها.

ذلك مصير كل دولة تعتمد على عناصر ليست من جنسها في حياتها السياسية والإدارية والحربية، ومن هذه الدويلات التي صارت إليها الدولة العباسية وأبعدها خطراً، دولة بني بويْه الفارسية التي غلبت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، على بغداد مدينة الشاعر العربي البطل الشريف الرضي.

و قد تعصب بنو بويه للفرس تعصباً شديداً، فاحيوا عاداتهم و تقاليدهم و آدابهم، و احتفلوا بأعيادهم احتفالات ضخمة، و لقبوا أنفسهم بأرفع الألقاب، ليس «شاهنشاه» ملك الملوك إلاّ واحداً منها. و استحال الخلفاء العباسيون دمى في أيديهم، تتحرك كيف يشاؤون. ليس للملوك بني بويه إلاّ الأمر و ليس على الخلفاء إلاّ الطاعة و التنفيذ و الخضوع.

في هذه الفترة من حياة الأمة العربية في العراق طغت الروح الفارسية طغياناً شديداً على كل شيء، و كان لها أثر كبير في الأدب العربي، فقد هجر الشعراء الفخر و الاعتزاز بالنفس العربية، و التغني بالبادية، و الوقوف على أطلالها، و الإشادة بتقاليد العرب من فروسية و شجاعة و نجدة و كرم و مروءة إلى أدب الترف و المجون و الانحلال و المدح المفرط في الغلو، و أطلقت الأفاعي المخيلة من جحورها تلدغ في وجه النبل الجريح و الكرامة المهدرة و الشهامة المطعونة، معتزة بالفرس مفتخرة بآثارهم و مآثرهم، متحاملة على العرب تنعى أمجادهم و تحسب منهم كل يوم مقتلاً.

حتى إن ديوان الشاعر مهيار الديلمي يوشك أن يكون جميعه – على طوله – فخراً و اعتزازاً بقوميته الفارسية، و هو الذي يقول:

قومي استولوا على الدهر فتى ... و مشوا فوق رؤوس الحقب

عمموا بالشمس هاماتهم ... و بنوا أبياتهم بالشهب

و أبي كسرى علا إيوانه ... أين في الناس أب مثل أبي؟

إن غلبة العنصر الفارسي في العراق و شيوع الروح الفارسية في الأدب العربي، كان لها رد فعل عنيف في نفوس الأدباء العرب الأقحاح فجاء أدبهم معبراً عن الروح العربي بكل ما فيه من شجاعة و فروسية و مروءة و ترفع عن الصغائر، و رفض للواقع المهين الذي يحيا فيه الشعب العربي في العراق، من أبرز هؤلاء الأدباء الشاعر العظيم الشريف الرضي. فقد هالته سيادة الروح الفارسية، و بسط ظلها على الحياة العربية في عصره، على التعلق بقوميته تعلقاً شديداً. يدلنا عليه حنينه الأسوان إلى الوطن العربي الأول في الجزيرة، و الوقوف على أطلاله و التغني ببواديه مخيمه العز و الشهامة، و الاعتزاز بالعروبة و تقاليدها و السخط الشديد على هؤلاء الملوك من الفرس الذين حجروا على خلفاء بني العباس، و تبرمه بالعيش في بغداد التي تئن تحت وطأة الدخلاء، حتى يمكن أن نعد أدب هذا الشاعر تصويراً لما كان يختلج في نفوس العرب المغلوبين على أمرهم في ميادين الحياة السياسية و الاجتماعية و العسكرية، من سخط على الدخلاء و ملكهم، و احتقار لمزيفيهم، و تطلع إلى مستقبل عزيز، و أحلام بالظفر، و آمال عريضة بالعودة إلى الأمجاد السابقة.

حياته و شعره:

هو أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى الكاظم من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب. و قد كان أبوه نقيباً للطالبيين (رئيساً دينياً لآل البيت الشريف).

ولد الشريف الرضي في بغداد (٣٥٩ هـ = ٩٧٠م) و نشأ فيها و برع في علوم الفقه و اللغة و الأدب. و قال الشعر و عمره خمس عشرة سنة. و في (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) اعتزل أبوه نقابة الطالبيين فخلفه هو فيها نائباً عنه. و في ذي القعدة (٤٠٦هـ = ١٠١٦م) منحه الأمير البويهي بهاء الدولة لقب الشريف. ثم إنه عين نقيباً أصيلاً يوم الجمعة في (١٦ المحرم ٤٠٣هـ = آب ١٠١٢م) بعدئذ ضمت إليه الأعمال التي كان يقوم بها أبوه و هي النظر في المظالم و الحج بالناس.

و كان الشريف الرضي عالي الهمة طموحاً إلى المعالي لم يقبل صلة من أحد و لا جائزة و قد ردَّ جميع الصلات التي كانت جارية على أبيه من قبله. فخافه الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) فاتهمه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عن المظالم و الحج.

و توفي الشريف الرضي في السادس من المحرم ٤٠٦هـ = (١٠١٦/٦/٢٤م) و دفن في بيته في محلة الأنباريين إحدى ضواحي الكرخ (الكاظمية اليوم).

ألقابه و مناصبه:

لقب بهاء الدولة سنة ٣٨٨ هـ بالشريف الأجلّ و في سنة ٣٩٦ هـ بذي المنقبتين، و في سنة ٣٩٨ هـ بالرضي ذي الحسبين. و في سنة ٤٠١ هـ أمر أن تكون مخاطبات و مكاتباته بعنوان « الشريف الأجل » و هو أول من خوطب بذلك من الحضرة الملوكية.

إن المناصب و الولايات كانت متكثرة على عهد الشريف من الوزارة التنفيذية و التفويضية، و الإمارة بقسميها العامة و الخاصة، و العامة بضربيها: استكفاء بعقد عن اختيار. و استيلاء بعقد عن إضطرار. و الإمارة على جهاد المشركين بقسميها: المقصورة على سياسة الجيش و تدبير الحرب، و المفوض معها إلى الأمير جميع أحكامها قسم الغنائم و عقد الصلح، و الإمارة على قتال أهل الردة، و قتال أهل البغي، و قتال المحاربين. و ولاية القضاء، و ولاية المظالم، و ولاية النقابة بقسميها: العامة و الخاصة و ولاية إمامة الصلوات، و إمارة الحج، و ولاية الدواوين بأقسامها، و ولاية الحسبة، و غيرها من الولايات. فمنها ما كان يختص بالكتّاب و الأدباء، و آخر بالثقات و رجال العدل و النصفة، و ثالث بالأماجد و الأشراف و المترفين، و رابع بأبسالة الفرسان و أصحاب البسالة و الفروسية، و خامس بذوي الآراء و الفكرة القوية و الدهاء

و سادس بأعاظم الطالبيين و أعيان العترة النبوية، و صايع بالفقهاء و أئمة العلم و الدين. و هذا ما يفسر بجامع تلك الفضائل، و مجتمع فاتيكم المآثر كالشريف ذلك المثل الأعلى في الفضائل كلها فعلى الباحث عن مؤلفاته و مقاماته و نفسياته الكريمة أن يقرأ و لو بصورة مصغرة دروس المناصب التي كان يتولاها الشريف فستمثل بيمه صورة مكبرة تجاه عينيه ممثله من العلم و الفقه و الحكمة و الثقة و السداد و الأنفة و الفتوة و الهيبة و العظمة و الجلال و الروعة و الوفاء و عزة النفس و الرأي و العزم و الحزم و البسالة و العفة و الزهد و الكرم و الإباء و الغنى عن أي أحد قد حليت بالأدب و الشعر و لا يراها إلاّ مثال الشريف الرضي.

تولى الشريف نقابة الطالبيين، و إمارة الحاج و النظر في المظالم سنة ٣٨٠ هـ و هو ابن ٢١ عاماً على عهد الطائع، و صدرت الأوامر بذلك من بهاء الدولة و هو بالبصرة سنة ٣٩٧هـ ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٣هـ بولاية أمور الطالبيين في جميع البلاد فدعي « نقيب النقباء » و يقال إن تلك المرتبة لم يبلغها أحد من أهل البيت إلاّ الإمام علي بن موسى الرضا سلام الله عليه الذي كانت له ولاية عهد المأمون، و استعد الشريف الخلافة على الحرمين على عهد القادر كما في المجلد الأول من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و كان هو و الولايات كما قيل:

لم تُكسبْهُ الولايـــات مجـداً   لا و لا قيل رفعت مقداره

بل كساها و قد تعزمها الدهـ   ـر جلالاً و بهجة و نضارة

شعـــــره:

و أغراض الرضي الشعرية حافلة، و قد تعاظم قدر المدح في شعره حتى ليربو على ثلث ديوانه، ثم يليه الرثاء و الفخر و الشكوى و النسيب ثم بقية الأغراض.

و أول هذه الأغراض المدح و التهنئة. و مدائحه لأسرته يجمع لهم فيها بين شرف النسب و علو الهمة، و كرائم الأخلاق من مثل قوله في أبيه:

و أين مثل الحسين إن حسدت   صنائع البيض و القنا القصد

أبلج إن ساعـــد المطي بــه   فدى القناني بعيطه الرغد

و قوله فيه:

تتزاحم الأضيـــاف في أبياتـه   فرقاً تحن إلى القرى و تتوق

و إذا رآهـــم لم يقـــل متمثلاً   لبني الزمان لكل وحد، ضيق

و في مدائحه للخلفاء العباسيين، يعدد لهم صفات المجد و علو النسب و إحكام الخلافة، من مثل قوله في الطائع لله:

ملك إذا حصر السماط به   كثر العثار و طبق الزلل

و إذا السرير سما بقعدته   غربت بظاهر كفه القبل

جلت الأئمة عن مناقبه   و استودعته نورها الرسل

و في مدائحه للبويهيين، يصفهم بالقوة و استلاب الملك قهراً، و البشر و الكرم. يقول في بهاء الدولة:

إذا ابتدر الرهان مبادروه   تخطر دونهم يوم الجراء

و إن طلب الندى خرجت يداه   خروج الورق من خلل اللحاء

حذار إذا تقلع ثوب نقع   حذار إذا تصمم باللواء

حذار من ابن غيطلة مدل   يسد مطالع البيد الخلاء

و في مدائحه للوزراء و الكتاب و أصحاب الجاه و المتغلبين على البلاد و الأصدقاء و العلماء، يبين خصائص مدحه لكل طائفة. و له قدرة على تمييز ما يمدح به كل فريق.

و قصائده في الرثاء و التعزية، تظهر تفجعه على من فقدهم من أسرته، أو من الخلفاء و الملوك و الوزراء و الكتاب و الأعوان و الأصدقاء و العلماء، انظر إلى لوعته في رثاء أمه:

فارقت فيك تماسكي و تجملي   و نسيت فيك تعززي و إبائي

و صنعت ما ثلم الوقار صنيعه   مما عراني من جوى البرحاء

كم زفرة ضعفت فصارت أنة   تممتها بتنفس الصعداء

لهفان أنزو في حبائل كربة   ملكت علي جلادتي و غنائي

و تفرده في هذا اللون من الفن، و امتزاجه بفلسفة الموت، و بكاؤه المتاح، كل ذلك استحق به أن يسمى النائحة الثكلى.

و كان الفخر الميدان الذي يجلي فيه الرضي و يكشف عن آماله، و يبين عن منازعه العالية. و يظهر قدرته على الشعور حين يرى نفسه بطلاً يقود الفرسان. و قد كشف شعره في هذا الاتجاه عن أخلاق الفرسان كما يراها، و عن صفات الجواد الأصيل الذي لا يمتطي ظهره إلا صناديد الرجال و الصيهبة التي يعتلونها بقوله:

نهضتهم مثل عوالي الرماح   إلى الوغى قبل نموم الصباح

توضيح ذلك. كما كانت الشكوى متنفسا له، يبث فيها متاعبه في دنيا الأقارب و الأصدقاء و محاربة الدهر له و انتكاس أمانيه. و شعره في الفخر و الشكوى ذاتي خالص يفيض من نفس قلقة و ثابة جبلة. كما أن شعره الوجداني في النسيب و طيف الحبيب غايـة في الرقـة و الإفصاح عن الأخـلاق العاليـة، و النفس التي صقلها الوجد و هذبها العشق. و أصبحت حجازياته بما تحمل من معالم فنية طريقا ممهداً للشعراء بعده و هام الناس بها لعذوبة وقعها و رقة حواشيها و قد عارض الشعراء كثيراً قصيدته الكافية

يا ظبية البان ترعى في خمائلـه　　　ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

و قصيدته الميمية.

يا ليلة السفح ألا عدت ثانيـــة　　　سقى زمانك هطال مــن الديم

كما أن بكاءه الشباب و نفوره من المشيب، فتح لـه بابا مـــن القـــول الطريف و نفّس عن ما تحمله نفسه المكروبة من هم – من طريقه – في شعره.

و كانت صداقات الرضي ميدانا رحبا لشعره، فبان فيه عن معرفة بطبائع الرجال و حرص على الصورة المثلى للمجتمع و هو يمثل واحة له في هجير صحراء الحياة كما يمثل نوعاً من الحكمة في معالجة عوج الأصدقاء يدل عليها قصيدته:

و كم صاحب كالرمح زاغت كعوبه　　　أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

وميســم الهجاء عند الرضي حاد لاذع، لكنه غير فاحش و هو يهجم على بهجوه المثالب التي تبعده عن طريق العلا و لا يصفه بما يصف الهجاؤون به الناس عند هتك لأعراضهــم، و تعريض بمعايبهم الجسميـة. مما يؤذي النفـس و يجرح الحس، و لذلك فان أهاجيه تبلغ ما تريد، و لا يتحرج المرء من روايتها أو التمثل بها و انك لتحس في قصيدته:

أبيعـــك بيـــع الأديم النغــــل　　　و أطوي و رادك طـــي السجـــل

ثورة الغضب و لذعة الهجاء و ألم المثالب :

و الشريف الرضي شاعر وصاف، و لكن وصفه لا يأتي غالبا إلا استطرادا و هو حين يصف يخلط الوصف بنفسه و يمزجه بخطرات قلبه و لذلك لا ترى في وصفه عناية بإبراز الصفات و قد وصف الطبيعة و ما يعيش فيها كما وصف الحرب و الصراع السياسي.

و قد اقتضت ظروفه التي عاشها أن يتقلب في أحضان السياسـة و أن يشهد مؤامراتها و دسائسها و أن يكتوي بنارها و شعره في هذا الجانب يعطي ملامح عصره و يشترك مع النصوص التاريخية في الكشف عنه و ينبيء عن

القيم السياسية التي كان الناس يتعاملون على أساسها في تلك الفترة من شراء المناصب إلى المكائد و الدسائس التي تفتك بالناس إلى الغدر بمن كان محل الثقة إلخ.

و الرضي رقيق في عتابه، يدعو إلى البقيا و لم الشمل . و لكنه عنيف في تهديده لا يخشى و لا يذر و لا يرعى مقام خليفة أو ملك يهدده بالقطيعة و الرحلة ، و الحرب و القراع كما يهدد بإصلات شعره و له نظرات خاصة في الحياة كونتها لديه تجاربه و هو لا يبخل بتقديم نصائحه للساسة أو لعامة الناس، حتى تستقيم الحياة على وجهها . و له في هذا الجانب أبيات تسير مسير الأمثال و لكن أمثاله لم تشتهر شهرة غيره من الشعراء كالمتنبي مثلاً و يتصل بهذا قصائد و مقطوعات للرضي، يتزهد فيها و يحذر الناس بالآخرة و ينفر من الركون إلى الدنيا بعد ما أبدت من غير و يشكر الله على نعمه و هو في هذا كله لا يعبر عن فلسفة خاصة لها منهاجها و إنما هي شذرات متفرقة تقرب إلى الحكمة و الموعظة.

و الرضي ممن لا يقبل على ما يعتذر منه و رغم ذلك فله مقطوعات و قصائد رقيقة في هذا الجانب و له قصيدتان في استحقاق بهاء الدولة، يحيان الصورة التي يرسمها مغايرة شعره في إبنه و أنفته . و لعل ظرفاً سياسياً هو الذي دفعه إلى هذا الموقف . كما أن له بعض الشعر في الاكتئاب و انهيار الوعد وله قصائد و مقطوعات و أبيات مفردة لا نستطيع أن نخضعها لغرض بعينه.

و الرضي أشعر الطالبيين حسب ما وصل إلينا من شعرهم و أشعر قريش إذا نظرنا إلى إكثاره في فنون الشعر المختلفة و إجادته لها أما في الجانب الذي اختص به عمر بن أبي ربيعة و هو وصف النساء و أحوالهن و أحواله معهن فلا تصح المقارنة بينهما

نثر الشريف الرضي :

القدر الذي بين أيدينا الآن من رسائل الرضي المطولة و القصيرة لا يمكننا من الحكم على نثره و تطوره و مكانته في عصره حكماً مفصلاً و لكنه يتيح لنا رؤية لبعض ملامح نثر الرضي إلى أن يجود علينا الزمان بما ضاع منه.

و الرسائل الطوال التي بين أيدينا تنتظم أغراضاً متعددة من تهنئة و معاتبة و تعزية و عهود و نقد شعر.

و رسائل التهنئة كتبها الرضي إلى ثلاثة من الوزراء الذين عاصرهم و كانت الأولى إلى سليمان ابن أحمد الأبرقوهي يهنئه بالنجاة من حادث ، ربما كان سياسياً و قد ذكر الرضي في أولها ما بينهما من علائق الإخاء و تراشح

الصفاء ، و قلقه عليه من هذا الحادث و توالي سؤاله عنه في محنته و الدعاء له حتى عاد إلى وطنه مكتوفـــا بالسلامـــة ثم يصف ســـروره الخالص بعودتـــه و سلامته.

أما الرسالة الثانية فكانت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكار يهنئه بما صار إليه من العودة إلى العليا و نجاته مما ألم به . و لعله يعني العزل عن الوزارة ثم العودة إليها و قـــد بدأ رسالتـــه ببيان برمـــه بالليـــل و النهار و سخطه بواقع الأقدار لعجزه عن الوصول إليه لوحشه و علته و كان أمله أن يبادر إليه ليقوم بالواجب نحو تهنئته بنجاته مما أصابه. و يذكره بما يفعله الزمان بعظام الرجال في تقلب أحوالهم في الضر و الشر و أن العواقب دائما لمن يصبر . و يبشره بالأجر على ما أصابه و زيادة النعمـــة و استقرارهـــا و يحمد الله على أن جعل محنته محنة أدب لا محنـــة غضب و نكبة استصـــلاح لا نكبة اجتياح و يصفه بالعلم و الأدب.

و الثالثة كانت إلى الوزير سابور بن أردشير يهنئه بعودة الوزارة إليه في المرة الرابعة و يذكر في قولها أن هذه نعمة شملت الناس عموماً و شملته خصوصاً و أن خلو الوزارة منه كان غمة على الخاصة و العامة و يدعو الله أن يديم عليه هذه المنة و لاينتقله منها إلاَّ إلى ما هو أجل منها و يضاعف كفايته و ما وصل إليه من تعيين الوزارة أربع مرات. مما لم يحصل عليه أحد في ذلك الزمان ثم يذكر ما جمع الله فيه من الخلال الحميدة و يدعو الله أن يتم له ما خوله و يعينه على ما قلده

و نلاحظ أن هناك معاني تتردد في رسائل التهنئة هذه مثل بيان ما بين الرضي و بين هؤلاء الوزراء من علائق و ما يشعر به نحوهم من الولاء و الإخاء و إنها تهنئة بنعمة جاءت بعد نقمة، أو بتوليه بعد عزل. كما يلاحظ كثرة الدعاء فيها بدوام النعمة و استقرارها.

أما رسالته إلى الصابي في الردّ على تهنئته له بعيد الفطـــر في سنـــة ٣٨٤ هـ فقد ذكر الرضي فيها أنه سعد بهذه التهنئة من بين التهاني كلها لما يعلمه من أنها تهنئة صادرة من قلب غير متقلب و يدعو الله له بطول البقـــاء و يواسيه عن علته بأنه أرسى لنفسه على تطاول الزمن صوما و يقبل عذره في غيبة الرسالة عن حضوره لتهنئته ، و يطلب منه الصبر لأن الزمن لا يطالب بالملاطفة و يصف مكانه المكين من قلبه و يشكره على ما أرسله إليه من الشعر و يذكر ردّه عليه.

و قد وجّه الرضي رسالته في العتاب إلى أحد أصدقائه و يذكر شوقه إليه و يعتب تأخر مكاتباته و يذكره بما بينهما من عهود و بما مضى لهما في ربيع الأيام و شباب الدنيا و يبين عذره في شدة لومه لتبدل حاله فقد كان خصيصا به و كان أقاربه يعلمون خبره من طريق الرضي ثم انقلب ذلك إلى ضده، و يذكره بالعودة قبل أن يحول بينهما الزمان . كما فعل في سلبه صديقه

الصميم أبا إسحاق الصابي ثم يصف صداقته له و لوامعه في فراقه و مكانته الأدبية و السياسية و مادار بينهما . و ما رثاه به . و يدعو الله أن يحفظ مهجة صديقه و أن يثني عطفه نحوه.

و الرسالة الإخوانية رائعة تكاد تذوب رقة و وجدا:

و رسالة الرضي إلى الصابي في تعزيته عن ولده سنان في ربيع الآخر سنة ۳۸۰ هـ رسالة فريدة وضع فيها الرضي خلاصة حبه لصديقه، و حدبه و اشفاقه عليه و ذكر فيها أنه عاد من تعزيته و قد أضيف إلى حزنه على الشباب قلقه على ما صار إليه صديقه من الحزن و الحرق ثم يذكره بما لا ينساه من الصبر و ما يعرفه من تقلب الأيام و الاعتبار بمن مضى من القرابة و الخلان و أن المرء صائر إلى مصيره فلم كل هذا الحزن . وفي الأيام خلف من الغائب و يسأل الله أن يزيد سروره ممن بقي من أولاده و أن يبارك فيهم و قد عدل الرضي في هذه الرسالة إلى السجاع في أكثر من موضع . رغبة في أن يصل بصديقه المكلوم إلى اقتناع يسري عنه و يصرف عنه الحزن.

و قد كتب الرضي إلى الصابي رسالتين أخريين في سنتي ۳۸۰ هـ ۳۸۱ هـ يبين له فيهما ما يريد توكيده في العهدين الصادرين من دار الخلافة و كان الأول بمناسبة تقليده نقابة الطالبيين و النظر في أمور المساجد بمدينة السلام و النيابة عن والده في المظالم و الحج و كان الثاني في تقليده بعمل جديد لم يتم أمره.

و لم يكتب الرضي إلى الصابي لقصور يعرفه فيه و انما اراد أن يوضح له أمرين:

الأول . الحفاظ على مكانة أبيه و تعظيمها فقد كانت القضية شديدة الحساسية . ذلك أن الطائع لله ولى أبا أحمد النقابة و الحج و المظالم في أوائل سنة ۳۸۰ هـ ثم ولى ولده في رمضان من السنة نفسها و الأمر يقتضي من كاتب المرسوم كياسة لابد أن ينبه الرضي صديقه الصابي الكيس إليها زيادة في الحيطة و تبرئة للنفس.

و الثاني : رغبة الرضي في اسباغ مظاهر التكريم عليه في هذين المرسومين و قد أشار على الصابي بالاطالة في مواطن خاصة يرى فيها اظهار الكرامة و الرفعة.

و الرسائل التي بين يدي تشيع فيها ظاهرة الموازنة بين السجع و الازدواج و قلما يكتب لأحدهما الغلبة على الآخر و يدرك القارئ أن الرضي لم يكن يعمد إلى احدهما و انما كانت المعاني تسوقه فيضعها في القالب الذي يناسبها فبينما يلجأ الرضي إلى السجع في قوله و بينما هذه الدنيا ترضعنا درتها و تسرح لنا عن زبدتها و تلحفنا فضل جناحها و تعرنا بركود ريحها إذ به يعود إلى المراوحة بين السجع و المزاوجة فيقول : و تحذرنا مما

نستمرئه برهة و نستمرئه مدة و نستحليه أوانا و نستطيبه أزمنة حتى تعطف علينا عطف الضروس و تضرسنا ضرس الشموس و تريق ما حلبت من النعيم بضروب ما جلبت من الهموم

و قد يعمد الرضي إلى تضمين رسائله بعض شعره كما فعل في ختام رسالته لصابور فقد ضمنه الأبيات ٢٩، ٣١، ٣٢ من القصيدة (١٢٠) أو تضمينه شعر غيره كما فعل في رسالته إلى ابن مكار حيث ضمن قول القائل

و للدهر في صم الصلاب نصيب

وضمن قول الآخر.

كل حبس يهون عند الليالي   بعد حبس الأرواح في الأجساد

و تكثر الجمل الدعائية في رسائل الرضي مثل دعائه بطول البقاء و العز و التمكن الخ، و قد يتداخل الدعاء في الكلام بما يفصل بين اجزائه مثل قوله لصابور «فإن رأى سيدنا الوزير . أدام الله علوه . أن يأمر . أعلى الله أمره . بإجابتي . .

كما يفصل أحيانا بين جزئي الجملة لحشد كل ما يتعلق بالمعنى و لم شتاته كما في قوله «و بعد فهذا من مناسبة الخلائق و مشاكلة الطبائع ثم من اللزمة التي ألفت بين شخصينا و ضربت برواقها علينا و ما كنا نتهاداه من الطائف الفضائل و نتشاراه من أعلاق المناقب . ما يحذوني في أن أفرط جزعي عليه .

و كما تقدم في آخر رسالته لصابور الذي تقدم نقله

و الفصول القصار التي ساقها الشيرزي في آخر جمهرة الاسلام و ساقها ابن معصوم في "الدرجات الرفيعة" و نشرتها "مجلة العرفان" قبل طبع "الدرجات الرفيعة" لا تخرج في جملتها عن رسائله المطولة فهي في غلبتي فقرات من رسائله الطوال و ليست رسائل مستقلة ذلك لأن كل رسالة منها لا تستقل بغرض و انما هي نبذة من انشاء الرضي كما نص على ذلك ابن معصوم و قد فتشتها فلم أجد فيها خروجا عما سبق بيانه من المعاني في الرسائل الطوال كما انها تتضمن الخصائص الفنية التي سبقت الاشارة إليها.

شاعـــريتــه :

نظم الشريف الرضي الشعر في عهد الطفولة و لم يزد عمره عشر سنين فأجاد و نظم في جميع فنون الشعر فأكثر . و جاء مجلياً محرزاً قصب السبق ، بغير منازع . و لم يكن في ناحية من نواحي الشعر أشعر منه في غيرها مما دل على غزارة مادته، و إنه كان ينظم قصائده بمنحة نفسانية قلما تؤثر بها

العوامل الخارجية و امتاز الرّضي بأن شعره على كثرته لابس كله ثوب الجودة و الملاحة و هذا قلما يتفق لشاعر مكثر ، بل لم يتفق لغيره ، فإننا نرى تلميذه و خريجه مهيار الديلمي قد أكثر من نظم الشعر و لكن قصائده لم تكن متناسقة متجانسة في الجودة بخلاف قصائد الرّضي. و إذا نظرنا إلى شعر المتنبي المتقدم عليه في العصر نجده مع ما للمتنبي من المكانة السامية في الشعر يشتمل على سقطات لا تقع من ثاني الشعراء فلاغرو إذا فضل مفضل شعر الرضي على شعر المتنبي.

و إذا تأملنا في شعر الشريف الرضي وجدناه متطبعاً بطابع لايوجد في غيره و يعسر علينا وصفه و التعبير عنه. فإن حسن الشعر بمنزلة الجمال في الإنسان. فمن نظر إلى الوجه الجميل من أهل الأذواق علم أنه جميل ، و لكن يعسر عليه أن يبين أسباب جماله ، و تفاصيلها ، و كذلك إذا استمع ذوالطبع المستقيم إلى القصيدة الجيدة عرف أنها من الشعر الجيد و صعب عليه أن يفصل الأسباب في جودتها و لعله إلى ذلك ينظر إلى كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل عن أشعر الشعراء فقال : إن القوم لم يجروا في حلبة واحدة فيعرف السابق منهم، فإن كان ولابد فالملك الضليل. فشعر الرّضي مطبوع بطابع من البلاغة و الجلالة و البراعة و عذوبة اللفظ و الأخذ بمجامع القلوب و غير تلك من المميزات لاتكاد تجد في غيره و لانكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الشريف الرضي بين الشعراء أمة برأسه. و مما امتاز به شعر الشريف أنه نقي من كل مايتعاطاه الشعراء من الغزل المشين و الهجاء المقذع و التلون بالمدح تارة و الذم أخرى . و لايليق بنا أن نمدح الشريف الرضي بأن شعره خال من المجون الذي كان شائعاً في ذلك العصر فهو أجل قدراً و أرفع شأناً من أن نمدحه بذلك. كما أن شعره خال من وصف الخمرة ، و إن وصفها كثير من الشعراء الذين لايتعاطونها، و لكن الشريف لم يصفها إلاّ بسؤال من سأله ذلك على لسان بعض الناس. فوصفها بعدة أبيات لم يصفها بغيرها.

و شعر الشريف الرضي مرآة تنعكس عليها الملامح السابقة فتكشف لنا بوضوح كل ما فيها من جوانب و تفصيلات و هو الذي يعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحية ، و سمات عصره و بيئته و ثقافته من ناحية أخرى بحيث يصلح الكثير من شعره أن يكون من الوسائل القيمة التي تعين على فهم كثير من أحداث هذا العصر و أخباره .

و أول ما يطالعنا في هذا الشعر، في قوة و وضوح ، هو ارستقراطية الشريف الرضي العربية التي تحدثنا عن أسبابها و مقوماتها، و هي تطالعنا في الفنون و الأغراض التي طرقها.

صفاته الخَلْقية و الخُلُقية :

ليس بين يدي وصف خَلْقي للرضي - اللهم إلاّ ما قاله الدكتور زكي مبارك " من أنه كان جميل الوجه جداً ، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول - أنه لم يستبح النظر إلى وجهه إلاّ بعد أن اخضرّ شاربه، و نبتت عارضاه ، و لعمري ممن نقل الدكتور زكي هذا القول فإنه لم يعين مرجعه في هذا، و قد نقل أديب التقي كلام الدكتور زكي ، و زاد على ما أورده أن الشيخ صاحب المقالة هو شيخه المفيد، و لم يكن له مصدر في هذا إلاّ كلام الدكتور زكي مبارك

و قد شكا الرضي و هو في الثالثة و العشرين غزوَ الشيب لرأسه بالقصيدة:

عجلت يا شيب على مفرقي و أيَّ عذرٍ لك أن تعجلا

و استنتج أديب التقي من قصة شَدّ لعبته أمام القادر بالله أنه كان مسدل اللحية حتى ليصل طرفها إلى أنفه

و زعم الدكتور زكي مبارك أن الرضي كان يشكو مرضاً يكتمه عن الأطباء ، و عزا إليه قصر عمره. و سرد كثيراً من شعره في ذكر الموت - الذي يتسم بنظرة متشائمة و يدل على إدراكه - في زعمه - قصر عمره . و يدرك المتصفح لهذا الشعر أن ذلك دعوى لايقوم لها دليل . و إنما هي خواطر الشعراء مثل الرضي في مربها حين رثى الناس.

أما صفات الرضي الخُلُقية، فإننا لوتركنا شعره و ما يحمله من إباء و عزة ، و ما يدل عليه من وفاء و اخلاص و ما ينضح به من احساس مرهف. و فزعنا إلى ما سار من صفاته في كتب المترجمين له، فسنرى أن ابن الجوزي وصفه بأنه « كان عفيفاً ، عالي الهمة متديناً بالدين و قوانينه، و لم يقبل من أحد صلة و لا جائزة حتى أنه ردّ صلات أبيه. و ناهيك بذلك شرف نفس ، و شدة ظلف ، فأما بنو بويه فإنهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل . و كان يرضى بالاكرام و صيانة الجانب، و اعزاز الاتباع و الاصحاب » كما ذكره ابن عنبة فقال « ذوالفضائل الشائعة و المكارم الذائعة . كانت له هيبة و جلالة و فيه ورع و عفة و تقشف . مراعاة للأهل و العشيرة ».

و نرى من خلال هذه القول ، أن الرضي يوصف بالعفة و الورع و التقشف و التدين كما يوصف بشرف النفس و علو الهمة . و أنه لم يقبل من أحد صلة . و يوصف أيضا بالجود و الحدب على قومه و مراعاتهم . و يروى في عفة الشريف و ورعه و تدينه ، أنه اشترى في بعض الأيام جزازاً من امرأة بخمسة دراهم ، فوجد فيه جزءاً بخط أبي علي بن مقلة ، فقال للدلاّل: أحضر المرأة ، فأحضرها ، فقال قد وجدت في الجزاز جزءاً بخط ابن مقلة ، فإن

أردت الجزء فخذيه و إن اخترت ثمنه بهذه خمسة دراهم فأخذتها ودفعت له و انصرفت.

وهذا مايدل على التصون، و مراقبة الله عزوجل، و نقل الفوراناري عن صاحب حدائق المقربين، أنه، كان رضي الله عنه في غاية الزهد و الورع، صاحب حالات و مقالات و كشف و كرامات.

و يحكى أنه اقتدى يوماً بأخيه المرتضى في بعض صلاته فلما فرغ قال: لا أقتدي بك بعد هذا اليوم أبداً. قال - كيف ذلك؟ قال لأني وجدتك خائضاً في صلاتك خائضاً في دماء النساء. فصدقه المرتضى و أنصف و التفت إلى أنه أرسل نفسه في تلك الصلاة إلى التفكر في مسألة من مسائل الحيض. أقول و في بعض المواضع أنه انصرف من صلاته المذكورة. بمعنى أنه انكشف له الحال المزبورة و أخذ في الويل و العويل و أظهر الفزع الطويل في تمام السبيل إلى أن يبلغ المنزل في هذه الحالة فلما فرغ المرتضى أتى المنزل من فوره، و شكا ماصنع به إلى أمه، فعاتبته على ذلك فاعتذر عندها بما ذكر. و أنه كان يتفكر في مسألة من الحيض سألته عنها بعض النسوة في أثناء مجيئه إلى الصلاة و هذا خيال سيتجه، لأنه حول من ظن أنه لا قدر للرجال إلا إذا سيقت في سيرتهم الكرامات، و لو كانت على هذا النحو المقزز من ذكر الدماء و الصراخ و العويل

إن المتتبع لحياة الرضي لايستطيع أن يجد مغمزاً في دينه. فلم يؤثر عنه أنه استهلك حرمة من الحرم، أو أخذ فيما كان يأخذ فيه الناس في ذلك العهد من متاع الدنيا حيث يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه، و لست أميل إلى صحة القصة التي يرويها الحصري من أن كوران المغني شرب مع الشريف الرضي، فافتقد رداءه، و زعم أنه سرق، فقال الشريف ويحك، من نتهم منا؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه. فقال انشروا هذا البساط أخذ ردائي و اطووه إلى يوم القيامة

ذلك أن الخبر سيق على سبيل الدعابة، و هو يحمل في طياته عوامل تكذيبه. فالرضي لايشغل بنقاش مع كوران المغني من أجل ثوب مسروق. و لايعقل أن يظن كوران بالشريف - مع جلالة قدره و عظم محله - أنه أو أحد جلسائه سرق الثوب. إن هذا لو قيل في مجالس الفتاك و الصعاليك لكان له محل من التصديق، أما في مجلس الرضي فلا يرد مثل هذا. و لم يمر في شعر الرضي وصف الخمر و حين وصفها بقوله:

راح يحـــول شعاعهـــا بين الضمائـــر و العقـــول

ذكر في مقدمتها أنه مثل القول في ذلك، و كذلك حين جعل ذكر الخمر مقدمة لقصيدته في الغزل و وصف الروض، و كانت من أول قوله فقال.

اسقنـــي فاليـــوم نشـــوان   و الريّـي صـاد و ريّـان

ذكر في مقدمتها أيضا أنه قالها على لسان بعض الناس ، مما يشعر بتحرجه من ذلك . و كان الرضي شديد النكير على من يشرب الخمر . و قد نقل خبراً جاء في « مختصر الكرخي » مفاده أن عبد الرحمن بن أبي ليلى شرب نبيذاً عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه . و قال في التعقيب عليه « و لأن المعلوم الظاهر ، و المنقول المتداول ، أن أمير المؤمنين و الأخيار من ولده عليهم السلام ، لم يرزءوا قط بمثل هذه الشملة ، و لا أن عرفوا بهذه الخلة » . فكيف يخرج نفسه من زمرة هؤلاء الأخيار ؟

و قد التزم الرضي هذا الخلق الصارم منذ شبيبته ، و أعلنه في أوائل ما قال من الشعر . ففي أول قوافيه كما ورد في صدر القصيدة يقول .

يُزْري عليك إذا غيري لفجرتــه   كانت منازع يُزْريه على التُهم

و في سنة ٣٧٧ هـ و هو في الثامنة عشرة من عمره يقول :

أنا المرء لا عرضي قريب من العدى   و لا فيّ للباغــي عليّ مقـــال

وما العرض إلاّ خير عضو من الفتى   يصاب و أقـوال العداة نبـــال

و في السنة التالية يقول :

و إنّي لمأمـــون على كلّ خلـــوة   أمين الهوى والقلب والعين والفم

وغيري إلى الفحشاء إن عرضت له   أشد من الذؤبان عدواً على الدّم

و في تلك السن يصف نفسه فيقول :

و أعرض عن كأس النديم كأنهـــا   وميض غمام غائر المزن خلّب

وقور فلا الألحـــان تأسر عزمتـــي   و لا تمكر الصهباء بي حين أشرب

و لا أعرف الفحشـــاء إلاّ بوصفهـــا   ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

هكذا كان الفتى في صدر شبابه و للهوى فتون و للشباب جنون ، و قد دعته النقابة إلى أن يكون أشد صرامة مع نفسه ، لتحمد صرامته على من ولي عليهم ، و ذلك قوله لهم :

رفعتكم بالزجر عـــن عاداتكم   ورددت منكركم إلـى المعروف

حفّ التيسّـــرة لم تطأ لريبـــة   يوماً عليّ مخالفي و سيوفـــي

و هكذا شغله جدّه عن لهو الحياة ، و نأى به سموه عن لذائذها :

شغلت بالمجـــد عمـــا يستلذ بـــه   و قائم الليل لا يلوي على السّمر

و قد وصف الرضي بالزهد و التقشف . فهل كان هذا الرجل الذي شغل بالسياسة منذ نعومة أظفاره، و أرّقته هموم المجد منذ شبابه . و اصطرع على المناصب ، عاش شمار المواقف في سبيل الخلافة . هل كان هذا الرجل زاهداً متقشفاً؟ لقد كان زهده ينحصر في الصّمت الهادئ، و البعد عن البهرج الذي كان يتميز به كـل من تصدر في هذا العصـــر . فقـد كان من علماء عصـره و فضلائه . و لكني أميل إلى أن الرضي بعد وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ قصر من نشاطه الذي كان يملأ الدنيا و يشغل الناس . و لم يعد يسعى إلى ساحة سلطان ، أو يجري وراء مغنم سياسي . بل إنه ترك قول الشعر . في الملك البويهي الجديد شرف الدولة حتى اقتضاء ذلك . و هذا الإرتداد العنيف من الإقبال على الدنيا إلى الصد عنها زهد ما بعده زهد . و في الديوان عدة مقطوعات و قصيدة واحدة محزونة بثها شيئاً في الزهد. و المقطوعات جميعها تتضمن معنيين . السخرية من تعلق الناس بالدنيا . و قرب نهاية الحياة من بدايتها . و لم تترك هذه الثلمة الرضي و هو يصارع الدنيا . و انما هي نغمة من تركها، و مضى يبحث من أغواه . و قصيدته الزهدية وعظ و ارشاد. و فيها يعلن طلاقه للدنيا

طلقتهـــا ألفاً لأحســم داءهـــا   و طلاق من عـــزم الطلاق ثلاث

و لم يقع طلاقه هذا إلاّ في تلك الفترة القصيرة من نهاية مسيرة حياته منذ سنة ٤٠٣ هـ ، و حتى بداية سنة ٤٠٦ هـ و قد بكاه مهيار بهذا مرثيه -

أبكيك للدنيـــا التي طلقتهــــا   و قد اصطفتك شبابها و غرامها

و رميت غاربها بفضلة معرض   زهداً و قد ألقت إليك زمامهـــا

و مما وصف به الرضي شرف النفس و علو الهمة و أنه لم يقبل من أحـد صلـة و سايرين في علاقة الرضي بخليفته الطبري خطأ ابن أبي الحديد في النقل عندما ذكر أنه لم يقبل صلات أبيه. و بالتالي خطأه فيما بناه مـن أحكام على هذا . و أبادر إلى القول بأن الرضي كان يحمل نفساً عظيمة . لم تتصاغر تصاغر غيره من الشعراء فتقف بباب الخلفاء و الملوك تنتظر جزاءً على الشعر، ذلك أنه كان لا يرضى بميسم الشعراء حيث يقول مخاطباً أباه :

و ســـواك لا يرضى بكفي شاعـــر

و إنما كـــان يخطب ود الخلفاء و الملوك و الوزراء و الرؤســـاء بشعره. و يجعله وسيلة إلى مايريده من مجد، و لم نجد في أخباره أنه قصـد خليفـة أو ملكاً أو غيرهما لينال رفده و يحصل على جائزته، و إنما كانت قصائده مهوراً لعقائل المكرمات . و طريقا توصله إلى مايريد من مكرمة و رفعة ، و قد عبّر عن أنفته من التكسب من طريق المديح في مقطوعته التي يقول فيها:

كم موّهوا لي بالدنيا و زخرفها ... مع الملوك فلم أرفع بها رأسا
وكيف يقبل رفد الناس محتملا ... ثقل المطالب من لا يمدح الناسا

كما وعد بتجنب الشعر إذا وصل إلى آماله في قوله :

و ما قولي الأشعار إلا ذريعة ... إلى أمل قد آن قود جنيبه
و إني إذا ما بلّغ الله منيتي ... ضمنت له هجر القريض وحوبه

هذان البيتان من قصيدة ثائرة يقول فيها.

فوالله لا ألقى الزمان بذلّة ... و لو حطّ في ثوريّ أمضى غروبه
فنحت فعندي كلّ ملك نزوله ... عن العزّ و العلياء مثل ركوبه

و موقف العزة هذا الذي وقفه الرضي رفع مكانته في الدولة ، و أسبغ عليه أرفع المناصب و هو في العشرين ، كما أن من يتصل بقصر الخلافة وسدة الملك على هذا النحو لابد أن تجري عليه الأرزاق ، دون أن يسألها بشعره أو نثره ، و قد أعلن الرضي في إباء ، في مدحته لأبيه و هو بعد شاب لم يبلغ العشرين، ردّه منحة الملوك إذ كانت لا تليق بمكانته

و كنت إذا منحتني الملوك ... نزاراً من النائل الغامر
أبيت القليل و لكنني ... رددت الرذاذ على الماطر

و قد أعلن الرضي الطائع لله منذ اتصل به ، أنه لا يبغي مالاً و لا ثروة ، و إنما .

مدحت أمير المؤمنين و إنه ... لأشرف مسؤول و أعلى مؤمّم
أريد الكرامة لا المكرمات ... و نيل العلا لا العطايا الجساما

و كانت استجابة الطائع لله لرغبته صادقة ، فلم وصله بالكرامة قبل العطاء :

مدحت أمير المؤمنين وإنه ... لأشرف مسؤول و أعلى مؤمّم
فأوسعني قبل العطاء كرامة ... و لا مرحبا بالمال إن لم أكرّم

و كان الرضي يجمع إلى إباء النفس حسن الشكر لصنيع المنعم ، و لذلك فقد أرسل إلى الطائع لله قصيدة يشكره على تكرمة خصه بها و ثياب و ورق ، أولها :

أنا للركائب إن عرضت بمنزل ... و إذا القنوع أطاعني لم أرحل

و كما كانت الأرزاق تجري عليه من قصر الخلافة أيام الطائع لله ، كذلك كانت تجري عليه من بهاء الدولة الملك دون أن يسألها أيضا ، و قد بدأت صلته الرسمية به حين استقلاله على بغداد سنة ٣٨٨ هـ ، ثم [illegible] حين ولى بهاء الدولة أبا أحمد الموسوي نقابة الطالبيين و الحج و المظالم سنة ٣٩٤ هـ ،

فاتّهم والداه الرضي و المرتضى بهذه المهام ، ثم اشتدت قوته حين ولاه بهاء الدولة النقابة و امارة الحج سنة ٣٩٧ هـ و استمر بعد ذلك على مرّ السنين حتى توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٢ هـ و في خلال ذلك كله كانت الأموال تتدفق على الرضي لمركزه و مناصبه فلم يكن الرجل يقدم قصائده لينتظر من وراء إنشادها بدرة أو كيساً من المال .

وفاة الشاعر الشريف الرضي :

إن الشريف الرضي ودع آماله حين سوي على بهاء الدولة التراب سنة ٤٠٣ هـ ، و قد اتضح هذا من شعره الشريف ، إلى الحد الذي جعل سلطان الدولة يواصل التقصي منه ، حتى اضطر إلى أن يكتب قصيدته في صفر سنة ٤٠٤ هـ و فيها يقول :

رام منّي لؤم التعريض و لولا ... ءُ لقد جاذب الزمام الأكفا

هبّ من رقدة الغرور إليه ... بعدما خرّ ناظريه و أغفى

بل إنه كان يعرف أنه يودع الحياة نفسها، ففي شعبان سنة ٤٠٥ هـ رثى صديقه البتّي ، فختم مرثيته بقوله :

ما أخطأتك النائبا ... تُ إذا أصابت من تحبّ

و لم يمض على هذا إلا أكثر قليلاً من أربعة شهور حتى لقي ربه في بكور يوم الأحد ، لست خلون من المحرم سنة ٤٠٦ هـ / ٢٦ يونيو سنة ١٠١٦م

المراجع و الهوامش :

(تاريخ بغداد ٢/٢٤٧ ، المنتظم ٧/٢٨٢ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الكامل حوادث سنة ٤٠٦ هـ ، المحمدون من الشعراء ٢٤٤ ، إنباه الرواة ٣/ ١١٤، تاريخ ابن الوردي ١/ ٣٣٢ ، تاريخ أبي الفدا ٦/ ١٤٥ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٦٥، عمدة الطالب ٢١٠ ، روضات الجنات ٥٤٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٧٨ . و في نسخة من وفيات الأعيان ، توفي بكرة يوم الخميس سادس المحرم ، و قيل صفر ، سنة ست و أربعمائة ، ونقلها نقل الصفدي في الوافي بالوفيات ٢/٣٧٨ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٣/ ١٨٤ . و في البداية و النهاية لابن كثير ١٢ / ٣ أنه توفي في خامس المحرم سنة ٤٠٦ هـ . و تفرد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١ / ١٠ بأنه توفي في المحرم من سنة أربع و أربعمائة . و كذلك ذكر الخوانساري في روضات الجنات ٥٤٦ ، بعد أن ذكر التاريخ الأول من صفحة ٥٤٨ . و القول الأول هو المعتمد في

الرب المراجع التاريخية إلى الرضي ، و هو الذي يتفق مع ما جاء في ديوانه في رثائه البكّي المشار إليه فيما سبق ، و ما جاء في ديوان أخيه المرتضى و تلميذه مهيار في رثائهما له) من سبع و أربعين سنة .

(جاء في كتاب الدكتور إحسان عباس عن الشريف الرضي ١٤٤ أنه توفي عن قرابة الثين و أربعين عاما . و هو خطأ)

و لم نساءل أديب التقي عن السبب في قصر عمر الرضي ، و هو من أسرة معمّرة فوالده بلغ السابعة و التسعين ، و أخوه مات عن إحدى و ثمانين سنة و عزا هذا - في تقديره - إلى مرض مفاجئ دهمه بالموت قبل أن يعالج - ثم ساق ماذكره كرنكو ، من أن الشريف كان ضعيف البنية. (الشريف الرضي ١٠٤ ، ١٠٩)

و ذكر كرنكو أيضا أنه شكا الشيب و هو في العاشرة و العشرين

(دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٨٥) و هذا خطأ لأن الرضي شكا الشيب و هو في الثالثة و العشرين ، كما جاء في قصيدته (٣٧٠) .

و لست أدري من أين استقى كرنكو قوله إن الرضي كان ضعيف البنية، بل إنه ذكر أيضا أن المرض اشتد عليه اشتدادا خطيرا سنة ٤٠٢ هـ ، في جمادى الأولى حتى يئس الناس من حياته ، بيد أنه ما أن انقضى شهران حتى أبلّ من مرضه ، إلى حد أنه استطاع أن يرسل في شهر رجب قصيدة أخرى إلى سلطان الدولة في أرّجان . (المرجع السابق)

و واضح من هذا أن الأمر اختلط على كرنكو ، فالذي مرض حتى يئس الناس منه هو بهاء الدولة لا الرضي.

و قد ساق ابن معصوم و الخوانساري قصته في إنشاء الرضي لبيتين اكمل بهما عمل أخيه المرتضى ، (روضات الجنات ٥١٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٦٨ - ٤٦٩)

رويها عن أبي الحسن العمري ، و جاء في آخرها في رواية ابن معصوم أن المرتضى قال : " يعزّ عليَّ أخي ، قتله الذكاء ، فما كان إلا يسيراً حتى مضى لسبيله " و في رواية الخوانساري : يعز على أخي ، يقتله الفهم بعد أسبوع ، فما دار الأسبوع إلاّ و جاء نعي الرضي ، و مضى لسبيله . و القصة - كما ذكر أديب التقي و الدكتور إحسان عباس - (الشريف الرضي ، أديب التقي ١٠٢ - ١٠٣ ، و الدكتور إحسان ٣٥٨ - ٣٦٠) ، صيغت على مثال قصة أبي تمام مع الكندي ، و صيغت أبيات بجهة الرضي ، و أبرا حس المرتضى . و قد ذهب الخوانساري ، بعد رواية القصة ، مذهبا في أن ذلك حدث لاحتراق خلط السوداء ، أو التوجه الحواس الباطنية بكليتها إلى التأمل. (روضات الجنات ٥١٩)

و ليس لهذا كله يوحي أجل انتهى ، فلكل أجل كتاب.

و لما توفي الرضي حضر الوزير فخر الملك و جميع الأشراف و القضاة و الشهود و الأعيان ، و صلى عليه الوزير في الدار مع جماعة أمّهم أبو عبد الله بن المهلوس العلوي - ثم دخل الناس أفواجاً عليه ، و دفن في داره بكرخ مسجد الأنباريين بالكرخ (المنتظم ٧/ ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الوافي

بالوفيات ٢/٢٧٨ ثم يمضي المراجع التي سيفصل في وفاته)

و لم يستطع أخوه المرتضى أن ينظر إلى تابوته و دفنه ، فمضى إلى مشهد موسى الكاظم بمقابر قريش ، و ركب هذا الفلك في آخر النهار، فعزاه و ألزمه العودة إلى داره ففعل. و قد حفظ له المرتضى هذا الصنيع ، فقال في رثائه لأخيه :

من مبلغ فخر الملوك أنني ... للفضل من نعماه لست بناسي

ستروّت عني كربهما من لمة ... و عدلت بي الاستيحاش بالإيناس

وأقلتني منها و قد ستمت مالسي ... جلدي الرواجف أي يوم حلاس

إن كان قومي قد مضى و بقيت لي ... فالفرع مسدول على الأساس

(ديوان الشريف المرتضى ٢/ ٢٤٠)

و هذه الأبيات - و ما تدل عليه من عظم المصيبة لدى المرتضى في أخيه - تضعف الطعن الذي تكلفه تهيب الثقفي ، حيث قال : « إن تعليل هذه العلاقة لا يقنع . فالمرتضى إلى ذلك الحين ، كان قد ترف على الخمسين ، و ما هو بالفتى الحدث الذي يجزع لرؤية الموت ينزل بعزيز عليه ، و لم يكن من ضعف الإيمان بالحالة التي لا تشمل قضاء الله ينفذ في أخيه ، و ربما كان لهذه الحادثة باعث غير باعث الجزع ، و قد يكون الباعث تفصيلاتها لم تطلع عليه - و بين الرضي و أخيه وحشة سالفة. استبعد العتاب و المراسلات بالشعر و غير الشعر » (الشريف الرضي ١٠٦)

و قد دفن الرضي - كما سبق - في داره بمحلة مسجد الأنباريين الكرخ ، و يذكر ابن خلكان و ابن العماد ذلك أيضا ، أن الدار خربت ، و أن القبر دثر

(وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، شذرات الذهب ٣/ ١٨٤).

بينما يذكر ابن عنبة أنه نقل بعد ذلك إلى مشهد الحسين عليه السلام بكربلاء ، فدفن عند أبيه ، و قبره ظاهر معروف. (عمدة الطالب ٢١٠ ، ٢١١)

و يقول ابن معصوم « ثم نقل الرضي إلى مشهد الحسين بكربلاء فدفن عند أبيه » . (الدرجات الرفيعة ٤٧٨)

أما الخوانساري فقد زاد في المنقول من ابن عنبة بعد قوله « و قبره ظاهر معروف » قوله : « هناك قريبا من الروضة المنورة » ثم نقل قول الطباطبائي : « و الظاهر أن قبر السيد - يعني المرتضى - و قبر أخيه و أبيه ، في المحل المعروف بإبراهيم المجاب ، و كان إبراهيم هذا هو جد المرتضى ، و ابن الإمام موسى عليه السلام و قبر إبراهيم المجاب في الحائر معروف مشهور » ، قال الخوانساري : « و كأنه القبر الواقع في أواخر - كذا - رواق خلف الرأس من الحرم المطهر ، و قيل : إنه الآن في المسجد المتصل بالحائر من جهة خلف الحضرة المقدسة فليلاحظ » (روضات الجنات ٥٤٩).

و في الكاظمين ببغداد قبة قائمة على قبر ينتسب إلى الشريف الرضي ، و قد

جزم السيد محسن الأمين بأن هذا القبر ليس قبر الرضي .
(انظر الشريف الرضي لأديب التقي ١٠٨)

و قد لقب بالرضي جماعة ذكرهم ابن عنبة. (عمدة الطالب ٣٥)
فلعل القبر لواحد منهم .
ورثى الرضي أخوه المرتضى بقصيدة باكية ، مطلعها :

قدني إليك فقد أمنت شماسي ... و كفيت منك اليوم صدق مراسي

و فيها يقول :

يا للرّجال لفجعة جذمت يدي ... و وددتها ذهبت عليّ براسي

ما زلت أحذر وردها حتى أتت ... فحسوتها في بعض ما أنا حاسي

ثم يصف مكارم أخلاقه ، و عظيم صفاته ، فيقول

و ينعى إليّ وليته لم ينع لي ... بعد الفروع و فاسح الغرّاس

و مخلّف النجباء خلف ترابه ... و محوّز الفضلاء و الأجناس

من فاز شوس الفخر بعد تقاعس ... و استاق حمّ الذكر بعد شماس

من كان موجوداً لكل عظيمة ... تدعى و مدعواً ليوم عماس

من كان يأبى فضله العالي الذرا ... من أن يقاس إلى الورى بقياس

و يشير إلى اختطاف الموت له

واهاً لعمرك من قصير طاهر ... و لربّ عمر طال بالأرجاس

كما يبلغ به الأسى مبلغه في قوله .

يا موت كيف لحدت نفسي تاركاً ... نفساً عليها حمّة الأنفاس

(ديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٣٦ ، ١٣٥ . و قال الصفدي في الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٨ » و رثاه المرتضى بمراث كثيرة « . و قد فتشت في ديوانه فلم أعثر له إلاّ على هذه المرثية) .

كما رثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصيدة مهمة، أبان في أكثرها عن لوعته لفراقه:

لأساهرنّ الليل بعدك حسرة ... إن لم أطق بعد حزيناً ساميها

و لأخرجنّ عن الطول على الأسى ... ثلثاً محرمّة علي من أمها

و لأبدلنّ الصبر عنك بفرحة ... في الصدر لا يجد الدواء لعلامها

أبكي لظلمتها و أعلم أنني ... بالدمع مختطر لشبّ ضرامها

(ديوان مهيار الديلمي ٣ / ٣٧٠)

و هي قصيدة طويلة - أجاد فيها مهيار في رثاء أستاذه - فغاظ ذلك قوماً ممن كان يحسد الرضي بالفضل، و نسبوه إلى السَّرَف في الأعداء علاقته بالرضي - (الدرجات الرفيعة ١٧٩ . و مقدمة القصيدة الدالية في ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩)

فقال قصيدته الدالية

أ قريش لا لفم أراك و لا يد ... فتواكلي غاض الندى و خلا الندي

و قد حذا حذو أستاذه الرضي في رثائه أبا الطاهر بن ناصر الدولة بالقصيدة

ألقى السلاح ربيعة بن نزار ... أودى الردى بقريعك المغوار

و يقول مهيار مخاطباً قريشاً

حلأك ذو الحسبين أنقاضاً فتى ... تهوي على حبل القناة شديد

ثم الذنا أحصيت صلاتك بعده ... فرصاً كذاك بصائر و بعيد

ثم يذكر أمجاد الرضي :

عادت أراكة هاشم من بعده ... عوداً لفاس الحاطب المتوقد

فجعت بمعجز آية مشهورة ... و لرب آيات لها لم تشهد

كانت إذا هي في الإمامة نوزعت ... ثم ادّعت بك حقها لم تجحد

رضي الموافق و المخالف رغبة ... بك و اهتدى الغاوي بهدي المرشد

تبعتك عاقدة عليك أمورها ... و عرى قلبك بعده لا تعقد

و رأته خلفاً شيبها و كهولها ... فتزحزحوا لك عن مكان السيد

و لا ينسى ما أنزله به اللائمون عند إنشاد القصيدة الأولى فيصمهم بالتقصير و العجز

لحسدت فيك لسانهم تقصيرهم ... نسب العيب إلى الظهير المسعد

و يختم المرثية بهذا الدعاء و تلك اللوعة

لا هيرتك جنائب تحدى البكى ... و كفاك طيب البيت طيب المحتد

و فرقد لا تبعد و إن علالة ... للنفس زوراً قولي لا تبعد

(ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩ - ٢٥٢)

و رثاه أبو القاسم الوزير المغربي بقصيدة ، منها:

أذكرتنا يا ابن النبيّ محمد ... يوماً طوى عنا أباك محمدا

و لقد عرفت الدهر قبلك سالياً ... إلّا عليك فما أطاق تجلدا

مازلت تحمل الدهر ثقل همومه ... حتى رأيتك في علاه ممهدا

(دمية القصر ١ / ٩٧)

و رثاه سليمان بن فهد بقصيدة ، مطلعها

متبرم من حاسديه طرق ... أسى الهدوّ و لحينا القلق

(مقدمة حقائق التأويل ١١٢ ـ الشريف الرضي لأديب التقي ١٠٦)

و في هذه المراثي يتجلى الوفاء ، فالرجل كان يعظم ألمَ الفقد ، و يبكي على كل صديق فارقه ، بل إن كان يبكي على أناس لا يفتقدهم أحد ، رقة القلب ، و سموّ عاطفة ، حتى عرفه الأدباء بالعاطفة الشاكي. (انظر الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٤)

مذكرة رحلة الحجـــاز
لسمو الشيخة سلطان جهان بيكم أميرة بوفال

بقلم : أحسن علي خان
بوفال

سلطان جهان بيكم حاكمة إمارة بوفال قد رحلت إلى أرض الحجاز المقدس، فألفت مذكرة شيقة ممتعة بها تعرف الفرق الواضح بين حج اليوم و الأمس. كان الحاج يمرّ من المصائب العظام و الخطوب الهائلة خديدة السواء قبل قرن من الزمان ، و كان يسافر و قلبه خفقان من الخطرات المحدقة به و فيها عبرة للحجاج الكرام الذين يظعنون إلى تلك البقعة المباركة هذه الأيام بيسر و سهولة.

إمارة بوفال الإسلامية :

لنذكر قبل البدء في الموضوع الأصلي سطورا من إمارة بوفال الاسلامية المرحومة كمدخل للبحث النبيل.

أسست هذه الإمارة بوسط الهند على يد قائد أفغاني دوست محمد خان في بداية القرن الثامن عشر و كانت دولة المغول تحتضر و تكاد أن تنمحي من الوجود. و أحوال الهند تنتقل من سيء إلى أسوأ، و لم يبق من الاستقرار و النظام شيء. و كانت هذه الامارة محاطة من جميع الجهات بأقوام همهم القتال و الاغارة مثل المرهتا و البنداره.

استمرت الحروب بأقوام مجاورة حتى بعد تأسيس الإمارة بقرون. و اشترطت الإمارة في معاهدة مع شركة الهند الشرقية توقف القتال و انتهت الحروب. و لم تبق إلاّ الحروب الأهلية بين بعض أسرة الطبقة الحاكمة.

في عهد سكندر جهان بيكم و شاهجهان بيكم وصلت الإمارة إلى أعلى درجات الرقي و التطور و الازدهار. و في عهد سلطان جهان بيكم تطورت الإمارة إلى أعلى معدل للحضارة و الثقافة.

بعد الأميرة سلطان جهان بيكم :

توفيت الأميرة شاهجهان بيكم في ١٦ يونيو ١٩٠١م في الساعة الثانية عشر ظهرا ، و دفنت في حديقة نشاط ، و كانت المرحومة قد انهت مسئلة ولاية العهد لإبنتها سلطان جهان بيكم و بعد وفاتها اخبر المستر جي ايتج الوكيل الانجليزي لدى الإمارة وزير الإمارة المولوي عبد الجبار خان ان حكومة الهند المركزية قد اعترفت بحكومة الأميرة سلطان جهان بيكم.

عزمها الحج قبل تولي السلطنة :

و كانت سلطان جهان بيكم تعتزم الحج منذ ان كانت ولية للعهد، و كان وراء هذا العزم شيئان - الأول : كانت علاقتها بأمها قد تكدرت وسفوها لأسباب سياسية، و الثاني: كانت متدينة و صاحبة استطاعة تخاف في تأخير اداء هذه الفريضة، و هي تشير إلى السبب الأول في كتابها "جوهر اقبال" في عهد شاهجهان بيكم كنت اعتزمت ان اهاجر إلى مكان آخر بضغط المشاكل و المصائب التي كنت اتحملها . فقد اشرت إلى ذلك في رسالة بعثتها إليها، و كتبت امثاله أن أمن بقعة على وجه الأرض هي بيت الله الحرم".

و تشارت إلى السبب الثاني في نفس الكتاب " كنت اناقش زوجي النواب احتشام الملك بهادر في اكثر الأوقات في مسئلة أداء فريضة الحج و كنت اوكد عليه اننا مستطيعون و نسئل عن التأخير يوم القيامة " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " (١)

و لما تولت زمام الحكم لم يبق مانع من الزوج و لا حاجة بقيت للاستئذان من أمها و اشتاقت و تاقت نفسها مرة أخرى للحج . و هي تكتب بعد وفاة زوجها " و كنت اتحرق شوقا للحج و لزيارة روضة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة " (٢).

الاستئذان من الحكومة بدلهي :

و كانت تحتاج للحج بإذن من حكومة الهند المركزية فقدمت طلبا إليها في ٣ من مارس سنة ١٩٠٢م للاستئذان للسفر و لاصطحاب ابنيها الصغيرين محمد عبيد الله خان و محمد حميد الله خان ، و كذلك طالبت ان يرافقها مسئول طبي كبير إلى جدة كما رافق الدكتور لاسين مع الأميرة سكندر جهان بيكم، و أرسلت هذا الطلب عن طريق الوكيل السياسي إلى حاكم الهند العام.

الإذن بعد جلوس الملك على العرش :

و اطلعت الأميرة من قبل الحكومة المركزية بدلهي في ١٩ يوليو ١٩٠٢ ، انها تجوز لها السفر إلى الحجاز بعد مهرجان جلوس الملك على العرش بدلهي ، و تسمح الحكومة ان تكون في مرافقتك مسئول طبي إلى جدة، فعليها ان تؤخر

بطولها، و كانت كلها شوق . و كانت تستعجل الذهاب، و لكنها أجبرت إلى مابعد مهرجان جلوس الملك على العرش.

و عقد مهرجان الجلوس بأوائل شهر يناير ۱۹۰۳م بدلهي . و اشتركت فيه وبعد الفراغ منه فورا بدأت الاستعداد للسفر و كتبت إلى الميجور ل امس الوكيل السياسي بامارة بوفال ان الحكومة المركزية اذنت لي بالسفر للحج بعد مهرجان الجلوس على العرش. و لكن كان في الاذن إشارة أن يطلب مرة أخرى بعد الجلوس فيناسب أن تحصل على الاذن الجديد بأقصى سرعة ممكنة و اطلعني بذلك فاطلعت غيرأنه الأميرة استعدادها.

استعداد السفر للحج :

و كان أهم شيء في هذا المضمار من يتولى شئون الإمارة في غيابها، فقررت تعيين ابنها الأكبر محمد نصر الله خان، و كتبت له الدستور و ذكرت فيه كيف يرعى شئون الرعية و البلاد و سلمت إليه هذه الوثيقة للعمل عليها كما أخبرت الحكومة المركزية عن هذا التعيين.

و كانت تريد الاستعانة من الحكومة الانكليزية المركزية في الأمور الآتية:

١ - ان تعين الحكومة مسئولا كمرافق لها في السفر إلى ينبع و جدة و المدينة المنورة و مكة المكرمة و الاياب منها.

٢ - طالبت الأميرة طلبا من الحكومة المركزية لإرسال بريدها في مكان سفرها و اقامتها.

٣ - طالبت الأميرة تهيئة السفينة التي تنقلها إلى الحجاز.

٤ - مسئلة الكرنتينة، كانت تجرى للمسافرين الهنود مرتين، الأولى في ميناء القاهرة و الأخرى في ميناء قامران تبعاً لمعاهدة الأمم المتحدة لحفظ الصحة. كانت الأميرة تريد الاستثناء من التطويل . و قد طلبت اجراء جميع مراحلها في بوفال لوكانت ضرورية، و كذلك كانت تبتغي الاستثناء من كرنطينة قامران، و استمرت مراسلات طويلة بينها و بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية بهذا الخصوص.

٥ - مطالبتها الحراسة من الحكومة التركية ، طالبت الأميرة من الباب العالي عن واسطة سفارة الحكومة الانكليزية أن تسمح لها باصطحاب الجنود المسلحين، و الباب العالي لم يسمح بذلك و لكنه وعد بحراستها بواسطة جنوده.

٦ - تسهيل عملية الجمرك، كتبت الأميرة إلى الميجور ايمس ان يكتب رسالة تصديق إلى مسئول الجمرك بپومباي أو إلى محافظ المدينة أن أمتعتي ليست بها أشياء ضارة للصحة أو المخدرات.

الوصية قبل السفر :

الوصية شيء مهم في الاسلام و جاءت أهميتها و تأكيدها في الحديث النبوي، فرأت أن تملي وصيتين قبل سفرها للحج إحداها عامة و الأخرى خاصة. فشهد الأميرة للوصية العامة أثناء توقيعها كل من السادة معالي الوزير المولوي عبدالجبار خان، و قاضي الإمارة المولوي عبد الحق ، و مفتي الإمارة المولوي بحيى و أودعتها عند أبنائها الثلاثة و قاضي الإمارة و مفتيها.

أما الوصية الثانية فقد سلمته إلى معتمد الخاص و قالت له إن رجعت سالمة فردّها إليّ و إلا سلمها إلى الأمير نصر الله خان.

الأمور التي لم تحل كانت بخصوصها مرارا و تكرارا حتى حلت معظمها و لم تحل بعضها إلى مغادرتها.

الحكومة الانكليزية المركزية عينت الميجور ر . س . ميكورات موظف شئون الصحة الهندية لترافقها في سفرها للحج و كان يريد ان يصطحب زوجته في السفر فعلقت الحكومة الأمر على رضاء الأميرة ، و كتبت في كتابها " رحلة الرياحين " : "كنت استفدت كثيرا سياسيا بسبب الميجور و زوجته تعتمد بالسفر و لا أنساها مشكورة" .

و مسألة البريد حلت كما شاءت الأميرة. أما مسألة السفينة و أجرتها و نظافتها و غيرها من الأمور استمرت في ذلك مراسلات طويلة بينها و بين مسئولي الحكومة فاستأجرت سفينة أكبر لنفسها و لرفاقها من الحاج قاسم و تم الاتفاق في ذلك حتى لاينشأ النزاع عند زيادة عدد المسافرين، و كان معها ثلاثمائة مسافر و أربعون فرسا و أشياء أخرى و كانت السفينة ذات ثلاث درجات الأولى و الثانية و الثالثة ، و كانت متسعة جدا.

و اطلع الميجور المس من حراستها من قبل الحكومة التركية و أخبر انه استلم برقية الوزير الهندي ان الحكومة التركية تهيئ لها الحراسة عن طريق جنودها و تقدم تسهيلات في الجمرك و تستطيع أن تصطحب رجالها و شرطتها و لكن بدون أسلحة و أما اذا كانت في حوزتهم الأسلحة فيجب أن يتركوها في السفينة ، و كتب الميجور أيضا انك لو سلمت الشروط المتعلقة عن الشرطة فأطلب من الأميرة المحترمة أن تكتب إليّ رسالة تذكر فيها ان شرطتها تدخل بدون أسلحة و انهم كلهم مسلمون.

فكتبت الأميرة إلى الميجور التحرير التالي انا أطمئنك ان جنودي غير مسلحين إلا بعض مسئولي الإمارة الكبار يحملون أسلحة خفيفة و هي ضرورية لهم لأنها حلية الرجال. و لأجل اتفاق الأمم المتحدة كان يجب أن تمر الأميرة على القرنطينة و لكن بيوقال بدل بومباي و في بورسعيد بدل قامران.

مراسلة بعض الشخصيات الحكومية المهمة :

بعد أن تمت هذه المراحل راسلت الأميرة ببعض الشخصيات المهمة

بالحجاز حتى لا تتعب في السفر هناك و القيام بها فأرسلت الهدايا لبعضهم و كانت الأميرة أرسلت قبل سفرها المولوي ذوالفقار احمد النقوي و المولوي عنايت الله و المولوي أعظم حسين و حمد شكري أفندي الذين كانوا موظفين بالإمارة لرسالتهم إلى السادة الآتي ذكرهم :

السيد شريف عون الرفيق باشا أمير مكة ، و كانت له علاقة مع إمارة بوفال منذ عهد الأميرة سكندر جهان بيجم.

السيد ذوالفقار أحمد راتب باشا حاكم الحجاز ، و كان قبل تعيينه حاكما زار بوفال و كانت علاقته مستمرة بها.

السيد عثمان باشا شيخ الحرم المدني.

السيد حسن مظفر شاه حاكم المدينة المنورة

كانت الأميرة كتبت إليهم الرسائل و أرسلت التحف و الهدايا و ألف روبية لكل من أمير مكة و حاكمها و شيخ الحرم المكي و حاكم المدينة.

القرنطينة للإيابي :

كانت الأميرة تريد مغادرة بوفال في ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٠٢م و لم نعلم هل تجرى القرنطينة ببوفال أو بومباي ، و أخيرا أبلغتها حكومة بريطانيا بقرار بمناسبها احتراما لها أن تجهر هي و أصحابها المدينة و تقيم في مكان بعيد عن المدينة عشرة أيام . فلم تبق بعد ذلك ضرورة للقرنطينة ببومباي.

و كانت القرنطينة لازمة للهنود لأن بلاد الهند كانت مشهورة بمرض الطاعون و الأوبئة الأخرى . و كانت الحكومة تحذر المسافرين أن يذهبوا إلى تلك الديار حاملين فيروس الأوبئة . فلو لم تمر بسلامة من القرنطينة التركية ترحل إلى الهند و تتعب و تلزم عليها الانفاق و لذا أبيح لها السفر بسبب نشر الطاعون هناك.

و كانت الحكومة التركية اشترطت حيال قرنطينة القافلة السلطانية ما يلي :

- ان تجرى ببوفال .
- ان يحمل القطار لإزالة الاثرات السامة و توقد البخور به.
- يجب أن تكون السفينة بجميع الضوابط المقررة المطبقة من الحكومة التركية.
- ابادة جميع الفئران بالسفينة.
- ان كان الوباء إلى الآن فيطلع بذلك إلى الحكومة التركية.

فلما أبيح للأميرة بإجراء قرنطينتها ببوفال ، قسمت أصحابها إلى فئتين ، عدد الأولى منها مائة شخص تقريبا، و أقاموا بحديقة نشاط افزا التي بنتها الأميرة شاهجهان بيكم و حديقة حيات افزا التي عمرتها الأميرة نفسها الملتصقتين و يفصل بينهما جدار فيه مدخل . أما الفئة الأخرى كان فيها بقية

الأصحاب. و كانت قرنطينتها بقرية ديب تبعد عن بوفال اثنى عشر ميلا في الجنوب وتمر بها سكة الحديد أيضا، و هذا الركب ذهب إلى ديب في ١٨/ اكتوبر ١٩٠٣م و أقامت بميدان هناك لعشرة أيام حسب ضوابط القرنطينة و عين المنشي منليت حسن و الميرزا كريم بك مسئولين عن هذا الركب.

و الأميرة انتقلت مع ابنيها عبيد الله خان و حميد الله خان من قصرها بسعد منزل إلى الحديقة بعد صلاة الظهر مباشرة، و مرافقوها وصلوا إليها من قبل.

فأقامت الأميرة مع ابنيها و النسوة في حديقة نشاط افزا و أما بقية الرجال فأقاموا بحديقة جهان افزا.

و فتحت ادارة البريد مكتبا مؤقتا هناك، و كانت ترد إليها الرسائل تباعا. و كانت تدير شئون الإمارة من هناك و كان مسموحا للأمير نصر الله خان و كبار رجال الحكومة لقائها.

فطبيبة السيدة مكالن تفحص النسوة و الميجور مكوراث يفحص الرجال و كذلك كلتا يذهبان إلى ديب لفحص المقيمين هناك.

و هكذا انتهت مدة عشرة أيام للقرنطينة.

من بوفال إلى بومبائى : في ٢٨/ اكتوبر ١٩٠٣م ركبت الأميرة القطار من محطة مؤقتة قرب الحديقة شيدت لأجلها ، مع ابنيها و ركبها في الساعة الثانية عشر ليلا، و كان سبب فتح هذه المحطة مراسلتها مع وزارة المواصلات عن طريق الميجور ايمس.

الميجور مكوارث و زوجته ركبا من محطة بوفال، ثم وقف القطار في محطة ديب فركبت القافلة من هناك. و وصل القطار برعاية الله إلى بومبائى في الساعة السابعة صباح الجمعة في ٣٠ / اكتوبر ١٩٠٣م.

استقبالها في بومبائى :

و كان بمحطة واري بندر كثير من مستقبليها من أهمهم الأمير نصر الله خان الذي وصل هناك لترتيب السفر، و الميجور ايمس الذي وصل هناك لاستقبالها و سكرتير حكومة بومبائى الكابتن جودراج و موظفو إمارة بوفال و بعض الكبار و أصحاب الأعمال و بعض الأوروبيين و الأوروبيات، و كانت المراسم العسكرية في انتظارها و حينما نزلت من القطار قدم إليها السلام و المراسم الرسمية العسكرية و المدنية ، و الطلبة المدعوة من الكلية بومبائى طلقاتها و بعض الحضور قدموا الزهور و الباقات.

المغادرة من بومبائى :

باخرة "أكبر" التي استأجرتها الأميرة كانت ملاصقة للرصيف على الميناء فركبت هي و من معها و الوكيل الانكليزي و بعض الرجال الأوروبيين

ودفعوها من الميناء.

المراسلات الطويلة التي تمت بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية ما حلت جميع مشاكل السفر، و كانت تبقي الايضاحات في بعض المشاكل و خاصة عن القرنطينة الثانية. فاطلعت ان تفاصيل ذلك ستعلمين منها بعدن.

في الساعة الرابعة حضر الأمير نصر الله بغية اللقاء بها، و في الساعة الخامسة رفعت الباخرة مرساها فرددت هي و مرافقوها التلبية و تلوا " بسم الله مجريها و مرساها" .

رسو الباخرة بعدن :

و كانت النظافــة بالسفينــة تامة، فلم يحس شخص بالقــيء و الدوخ . و الأمير عبيد الله خان أحس بالقيء في بداية السفر و لكن بتوجه الدكتور ميكوارت انتهى كل شئ.

رست الباخرة بميناء عدن في الساعة الثامنة عشر ليلا في السابع من نوفمبر سنة ١٩٠٣م و قد استلم قبطان السفينة برقية المستر ميور قنصل جدة محتواها ان باخرة سمو الشيخة لا توقف بكامران بل تصل إلى جدة مباشرة.

القرنطينة ببئر سعيد :

في الحادي عشر من نوفمبر وصلت الباخرة قرب جدة و رأى الكابتن انه لايناسب وصول السفينة بجدة ليلا و تبقي تعوم في البحر و ترسي بالميناء صباحا.

في ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٣م الموافق ٢١ شعبان رست الباخرة بميناء بورسعيد التي كانت جزيرة جميلة و قد تقرر ان القرنطينة الثانية للأميرة تكون هناك و هي محاذية لجدة بينهما البحر الأحمر و رست باخرة الاميرة قريبة من جهة جدة حتى تسهيل عملية الحمل و النقل.

بايعاز من الحكومة الهندية قبلت الحكومة العثمانية بشرط التزام القواعد الصحية المقررة لاتكون حاجة للقرنطينة الثانية، و قد قبلت تلك وزارة الصحة بالقسطنطنية أيضا، و لكن بسبب وباء الطاعون ببومبائ طالبت وزارة الصحة بالقسطنطنية مصرة على قرنطينة عشرة أيام، و هي اما في كامران أو في بئر سعيد و لكن سمحوا للأميرة أن تبقى بالسفينة أو تنزل على البر حسب ما تشاء.

نائب القنصل البريطاني الدكتور محمد حسين حضر مع بعض المسئولين و اقترب من الباخرة و لم يدخلوها بسبب كونها فــي القرنطينــة. و أخبرها الدكتور أن القنصلية البريطانية بجدة ابرقت إلى الباب العالي أن يعفي سموها عن القرنطينة. في اليوم الثاني حضر القنصل البريطاني

بنفسه و اطلع بذلك البرقية . و لكن بسبب تأخر الردّ من القسطنطنية بقوا في القرنطينة ستة أيام، و في اليوم السابع وصله الخبر عن اعفاء القرنطينة. و الخبر الرسمي عن الاعفاء وصل إلى الميجور ميكوارث في صورة رسالة فأنزل الرجال على البر و ظهروا بالبخور.

حسب البرنامج المقرر ارسلت الأميرة خمسين شخصا في رياسة الحافظ عبد الرحمن إلى مكة المكرمة و هم أودعوا خمسة آلاف روبية مصحوبة امانة عند القنصلية البريطانية.

صعوبة سموها إلى مكة :

كانت سمو الشيخة تريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة و من ثم إلى مكة المكرمة و بقي في حلول رمضان المبارك يومان فقط ، فلما حضر القنصل و نائبه لزيارة سموها أخبرتهما انها تريد أن تقضي معظم أيام رمضان بالمدينة المنورة و لذلك اريد أن أصل إلى جدة بسرعة ممكنة. و أخبرها القنصل ان السيد شريف وجه إليك الدعوة ان تحضر إلى مكة المكرمة أولا و من هناك يوصلك و مرافقيك إلى المدينة المنورة بالتكريم و الاعزاز ، و كان قد أرسل محملا لركوبها و أربعة لحراستها و مرافقيها.

و لكن الأميرة قالت انها تريد الذهاب أولا إلى المدينة المنورة حسب برنامجها ، و لم تحرم من " يلملم " ميقات أهل الهند ، فتريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة ، وردت المحمل ، لأنها اصطحبتها من الهند ، مشكورة و لم ترد الاشراف.

حراستها من السلطان المعظم :

حضر بعض العسكريين و السيد علي يمني القائم بأعمال الحاكم بجدة و المسئول الطبي على السفينة للسلام عليها. و هؤلاء استفسروا حالها عن طريق نائب القنصل و أخبروها أن السلطان المعظم أكد لحراستها و الاهتمام بها و أمر بارسال معلمين و سبعمائة جندي تركي معها.

و لكن لأجل اعفائك من القرنطينة لم تغادر الجنود من المدينة المنورة فاذا أردت الانتظار فلتنتظريهم و اذا تريدين السفر بسرعة نرسل في رفقتك مائتي جندي من جدة و مائتي جندي من ينبع.

في اليوم الثاني ركب أحمد افندي و سليمان آغا بالخرتها مع خمس و عشرين مسئولا و ١٩٤ جنديا ، و كذلك الاشراف الاربعة المرسلون من قبل السيد شريف مع خمسة عشر شخصا.

وصولها إلى ينبع :

غادرت الباخرة ميناء جدة يوم الجمعة ٢٠ نوفمبر ١٩٠٢م الموافق ٢٩ شعبان

١٣٢٦ هـ، و بعد أربع و عشرين ساعة كاملة رست الباخرة في ينبع البحر، و كان هناك الهواء شديدة و تلاطم الأمواج عنيفة، ابتلي الناس بالقيء و الدوخ و كان مفروضة بدون اطلاع مسبق فلم يعرف أحد بقدومها و لكن المسئولين الأتراك لما رأوا الباخرة جمعوا العساكر و اصطفوا و قدموا إليها السلام الرسمي على الميناء و كان القائم بأعمال ينبع السيد مصطفى أفندي جاء إلى الميناء و اجتمع كثير من الناس لاستقبالها. و لقي بها الأشراف في السفينة و كان أول يوم من رمضان فلم تصم و كانت مسافرة حل لها الفطر.

الإقامة بينبع :

نزلت الأميرة من الباخرة في مبرة ذات حجاب، و لما وصلت إلى الميناء أطلق ٢١ طلقة من المدفعية و قدموا الجنود المصطفون تحية لها و سلاما.

و أرسلت الأميرة المولوي أعظم حسين و المولوي ذوالفقار أحمد النقوي و المولوي مجاهد الله و شكوري إلى ينبع مسبقا حتى يتعين إقامتها هناك، فهم قرروا استئجار بيت قرب الساحل بمسافة ربع ميل للإقامة.

و كان للحراسة جنود و لكن لإبداء الاحتشام و التكريم عين الحراس من الجيش التركي. و كان مصطفى فرحت باشا أرسل إلى سموها مياه المدينة المنورة و رمانها و تمورها.

و المسئول الطبي الدكتور الميجور ميكوارت و زوجته اللذين رافقاها من الهند رجعا إلى جدة بالباخرة " أكبر " بعد أن نزلت سموها بينبع ثم أقامت هناك خمسة أيام

من ينبع إلى المدينة :

في السابع من رمضان المبارك غادرت قافلة الأميرة إلى المدينة المنورة في الساعة الثانية عشرة ظهرا على الإبل فقد استؤجر مائتا إبل و حضر الجنود من جدة معها، و زاد الجنود من هنا أيضا . و كان عدد الجنود الترك أربعمائة سوى المدفعية.

الإقامة بمسعلي :

وصلت الأميرة إلى مسعلي في الساعة الرابعة فأقامت هناك و كانت عاشية ، و كان موقع مسعلي على الجبل الشاهق و كان ماءها أحمر و طعمها غير جيد ، و الماء المحمول الذي كان في معية القافلة شربها الجميع حتى الحيوانات شربت منه. و لما أقامت القافلة هناك ضرب الجيش التركي حلقة لحراستها و نزلت الأميرة بالخيمة، في الساعة التاسعة ليلا أطلقت المدفعية طلقتها إيذانا بعدم دخول أحد في الحلقة. و كانت حلقة الجيش بحيث قام كل جندي تركي بعد عشرة أذرع ، و كان حاملا بندقيته و ظهره إلى القافلة، انقضى الليل بالراحة.

الإقامة ببئر سعيد :

في اليوم الثامن غادرت قافلة الأميرة في الساعة السابعة صباحا ، و كان الحراسة مثل السابق. كان في الحلقة الداخلية الجنود المرافقون لها. و في الحلقة الخارجية الجنود الأتراك. صرفت الوقت قبل بدء السفر. المنزل الثاني لم يكن مثل السابق، و كان الأرض سهلا يسهل المشي عليها و لم تكن أرض جبلية ذات حجارة صلدة.

في هذا المنزل حدثت حادثة ، ذهب الأمير عبيد الله خان مع خيله إلى جهة للنزهة في الطريق ثلاثة بدو ، بعد التحية قدموا إليه خبزا و بصلا و جبنة ، و الأمير قبل منهم ذلك مشكورا ، و من عادة العرب إذا لم يستجب أحد لدعوتهم يعتبرون ذلك إهانة لهم ، فقبل منهم شيئا . قال البدو أثناء الطعام "الله لطيف بعباده". فقرأ الأمير "يرزق من يشاء و هو القوي العزيز " فسألوه هل أنت حافظ قال نعم فلما همّ بالرجوع قدموا إليه هدية التمر.

القافلة اضطربت لذهاب الأمير لكنه رجع بعد مدة قصيرة فانتقده السيد حلمي أفندي بأن عليك الحيطة و الحذر لأن التجول هكذا خطر.

توقفت القافلة في بئر سعيد و كان الجند حارسا حلقته كالسابق، و أطلقت المدفعية، و جاء شيخ بئر سعيد و طالب الهدايا و العطايا و المنح مقابل له نقدم إليك في الرجوع.

و قال المولوي أعظم حسين إمامه: "لقد انقضى هذا السفر بالراحة و الأمن و في السنة الماضية نشبت هناك حرب كبيرة و مات سبعة أشخاص من قافلتي".

الإقامة بعين حمراء :

غادرت الأميرة في ٩ من رمضان من بئر سعيد ، و كان الطريق جبليا وعرا ملتويا و مررنا بحديقة التمر المثمرة عند العصر و كان بها بئراً حلوا. و توقفت القافلة عند الغروب في " عين حمراء " و كانت أرضها سهلة محفوفة حولها الجبال . و كانت بها حدائق التمر و مسجد قديم و نهر صغير ، و كان عدد السكان قليلا. و قد أرادت الأميرة أن تقيم هنا ليوم واحد لأن أرضها كانت مخضلة الربا معتدلة الصبا، و لكن حدثت حادثة فغيرت رأيها و أسرعت بالخروج من هذا المكان و الحادثة هي أنهم سمعوا طلقات البندقية في الساعة الثامنة من جهات كثيرة ثم جاءت رسالة شيخ البدو إلى مرافقي الأميرة السيد شريف أحمد بن منصور و السيد أبو جود المدني. ، كان المكتوب يشتمل على ما يأتي :

"إن كنتم من قبيلة كلب علي خان فاعلموا أنهم وعدوا بإعطاء خمسمائة روبية بعد مرورهم من هنا سالمين و لكنهم بعد

رجوعهم لتلقوا الوعد، اعطوا هذا المبلغ و أكدوا الوعد لإعطائـه مستقبلاً، و ان كنتم من قبيلة أخرى فارسلوا مبلغـا مناسبـا و إلاّ فنحن مقيمون في مصر هذيلة و لا نترك قافلتكم تمرّ بدون قتال".

فاستشارت الأميرة بالسيد حلمي أفندي و قررت عدم اعطاء شيء لأن القبائل إذا علموا ذلك فكلهم يطلبون ، و لكن الأكثرية في الركب كانت تريد اعطاء المبلغ المناسب ، و كانوا في خوف و رعب ، ثم قررت الغاء القيام هنـاك و أخذوا الحيطة و الحذر بقدر الإمكان.

القيام ببئر عباس :

في العاشر من رمضان المبارك غادرت القافلة في الساعة السابعة صباحا من " عين حمراء " و تغيرت طريق الحراسة . و اقترب الجنـود من الأميرة و ضربوا حلقة حول القافلة . و كان كل جنـدي مستعـدا و محتاطـا و يده على زناد أسلحته.

و كان المقدمة من الجيش التركي ركب الجبال الوعرة و قرر الجنود ان يشيروا إلى القافلة إذا كانت الطريق خالية من الخطر حتى تتقدم القافلة بعد ذلك و كانت الجبال شاهقة و لكن الجيش التركي كان ماهرا في تسلقها. و كانت القافلة ماشية على هذا المنوال اذ رأى الناس بعض البدو يركبون جبال خيف . ثم بدأوا يمطرون الطلقات من أعالي الجبال. و مرت طلقة من قرب الأمير عبيد الله خان كاد أن يهلكه و لكن الله انقذه من براثن الهلاك. و مرت الطلقات الكثيرة من قرب محمل الأميرة أيضا و لم يتضرر احد بإذن الله. تسلق الجيش التركي على الجبل بسرعة فائقة فهرب البدو و كتبت الأميرة في رحلتها (*) :
" في السنة الماضية ١٩٠٢م وقعت حرب شديدة في نفس المكان بقبيلة حاسدة ، و لذلك كان الحرس التركي حذرا جداً".

و لما زال الخوف و الخطر نزل الأتراك من أعالي الجبل فرحين مستبشرين يغنون الأغاني . و أخلصت الأميرة و عبيد الله خان عن المسئولين الأتراك ان المنطقة ذات خطر قد انتفى و لم يبق داع للخوف. و مدحت الأميرة السيد حلمي أفندي لشكرته و الجنـود و السلطان المعظـم ، فقال إن لنا أوامـر لحراستك و سلامتك و نحن في خدمتك و اعتبري الجنود أولادك و نحن نخدمك هنا كما يخدمك اهلوك في امارتك.

و كانت هنا قرية مهجورة و كان بها عيون الماء كثيرة. و الحر كان على اشده، و الجنود تعبوا و حان وقت الظهر فقررت الاستراحة قليلا هناك. ثم وصلت قافلتها إلى خيف ، و كانت قرية بها المنازل ذات الأدوار المختلفة و كانت سوقا كبيرة للشعير و لكنها لم تسترح هناك.

و وصلت القافلة إلى بئر عباس عند الغروب ، و أقامت بميدان رملي واسع، و كانت هناك قلعة بقرب البئر العميقة و كانت بها ثكنة الجيش التركي و عندها خمسون جنديا. و كانت الأميرة تريد القيام بالقلعة و لكن الجيش أشار إلى القيام بالخارج في الميدان لأن البدو إذا نزلوا و حاصروا القلعة و أغلق الباب فستكون مشكلة و تجنب الأميرة هذا الرأي المناسب فأقامت في الميدان.

و جاء شيخ القبيلة و قال للأمير عبيد الله خان ان شيوخ القبائل و أفرادها اجتمعوا و فيهم أولئك الذين أطلقوا البنادق و هم يريدون الهدايا و العطايا و إلا يحاولون انتهاب القافلة.

فقال الأمير ان الذين أطلقوا النيران و تسببوا في ازعاج الأميرة كيف يستحقون الجوائز و التحف فأجاب ان مطلقي النار حلفوا على تطليق زوجاتهم ان لم يطلقوا. في هذا الاثناء عمل أحمد بن منصور الذي كان مشاركا في جرائمهم قال للأمير عليك بوعدهم ان لم يتعبوا فادفع لهم بأربعة آلاف روبية و على حضرتك ارضاء الأميرة بوفاء وعدك . و لما علمت الأميرة بتفصيل الكلام قررت ان هؤلاء عرب يستحقون القهر و ان أساؤا فتبرعت بالمبلغ المذكور و عينت منصور بن أحمد موزعا لهذا المبلغ ، بعد ذلك تحاربوا في توزيع المبلغ. و غادرت القافلة في صباح ١١/ رمضان من بئر عباس و كانت الطريق آمنة.

استقبالها بالمدينة بالجيش التركي :

علم الأمير عبيد الله خان عن طريق مسئولي الجيش التركي ان بعض مسئولي الجيش و الجنود و المدفعية حضروا لاستقبال سموها. فذهب الأمير و الميجور كريم بك و الكابتن محمد حسين خان للقاء بهم، و قال الأمير ان قافلة الأميرة قد اقتربت من هنا فأرى أن يصطف جنودك للاستقبال ، و كان رأيا مناسبا قبله الجميع .فاصطف الجنود و وضعت المدفعية على مكانها.

في قرية بئر عروة جاء القاضي و المفتي و غيرهم للقاء بها و كانت المراسمة أشد من ذي قبل . و علمت الأميرة بعد أن المكان كان قريبا من الروافتي.

في ٢ من ديسمبر ١٩٠٢م الموافق ١٢ رمضان المبارك جاء شيخ الحرم للقاء بها في الساعة التاسعة صباحا. و الكلام بينها تم من طريق المترجم السيد يسين ، بعد السؤال عن الأحوال قال ان شيخ الحرم فرح بمجيئك . و وصلت البرقيات تباعا من السلطان المعظم انه يهتم بك كثيرا.

فشكرت الأميرة و قال شيخ الشيخ ان شيخ الحرم يطلعك ان السيد شريف قرر اقامتك عند السيد صافي و هو مطلوب عند السلطان ، فلا تقيمي عنده و لو اقمت هناك سوف اعتذر من الحضور عندك.

فأجابت الأميرة انني جئت عليكما و مقصدي زيارة المسجد فأقيم أولا

في بيت رتبه لي السيد شريف ، و ان كان بعيداً من الحرم و كانت مخلفة في الابتدان إليه سوف انتقل إلى بيتك الذي رتبت لي.

استقبال حار بالمدينة :

بعد لقائنا بشيخ الحرم غيّر الركب اثوابه و وضعوا الشالات على الإبل و توجهوا إلي المدينة المنورة و كلهم شوق. و كان الناس يأتون في الطريق لاستقبال القافلة ، و جميع اتراك القافلة اجتمعوا حولها. و الطبول معهم أيضا. و دخلت مراكبهم بالمدينة مختلطة ، و مراسم الاستقبال و الزينة كان عند باب العنبرية في الساعة الحادية عشرة.

و كان خارج الباب حاكم المدينة حسن مظفر بلشا ، و مالك خزائن الحرم الشريف و هما من أهم مستقبليها ، و لمصطف البشرة و قدموا اليهـا سلامـا و اطلقت المدفعية إحدى و عشرين طلقة . و كانت قافلتها تشتمل على الفراد بطول ميل واحد. و ذكر الأمير عبد الله خان ان افراد القافلة ان لم يعلموا ان المدفعية اطلقت لاستقبال الأميرة ربما خافوا و تحاربوا فأرسل من يخبرهم بذلك و لكنه حصل ما كان في حسبانه و أصحاب القافلة و المرافقون استعدوا للقتال لما سمعوا طلقات المدفعية.

و الجيش الذي حضر للاستقبال كان فيه مسئولان كبيران و ستة من المسئولين الصغار و مائة و خمسون جنديا.

اقامتها ببئر درويش :

أقامت القافلة ببئر درويش بعد العشاء ، و في ١٢ من رمضان المبارك سنة ١٣٢١هـ غادرت تحت حراسة مشددة في الصباح الباكر و كانت الطريق امنة و ان كانت تلال كثيرة في الطريق ، و لما وصلت القافلة ببئر علي آثار المدينة المنورة ، و أهلها صعدوا إلى الجبال بشدة الشوق و كان الجو روحيـا و كانوا يرددون الصلاة و السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم و يدل ذلك على حقيقة مشاعرهم و كتبت الأميرة في رحلتها عن ذلك " كنا نشم رائحة زكية في هذا الميدان تعطر اشمامنا و لما تقدمت القافلة ظهرت آثار المدينة المنورة جليا واضحا و أكثر أصحاب الركب ترجلوا احتراما. في الطريل كانت القرى صغيرة و في بعضها مسجد مشيد.

قيامها ببئر عروة :

اقامت القافلة عند بئر عروة في الساعة التاسعة ليلا. و المكان يبعد عن المدينة بميلين ، و الأمير عبد الله خان ذهب إلى المسجد النبوي للسلام في الساعة العاشرة ليلا.

و كان الجيش مع الطبول و المدافع واقفا لاستقبال لها ، و كذالك علماء

المدينة و مشايخها . و أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة سلاماً عليها، و نزلت الأميرة في خيمة نصبت خصيصاً لها و قابلت فيها مشائخ المدينة.

و قالت الأميرة في ردّها لمستقبليها ألفاظ الشكر للحاضرين و خصوصاً السلطان المعظم على اهتمامه بها و تكريمها و ضيافتها، و مدحت الجنود الأتراك لفروسيتهم و صلابتهم و حرصهم على حراستها.

و دخلت بعد ذلك المدينة . و كان على باب المسجد النبوي عثمان باشا و شيخ الحرم و قاضيها و مفتيها وغيرهم من المسئولين الكبار لاستقبالها . و كانت طريقة الحجاب غير مقبولة و هي صلت و سلمت على الرسول صلى الله عليه وسلم من البعيد و نوت أن تزور القبر الشريف في وقت آخر. و وصلت إلى بيت السيد صالح للقيام به، و قد قررت القيام به من قبل

أمنية الدخول بالروضة المقدسة :

تقدم الأمير عبيد الله خان بايماز من الأميرة بطلب دخوله هو و الأميرة إلى الروضة المقدسة إلى شيخ الحرم.

فأخبره شيخ الحرم أن دخول النساء غير ممكن و لكنه تقدر بشرط لباسها العباء و العمامة البيضاء مع القلنسوة التركية (وكان ذلك لباس الدخول بالروضة المطهرة).

في ١٥/من رمضان المبارك دخل الأمير عبيد الله خان و الميرزا كريم بك و الكابتن محمد حسن خان في الروضة النبوية ، و قرأوا الفاتحة أوقدوا الشموع و قدم خدام الروضة إليه الأشياء التي تعتقد فيها البركة. و ماء الورد التي تغسل بها القبر الشريف.

الإقامة ببيت آخر :

كان بيت السيد صالح بعيداً عن الحرم و كان قصدها بالمدينة المنورة حضورها في الحرم الشريف . و هي تعبت لبعد بيتها عن الحرم انتقلت إلى بيت آخر قريب الباب النبوي في ١٦/ رمضان المبارك . و كان هذا البيت أخذ على الأجرة بيد المولوي لمعظم حسين بعد الاستشارة من شيخ الحرم. و استأجر بيت آخر قريباً من مقام القافلة . و كانت أهل شيخ الحرم يحضرن إليها في هذا البيت.

حضورها إلى القبر الشريف :

كان بيت السيد صالح بعيداً عن الحرم الشريف ، و كان الحضور إلى المسجد النبوي صعباً، و لكنها لما انتقلت إلى بيت عند الباب المجيدي طفقت تحضر معظم الأوقات. و قد رتب لها شيخ الحرم الوحدة عندما تحضر بعد العشاء.

و لما حضرت الأميرة إلى الحرم لأول مرة كان لاستقبالها على الباب شيخ الحرم و القاضي و المفتي بها و أعزة أهلها ، و كانت ميرقعة سلمت عليهم و دخلت المسجد ثم توجهت إلى الروضة الشريفة ، و بعد ذلك كانت تحضر كل يوم بعد العشاء ، فلا نجد أحدا حتى النساء.

المآدب من قبل الأهالي و المشائخ :

و كانت وجهت إليها دعوة المآدب في المدينة من قبل أعزة أهلها. أول مأدبة حضرتها كانت من قبل علي زاهد وتري و كانت مأدبة فاخرة قد دعاها منذ ان كانت مقيمة بينبع. و السيد صالح مضيف الأميرة دعاها و أهل قافلتها على مأدبة كبيرة و كذلك شيخ الحرم وغيرهم و كانت المأدبة تعتبر فاخرة إذا قدمت فيها أنواع الطعام الاثنى عشر.

شراء الخيول العربية :

طلب الأمير نصر الله خان ولي عهد الامارة من أمها ان تشتري له خيولا عربية لحكومتها . فقد اشترت سموها اثنى عشر خيلا نجديا من الشيخ عبد العزيز بن رشيد النجدي فلم تكن في مستوى الجودة العالية و لكنها اختارت ستة لابنها الكبير . و اهدت الثلاثة للأمير عبيد الله خان و الباقية كانت من نصيب الأمير حميد الله خان.

طريق الرجوع من المدينة :

كانت الأميرة تنوي الذهاب إلى مكة المكرمة من نفس الطريقة التي أتت بها. و لكنها لما ابتليت في طريق المدينة بالبدو وصلتها الأخبار انهم يثنون الفساد و التخريب فنصحها شيخ الحرم ان تسافر إلى مكة المكرمة عن طريق البحر مع القافلة الشامية . و لا يكون خطر البدو فقبلت مشورته مشكورة و أرمت الذهاب عن طريق البحر مرافقة القافلة الشامية و لما استقر رأيها على ذلك أبرقت إلى القنصل بجدة ان لا يستأجر الباخرة ، و لكنها وصلته بعد ابرام المعاهدة مع الشركة الحباسية المصرية على باخرة يورا و أرسل صورة المعاهدة إلى الأميرة.

أرسلت الأميرة إلى القنصل عن طريق البرقية انه تغير برنامج الرجوع فطلبه بالغاء المعاهدة فورا. و لكن المعاهدة لم تلغ أخيرا وبذلك عاتب القنصل عند ما زارها للاطلاع على أسباب تغير البرنامج.

فأخبرته الأميرة بتفصيل ما حدث في السفر و ما تسمع من الشائعات ، و قالت ان شيخ الحرم و غيره يرون السفر بالبحر مناسبا لأجل انهاء خطرة و ما يدور بين البدو في الحرم المكي.

فأظهر نائب القنصل بختام المطلب الباخرة ، في هذه الحالة تجب الغرامة فقالت الأميرة ان الوقت كاف للإلغاء و التنصل من الغرامة . و كانت مراسلات في هذا الصدد بين الأميرة و القنصل و الشركة العباسية، حتى قررت الشركة باعفاء الغرامة بشرط السفر عن طريق البر.

و بعد الفراغ من هذه المسئلة كتبت الأميرة إلى سعادة القنصل أن يبرق في الحضرة السلطانية أنها وصلت إلى المدينة المنورة بخير في رعاية العساكر السلطانية و استقبلني شيخ الحرم و محافظ باشا استقبالا حافلا ، اشكركم لذلك و لكن لخطر البدو في الطريق أريد الذهاب إلى مكة المكرمة مع القافلة الشامية فاقدم الطلب إلى حضرتكم ان تأمروا أمير الحج أن يوصلني مع القافلة الشامية في الحراسة الحكومية و كتبت الأميرة إلى القنصل أيضا انا كان مناسبا لتخبروا السلطان المعظم عن طلقات البنادق التي صوبت اليّ كي تكون الحراسة على أشدها.

في ١٦ ديسمبر ١٩٠٣م أجاب القنصل البريطاني المستر ديوى الأميرة أن سفير الامبراطور ايدورد السابع لدى القسطنطنية ابرق إلى السلطان المعظم بوصولك بخير إلى المدينة المنورة . و استمرت الأميرة في مراسلتها حتى تلقت من برقية القنصل البريطاني لدى قسطنطنية ، و تخبار من الباب العالي إلى شيخ الحرم ان السلطان المعظم ابرق إلى محافظ الجبل الشريف السيد عبد الرحمن باشا و مسئول القافلة الشامية باصطحاب سمو الأميرة إلى مكة المكرمة في حراسة مشددة.

و جاءتها برقية من القنصل و موضوعها " بعد ورود القافلة الشامية تقدم هذه البرقية إلى السيد عبد الرحمن باشا ان الحراسة المكثفة تكون سببا لرضى السلطان المعظم".

حلول العيد المبارك :

في اثناء هذه القلق و المسائل انتهى شهر رمضان المبارك و حل العيد. صلى القاضي بالناس صلاة العيد في الساعة السابعة و صلاة العيد تصلى في البلاد العربية مبكرا . و لم تحضر الأميرة و النسوة في صلاة العيد للإزدحام و الأميران و الرجال صلوا بالمسجد.

في الساعة السادسة حضر المفتي الحنفي و المفتي الشافعي و شيخ الحرم مرافقين مع المترجم السيد يمين للقائها و مباركتها بالعيد . و قدم المفتي الشافعي قصيدة كالعادة فيها المديح النبوي ، و تذكرة العيد . و بعد اللقاء بها انتقلوا إلى غرفة الرجال و قدمت إليهم الحلاوة و الشاي و القهوة.

و بعد ذلك ذهب الاميران عبيد الله خان و حميد الله خان إلى مقر الحكومة . و كان به شيخ الحرم و حاكمه ، و الجنود الأتراك مصطفون و قدموا السلام فور وصولهما، و تلقوا بالنشيد الوطني ، و هما رجعا إلى بيتهما بعد

هذه المراسم.

و بعد الظهر ذهب الأميران إلى بيت شيخ الحرم و قدمت إليهم الشاي و القهوة و المصبر التركي و جاءت زوجتا شيخ الحرم و الحاكم و بناتهما للقائها في بيتها.

منع التجول القافلة :

أرسل حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا مكتوبا إلى الأميرة : " اخبر سموك ان مراقبي أبواب المدينة حذورا ان لا يخرج أحد من مرافقيك من أي باب من أبوابها لا بقصد الزيارات أو التجول بدون اشعارنا حتى نرسل معه حراس الأمن ، أما اذا لم يسمع أحد تعليماتنا بهذا الصدد و حصل ما قدر الله لا يكون علينا مسئولية ذلك . فأمرت الأميرة ان تنفذ هذا القرار فورا.

جوائز الجنود الأتراك :

قسمت الأميرة بتوسط حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا ألفي روبية على الجنود و الضباط الأتراك.

مسألة المزوِّر :

عينت الأميرة محمد حماد مزوِّرا لأهل بوفال و لكنه جاء شخص آخر حامل رسالة من شريف مكة يطلع فيها له أن يعين مزورا و كان اسمه أبا الجود. قالت الأميرة لأبي الجود إني عينت محمد حماد مزورا و لو أشيد قبله لعينتك . و لكنها خافت من شريف مكة فعينته أيضا على ثلاثين روبية و قالت له كن مزورا لأهالي بوفال الاخرين الذين يأتون للحج

شراء الإبل :

عندما تقرر أن الأميرة سوف تسافر مع القافلة الشامية فكرت سموها في ترتيب السفر و أهمها الإبل ، و علمت انها اذا لم تحصل عليها مسبقا فستكون مشكلة و لا يمكن السفر مع القافلة الشامية، فراسلت حاكم المدينة بهذا الخصوص ، و تكلمت مع شيخ الحرم فأبرق الشيخ إلى الأمير عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية أن يأتي بخمسين جملا يكون قيمته كل منها مائة و خمسين روبية.

القافلة الشامية بالمدينة :

في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٢٩ هـ وصلت القافلة الشامية إلى المدينة المنورة و كانت تأتي بغلاف الكعبة (كان يقال له المحمل الشريف) و كان يوضع في صندوق كبير يحمل على جمل قوي الهيكل ، و جمل آخر مرافق له عليه

الشارة الحكومية و كانت تقال لها البيرق. و هذه القافلة مع مرافقيها و أصحابها الذين انضموا إليها من المدينة وصل الحرم النبوي منه باب السلام في الساعة الحادية عشرة مع السلام الملكي و على أصوات الطبول ، و كان عند الباب مكان مرتفع لتبع الجمل عليه و الصندوق أدخل بالمسجد النبوي و كان الجمع حاشدا و كانوا فرحين مستبشرين ، و بقي المحمل بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة إلى حين بقاء القافلة بها.

تهديد من البدو :

أرسلت الأميرة السيد عبد الرؤف خان نائب مدير سفر الحج إلى عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية للاستفسار عن أجرة الجمال و تموين القافلة وغيرها و لما وصل القاصد إليه رأى أن الميدان مملوء بالبدو الذين تجمعوا من حول المدينة و شيوخهم بداخل الخيمة و ما دار من حديث بينهم و بين السيد عبد الرحمن باشا، كانت خلاصته ما يلي :

" قال شيخ : نكون لحقة كبيرة و أصحابنا مستحقون و مسلحون . فقال السيد عبد الرحمن بدون اعتناء : اللحقة عليكم لا علينا ، فقال شيخ بجرأة غير معقولة و هذه اللحقة لازمة و لا يمكن ان تسافر الهندية معكم . فقال السيد عبد الرحمن ان الهندية لابد أن تذهب و لو على رؤوسكم. أو لا تعلمون انها حيلة السلطان المعظم؟ و أمرت بحراستها و ما أقول أقول من قبل السلطان و لوما أطعتم السلطان تخرب قراكم و تحرق بيوتكم و الجبال التي تأوون إليها تمر مرّ السحاب. ثم قال ماسحا سيفه سأريكم كيف تنفذ أوامر السلطان.

فخفض الشيوخ رؤوسهم باسم السلطان و قالوا مولانا السلطان على الرأس و العين نحن لا نعارض السلطان و لكن نسأل منكم لا تضيعون حقنا و نحن ننفذ حق المرور.

فقال السيد عبد الرحمن أنا أشفع لك عندها في هذا الصدد و انا أعطيك شيئا لا اعتراض على ذلك. و بعد ذلك ذهب الشيوخ و رجع السيد عبد الرؤف خان بعد الاستفسار عن الأمور الضرورية.

من الحرم المدني إلى الحرم المكي :

وجه حاكم المدينة دعوة ملكية واسعة قبل مغادرتها المدينة المنورة . في ٢٧ من ذي القعدة سنة ١٣٢١هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٩٠٤م أحرمت الأميرة و أصحابها و سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم و خرجوا بعد العصر من المدينة المنورة مع القافلة الشامية ، مرحلة من كهريز ثم أقامت ببئر علي ، في يوم ٢٨ من ذي القعدة غادرت القافلة إلى مكة المكرمة. و كانت للخطرات مثل طريق ينبع و المدينة المنورة و لكن بسبب القافلة الشامية و خوفها و نظام السيد عبد الرحمن الصارم لم يتضرر أ و لا بعير واحد.

في المنزل الثالث دعا السيد عبد الرحمن الأمير عبيد الله خان و أخبره ان شريف مكة سجن شيخ بشر معين و قال له ان كان أي صعوبة أو خلل في الأمن في مسيرة أميرة بوفال الثالث. و هذا كلام ظاهري و هو يريد ان يسمع سمعتي فلذلك هذه القرية لابد فاعلون شيئا و اعتقد ان منزل الغد فيه خطر شديد.

و فكر الأمير عبيد الله خان خطة لحفظ الأميرة ثم أخبر بذلك أمير القافلة الشامية فأعجبها هو أيضا. و هو أن نترك جمل الأميرة خاليا و لا يعلم ذلك سوى محافظها و يحرس هذا الجمل كالمعتاد و هي تركب على جمل آخر و يكون آخر القافلة و بعد ذلك تقدمت القافلة إلى مكمن الخطرات و كانت هذه الخطة ناجحة جدا و لم يمر عليها أي خطر و أطلقت على مركبها الرسمي طلقات كثيرة و رمت الجنود الأتراك النيران و كان البدو يطلق من قمة جبل يصعب الصعود عليه.

و أمر قائد الجيش التركي جنوده على صعود الجبل و بدأوا يصعدون عليه بدون وجل و خوف و كان الجبل مستقيما و كان البدو وراء الجبل فلم تؤثر المدفعية إلا بعد حين . و استمرت المعركة قرابة ساعتين و استشهد سليمان آغا من جنود جدة و قتل بعض أفراد البدو أيضا و لكن القافلة كانت في حفظ و أمان.

أما البدو المتحصنون لم يقدروا المقابلة وقتا طويلا فهربوا و في هذا الأثناء وصلت الجنود على قمة الجبل و مضت القافلة بعز و راحة و كان الطريق الباقي مرّ بسكون و عافية.

الدخول بمكة المكرمة :

في ٦ من ذي الحجة الموافق ٢٢ من فبراير ١٩٠٤م دخلت قافلتها بمكة المكرمة.

وجاء حاكم الحجاز أحمد راتب باشا و شريف مكة عون الرفيق باشا مع مجموعة من الجنود الأتراك إلى مقام الشهداء لاستقبال ، و قدم إليها السلام العسكري و جيئت بها مع الاحترام و مظاهر التكريم إلى مقام اقامتها في بيت الأستاذ أحمد لال.

و أرسلت ابنتها الأميرين إلى بيوت حاكم الحجاز و أمير مكة للقاء بهما. في أثناء قيامها بمكة المكرمة السيد شريف و عبد الرحمن باشا حاكم دمشق و أحمد راتب باشا حاكم الحجاز و الشيخ محمد صالح الشيبي و السيد علي باشا و باشا المصري جاؤوا مع زوجاتهم للقاء بها و الأميرة بدورها ذهبت إلى بيت السيد شريف و السيد أحمد راتب باشا.

أداء مناسك الحج :

ذهبت الأميرة إلى الحرم الشريف لطواف القدوم و السعي لأداء مناسك

الحج ، و ذهبت إلى عرفات في الثامن من ذي الحجة و حجت يوم التاسع من ذي الحجه ثم رجعت إلى مكة المكرمة في ١٢ من ذي الحجة بعد تأدية مناسك مزدلفة و منى.

قضية أجرة البيت :

السيد شريف كان غاضبا على الأميرة إلى الآن و لكن لأجل كرم السلطان المعظم و معاملة الأتراك الخاصة لها لم يجد شيئا يبدي عليه غضبه

و لكن لما قررت الأميرة تاريخ الرجوع في ٢٠ ذي الحجه الموافق ٨ من مارس ١٩٠٤م ، طالب السيد شريف سموها عن طريق نائب القنصل ١٥ ألف روبية أجرة البيت التي أقامت فيه بضعة أيام.

و لكن المبلغ الذي اصطحبته قد نفد ، و كانت مع الأميرة رسالة من تاجر ماهي اسمه عبد الغفار وعدها أن وكلاءه يقدمون إليه المبلغ عند الطلب. طالبت المبلغ منهم قالوا لا يمكن اليوم و لكن نحضر بعد يوم أو يومين ، و من جهة أخرى بدأ السيد شريف اصراره على تأدية المبلغ فورا و أخيرا أبرقت القنصل المقيم بجدة و أخبرته عن التفاصيل و قالت أن سفر اليوم تأجل لأجل هذا السبب و ربما لا أقدر على السفر بدون تأدية المبلغ و لذلك يجب أن تبرق حضرتك إلى السيد شريف أن أودي المبلغ عن طريقك و أنا أرسل إليك المبلغ فورا

فقدم موظف البريد هذه البرقية إلى حاكم الحجاز و قال مثل هذه الشكوى عار على السلطنة العثمانية و لم ترسل إلى القنصل البريطاني بجدة. بل أرسل إلى الحاكم معتمدا إليها و طلب المعذرة منها و قال إن السيد شريف يذل نفسه و الآخرين و أنت ضيفة على السلطان لو علم ذلك يغضب و أنا آخذ بهذا لك على الأجرة قرب الحرم و لكن لما وصلت رسالتك إلى السيد شريف أنا سكتت . لا يمكن مطالبة الأجرة منك و لاتؤدي على طلب أحد.

في اليوم الثاني استلمت الأميرة مبلغا من عبد الغفار التاجر طلبت أن تؤدي شيئا عوضا عن قيامها في بيت فأرسلت خمسة عشر ألف روبية إلى الحاكم و كتبت أن ترسل المبلغ إلى السيد شريف كله أو جزئه كما تراه مناسبا. و لكن وجب علي أن أؤدي أجرة الإقامة.

و لكن الحاكم لم يقبل المبلغ و رجعه إليها قائلا إن أخذ أي شيء كأجرة البيت يكون عار للسلطنة العثمانية. (٧)

المغادرة من مكة :

في ٢٢ مـــن ذي الحجـــة الموافق ١٠ مـــن مارس ١٩٠٤م، غادرت الأميـرة و قافلتها من مكة إلى جدة و نظم حاكم الحجاز أحمد راتب باشا نظاما معقولا للرجوع و أرسل علي باشا جمعيته معها و كانت تشتمل ٢٣٦ مسئولا و جنديا.

في " بهيرا " الخلى بيت فأقامت به و تكتب الأميرة في رحلتها. (٨)
" في الرجوع من مكة تعبنا شديدا فلذلك نرى أن راحة هذا البيت ليست أقل من صدر منزل (قصر الأميرة ببوفال).

الدخول بجدة :

في ٢٢ من ذي الحجة الموافق ١١ من مارس دخلت الأميرة بجدة مساء. و كانت باخرة "لكير" مرسوة على الميناء فما أن دخلت بجدة حتى ركبت هي و ابنتها على الباخرة . أما المرافقون و الأمتعة فحملت إلى ١٢ من مارس.
أبرقت الأميرة عن طريق القنصل البريطاني إلى عبد الرحمن باشا و علي باشا و أحمد راتب باشا و الشريف عون الرفيق باشا. و استلمت أجوبة البرقية أيضا

المغادرة من جدة :

في ٢٤ من ذي الحجة الموافق ١٣ مارس يوم الأحد بعد العصر رفعت الباخرة مرساها و غادرت جدة . و كان في التوديع القنصل البريطاني لدى جدة و السيد جي بي ديوي و نائب القنصل بجدة الدكتور محمد حسين
في ١٧ من مارس القت الباخرة مرساها بميناء عدن و لكن بخوف تفشي الكوليرا بالباخرة لم يسمح لأحد بمغادرة. عند الغروب غادرت الباخرة من عدن إلى بومباي و وصلتها في ٧ من محرم سنة ١٣٢٢هـ الموافق ٢٥ مارس ١٩٠٤م.
أخبرت الأميرة الوكيل السياسي ببوفال المستر ليمي و ابنها الكبير نصرالله خان عن طريق البرقية من عدن عن الوقت التقريبي لوصولها إلى بومباي. فهما وصلا مع أصحابهما إلى بومباي
وصلت الباخرة إلى وارى بندر ليلا فلم تسمح لها بدخول الميناء حسب القواعد المعتمد و لكن أهل بوفال ذهبوا إلى الباخرة عن طريق الزوارق و التقوا بها.
في صباح ٢٦ من مارس يوم السبت تقدمت إلى الميناء . و هي و مرافقوها نزلوا على البر بعد سفر البحر الطويل الشاق و استقبل الجمهور ميكوار عند سموها بعد نزولها من الباخرة و كانت فرقة العرس للسلام عليها مع طبولها موجودة على الرصيف فسلمت عليها ثم غضت الدافع.

قيامها ببومباي :

أوقفت الأميرة قرابة أربعين شخصا من مقربيها و أرسلت البقية مع ابنها عبيد الله خان إلى بوفال بقطار خاص.
و أقامت ببومباي في حالة مظفر، في أثناء قيامها هناك زارت المدرسة النسائية ، و المتحف و أمير برودة الذي كان مقيما هنا جاء لمقابلتها. و أقامت هناك أسبوعا.

استقبالها ببوفال :

في ١٦ من محرم ١٣٢٢هـ الموافق ٣ من ابريل ١٩٠٤م غادرت بومباي بقطار خاص إلى بوفال ، في اليوم الثاني اى في ١٤ ابريل وصل القطار إلى بوفال في الساعة الثالثة ظهرا، و كانت المحطة حافلة بأعزة بوفال و أعضاء الحكم بالامارة و أعضـاء المجلس الشـوري ، و الشعب كلـه شوق لاستقبالهـا و الترحيب بها.

الأمير نصر الله خان الذى رجع إلى بوفال قبل قدومها زين المدينة بزينات جعلتها كالعروس.

الأميرة قبلت سلام المستقبلين بصالة الانتظار ، ثم ركبت العربية الأميرية و توجهت إلى "صدر منزل " قصرها مع مرافقيها و قبلت سلام الجنود و شعبيات الشعب من الرجال و النساء و الأطفال الذين اصطفوا في صفين ، فلما مثلت بصدر منزل أطلقت مدفعية القصر و القلعة و تنور القصر بالأنوار.

تبركات الحرمين الشريفين :

التبركات مثل أجزاء من غلاف الكعبـة و غيرهـا جـاءت مع الأميـرة و وصلت إلى بوفال في ٤ من ربيع الأول يوم الجمعة على محطة بوفال فاستقبلت استقبالا حارا، ثم وضعت مع الاحترام اللائق بوشى مسجد (مسجد اللؤلؤ) في رقابة عميد المساجد (و كان المسجد يقع قريبا من قصرها و كان مصنوعا من الحجر الأحمر الجميل) و أطلقت قلعة فتح كر إحدى عشرة طلقة من مدفعيتها، و جاء الرجال بالنهار و النساء بالليل و حرقت البخور و العود، ثم أرسلت هذه التبركات إلى المسجد الأعظى ، و تصدقت الأميـرة على الفقـراء و المساكين ، و وجهت المأدبة إلى الرؤساء و الأعـزة ، و وزعت بين المسلمين و ملوبيها صحونا فيها التمور و السبحـات و مـاء زمزم ، و كتب الأوراد و الدلائل الشامي و الحماء ثم وعظهم.

في اليوم التالي أعلنت العطلة ، و مساجد بوفال على كثرتها نورت حتى تنورت المدينة بأكملها.

تعريب : محمد حسان خان

المراجع :

١ ـ كتاب الوقار الشيال الوزيا سلطان جهان بيكم ص ٤٥
٢ ـ نفس المصدر ص ٤٦
٣ ـ روضة الرياحين ج ٢ ص ٣٨
٤ ـ مرحلة جمع الزفلة سلطان جهان بيكم ص ٣٦
٥ ـ نفس المصدر ص ١٣٢
٦ ـ نفس المصدر ص ١٤٣
٧ ـ نفس المصدر ص ٢٦٨
٨ ـ نفس المصدر ص ٢٧٢

الحلقة الثامنة و الأخيرة:

ندوة العلماء عبر التاريخ

بقلم: آفتاب عالم الندوي
أستاذ دار العلوم ندوة العلماء - لكناؤ

إنجازات هذه الحركة الندوية و آثارها

إصلاح المنهاج الدراسي:

كان بناة ندوة العلماء و قادة فكرتها ينظرون إلى مناهج التعليم و برامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو و التطور خاضعة لحاجة كل عصر و مقتضاه، و لم يكونوا ينظرون إليها كأداة حديدية لا مرونة فيها. و هي حافلة عندهم بالحيوية الكامنة و الازدهار الصاعد، و كانوا يرون أنه لما مست الحاجة في العصر العباسي - حين ازدهرت العلوم و الفنون و الفلسفة اليونانية - إلى إدخال الفلسفة و الحكمة و الهيئة و الرياضيات في المنهج الدراسي الديني، فعلوا ذلك و هم مقتنعون بذلك. كذلك نحن في أمس الحاجة في العصر الحاضر أن ندخل في منهاجنا التعليمي العلوم و الفنون الغربية و اللغات الأوربية، كي يطلع علماؤنا على موجهات العصر و نزعته، فيبرز ابن رشد جديد و ابن حزم جديد و غزالي جديد و رازي جديد و نستطيع أن نهزم الأعداء و نحبط هجماتهم بنفس الأسلحة التي يهاجمون بها و نفس الطريقة التي يسلكونها.

فلقد كان من أهداف ندوة العلماء و مشاريعها التعليمية و الإصلاحية إصلاح النظام التعليمي الإسلامي و تطويره على مبدأ الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع، و تعديل مناهج التعليم تعديلا يتفق و حاجة الإسلام و الدين في العصر الراهن و الظروف المتطورة المتجددة و يكون جديرا بتنشئة كفاءات و مواهب تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العالم المتغير المائج.

و لم تزل جمعية ندوة العلماء تسعى لتحقيق هذا الهدف النبيل بطريقة و أخرى، و تدعو رجال المدارس الدينية و القائمين عليها إلى تطوير المناهج

الدراسية تطويرا يحقق متطلبات العصر و حاجات النشئ الجديد ، و تحقق احتفالاتها الشعبية العامة ، مما كان له الأثر الكبير في إثارة همم المسلمين و إنارة عقولهم و استهواء مختلف الفئات و الطبقات و الشخصيات على اختلاف الوجهات و الاتجاهات و الجمع بين العلماء الدينيين و المثقفين العصريين ، و رجال الدعوة و الدين و رجال الصحافة و الإدارة ، و ذلك نجاح كبير أحرزته جمعية ندوة العلماء" غير أن التعديل اللائق في المناهج الدراسية الذي كانت تنشده ندوة العلماء" لم يتحقق بعد على المستوى المطلوب ، و إن المناهج التي كانت قد تمكنت من قلوب القوم من قرون و أجيال و أخذت بمجامع عقولهم و جرت فيها مجرى الروح و الدم لم تكن لتقبل التطوير عن طواعية و بسهولة و يحل محلها منهج آخر ، و بقي أمر التطوير و التعديل يتأرجح بين التعديل و التأجيل.

تأسيس مدرسة مثالية :

فأخيرا ، بعد تجربة طويلة ، و بعد ما طالبوا حيلا عديدة ، أدرك القائمون على حركة ندوة العلماء أن الغرض من التعديل و التطوير لا يتم إلا إذا أسسوا مدرسة مثالية جامعة ، يجربون فيها منهجهم الدراسي تجربة علمية ، فأسست "دار العلوم التابعة لندوة العلماء" في لكناؤ عاصمة الولاية الشمالية عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م ، و وضعوا أساسها على حد تعبير سماحة الشيخ الندوي :

> *"على مبدأ الجمع بين الدين الخالد الذي لا يتغير ، و بين العلم النامي الذي لا ينحصر ، بين صلابة الصيد في اللباب على العقيدة ، و بين نعومة الحرير في التقبل العلوم النافعة ، فبينما العالم الديني في عقيدته و عبادته جبل ثابت ، إذا هو في علمه و دراسته و تقدمه نهر عذب جار ، و بينما هو في نصوص الدين و عزائمه مرابط على الثغر و حارس للأمانة ، إذا هو في تفهيمه و دعوته جندي مهاجم و مستلم على أحدث طراز ، و بينما هو في الأول لا يعرف المرونة ، إذا هو في الثاني لا يعرف الخمول و الجمود"*

فلما تم تأسيس هذه المدرسة المثالية الجامعة نفذ فيها المنهج الدراسي الذي وضعته ندوة العلماء. و قد كان العلامة شبلي النعماني قام مسبقا بوضع "مشروع دار العلوم" و تحديد مواصفاتها متمثلا في مشروع محكم الطراز ، بارز الملامح ، واضح الأبعاد و القسمات ، بحيث إن نظرة واحدة عليه لتدل على أن "مصائر الهند كأنه قائم في بلد كبير بقسطنطنية". (١)

كما أن الشيخ محمد علي المونكيري قام بتضحيات مخلصة و محاولات مشكورة فقد كتب في التقرير الرسمي عن الاجتماع الأول المنعقد في كانفور

عام ١٨٩٣م ، و قال فيه :

" إن أهم ما تهدف إليه ندوة العلماء تعديل مناهج التعليم و أساليبه تعديلا يمهد الطريق لازدهار العلوم الإسلامية و يصلح النفوس و يقوم الأخلاق." (٢)

و قال في كلمته للاجتماع الثاني المنعقد في لكناؤ عام ١٨٩٥م:

" إن أولادنا يلتحقون بالمعاهد الرسمية باقتضاء الظروف الراهنة - فيرتمون - بطبيعة الحال - في أحضان الإلحاد و اللادينية. فهل إن فتاوى العلماء لتحريم تعلم اللغة الإنجليزية تقدر على أن تمنعهم من ذلك ؟ لا و كلا ، نحن لا نستطيع أن ننقذ جيلنا الجديد من نار جهنم إلا بوضع منهاج جديد للتعليم و التربية (٣).

و كتب بحثا قيما في عام ١٣١٢هـ عن تاريخ المناهج الدراسية و استعرض فيه التطورات التاريخية التي مرت من خلالها هذه المناهج في كل دور ، كتب فيه.

" إن هذه التطورات لاتزال قائمة منذ فجر الإسلام و كان ذلك من مقتضيات العقل فلا مبرر للاستغراب إذا عدلت هذه المناهج تعديلا لائقا تدعو إليه الحاجة." (٤)

و وضع بهذه المناسبة مشروع للمقرر الدراسي كان في الواقع خطوة ثورية جريئة و كان موارد دراسيا ثوريا بالنسبة إلى "الدرس النظامي" المقرر الدراسي آنذاك ، فقد عدم فيه نظام "الدرس النظامي" بأسره في طول الخط ، و روعي فيه في اختيار الكتب بوجه خاص أن تكون هذه الكتب كفيلة بإعداد صلاحيات و مواهب يحتاج إليها الطلبة في العصر الراهن. (٥)

و مما يجب ذكره أن العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسي ندوة العلماء قد رفع صوته عاليا لإصلاح المناهج و توسيعها و تطويرها ، و عالج نقائص "الدروس النظامي" و أبرز أهمية إصلاح المنهج الدراسي و إدخال التعديلات اللائقة فيه، و وضع في ذلك بحوثا و مقالات قيمة في "مجلة الندوة" و صدع به مدويا مجلجلا في أحاديثه وخطاباته ومحاضراته، يقول في إحدى المناسبات:

" إن هذه العلوم اليونانية التي ليست علومنا الدينية و لا يتوقف عليها فهم ديننا و معرفته قد فقدت اليوم تأثيرها و لا خطر على الإسلام اليوم منها ، و قد احتلت مكانتها علوم حديثة و قضايا جديدة و دراسات و أبحاث جديدة ، و قد أصبح

"من الضروري أن يطلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة و العلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولا للمشكلات الحديثة ، و ليردوا على الشبهات ردا علميا مؤسسا على الدراسة و التحقيق." (٦)

و قد واجه في ذلك معارضة شديدة ، حيث عارض هذه الفكرة الجديدة ـ في ذلك الوقت ـ ثلة من العلماء الذين رأوا في هذه الفكرة و هذه الدعوة خروجا على الدين ، و ثورة على التقاليد المألوفة و ما وضعه أسلافنا من مناهج تعليمية و دراسية ، و هذا شأن كل حركة جديدة و دعوة جديدة تريد أن تشق في الكثار و ظهرت نتائجها مبشرة مشجعة . فخفت صوت المعارضة و تضاءلت المضايقة شيئا فشيئا . و ظهرت تعديلات هامة و إصلاحات جذرية لافتة في المدارس الممتدة من حيدر أباد إلى بهوباليبور ، و لاسيما في مدارس الولايات المتحدة و ولاية بيهار و أقسام العلوم الدينية و الشرقية في جامعات حيدرأباد.

و كان العلامة شبلي النعماني قد أثار قضية تعديل المناهج الدراسية ، و لفت إليها أنظار العلماء و الباحثين لأول مرة قبل أن تقوم ندوة العلماء في "مذكرة روما و مصر و سوريا" سنة ١٣٠٩هـ – ١٨٩٢م ، و أفاض بموضوعها حسرة و أعرب عن أسفه الشديد و قلقه البالغ على المناهج الدراسية السائدة في المعاهد الدينية القسطنطينية و مصر بجانب الهند ، و لاسيما على المنهاج السائد في جامع الأزهر ، و تكهن بأن هذا النظام التعليمي لا يستطيع أن ينجب علماء يواجهون تحديات العصر ، و شاء الله أن تجدي هذه الزفرات و الدموع و تترك آثارها البعيدة . فقد ابتدأت ـ تحت تأثير دعوة العلامة شبلي النعماني ـ الحركة الإصلاحية لجامع الأزهر بعد سفر العلامة بعدة أعوام أي عام ١٨٩٩م و كتب العلامة السيد رشيد رضا المصري عنها مقالات و بحوثا ضافية نشرتها جريدته الموقرة "المنار" تباعا . و وقع في "المنار" العدد ٢٠ من جمادى الثانية ١٣١٧هـ لحركته الإصلاحية هذه ثلاث شخصيات فذة بارزة :

الشيخ أحمد جلد روسي، الشيخ شنقيطي المغربي، و الشيخ شبلي النعماني الهندي . (٧)

و قد كان العلامة شبلي النعماني مولعا للغاية بندوة العلماء و بدار العلوم التابعة لها . حيث كان يرى ذلك العامل الوحيد لانتفاضة المسلمين في العصر الراهن ، فساهم مساهمة ملموسة في ترقية دار العلوم ، و تصدر الموكب في بذل الجهود الضخمة في احتفالاتها السنوية التي كانت تقام في مدن الهند المختلفة . حتى فوض إليه الإشراف على الشئون التعليمية لدار العلوم ندوة العلماء ، فأدخل اللغة الإنجليزية في المقررات الدراسية ، رغم المعارضة الشديدة ، و خصص حصة لدراسة اللغتين الهندية و السنسكريتية لكي يطالع طلبتنا شبهات المعاندين بالاتصال في هاتين اللغتين . (٨)

يقول الأستاذ أنور الهندي :

> *"إن ندوة العلماء التي كان العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسيها و رئيسها لفترة طويلة قد استطاعت - كما يرى الأستاذ مسعود عالم الندوي - أن تقضي على القطر الذي يهدد الثقافة الإسلامية حول منهجين: أحدهما تقليدي و الآخر غربي - و أن تدعو إلى منهج معتدل في التعليم و الثقافة يتخذ الشخصية المسلمة على الأخلاق و الآداب الإسلامية المرعية ، و أن تكون جيلا من الشباب متضلعا في علوم الكتاب و السنة و آخذة بنصيب العلوم العصرية و اللغة الإنجليزية حتى يكون أهلا لكفاية الواجب الديني و العلمي على أحسن ما يرجى من الشباب المسلم في هذا العصر." (٩)*

كما أن العلامة شبلي النعماني عني في عهد إشرافه بدراسة اللغة العربية الحديثة و دراسة علم الكلام و العلوم الجديدة مثل الفلسفة الحديثة و علم الطبيعة و الرياضيات و أدخل كتاب *"الدروس الأولية في العلوم الطبيعية"* طبع ببيروت و رسالة فارسية في الهيئة الجديدة طبعت في قسطنطينية أدخلهما في المقررات الدراسية - و استخدم لذلك بعض من كانوا يتقنون اللغة الإنجليزية آنذاك أمثال حميدالدين الفراهي و البروفيسور ميرزا هادي و غيرهم.

و اهتمت ندوة العلماء بتدريس النصوص القرآنية بصورة خاصة و أعارت دراسة القرآن الكريم عنايتها متنا و تفسيرا و إجمالا و تفصيلا ، و الحديث خلقا و تربية فقها و تزكية ، على العكس مما كان سائدا من الضغط و التركيز في تدريس الحديث على المباحث الفقهية و الإسهاب في بيان المذاهب الفقهية و المسائل الفروعية على حساب ما يتحلى به الحديث من فقه و تزكية و تربية و تهذيب . كما أنها حذفت الفلسفة اليونانية التي طغت كثيرا على المناهج الدراسية في الهند و إيران . استنزفت قدرا كبيرا من الذكاء و القوة و الطاقة من غير جدوى و بدون حافز و باعث.

و ركزت ندوة العلماء عنايتها بتعليم اللغة العربية قبل تعليم أوليتها و دراستها كلغة حية ثرية من أغنى لغات العالم و أكثرها حيوية يتكلم بها و يكتب فيها ، حتى خالت في ذلك معاهد الهند و مدارسها باقتدار أبنائها النبغاء على هذه اللغة كتابة و خطابة و تأليفا و تصنيفا حتى شهد لهم أبناء العرب بالإجادة و الإبداع و الابتكار.

الاكتفاء الذاتي في المقرر الدراسي :

كانت نية ندوة العلماء تتجه إلى إعداد منهجها الخاص حسب الحاجات في

البلاد و الظروف المتغيرة . و تغيير المناهج الدراسية في نظام التعليم الحديث فرسمت ـ نظرا للصعوبات في استيراد الكتب المدرسية من الخارج ـ خطة للاكتفاء الذاتي في الكتب المدرسية حسب مقتضيات المنهج الدراسي . فأعد أبناء الندوة مواد دراسية تسد حاجة العصر ، و تلائم الذوق الأدبي المتطور من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العليا . فتقلد الكتب الدراسية التي أعدها الندويون ، في الجامعات و الكليات العصرية التي تشرف عليها الحكومة . بجانب مئات من المدارس الدينية التي شملت التطور في المنهج التعليمي ، و إن هذه الكتب الدراسية جامعة بين العقيدة و العلم و الأدب ، لأنها تضم مواد قراءة نزيهة تحدث في الجيل الناشئ علو الهمة ، و سمو الفكر و المبادئ النبيلة، و الذوق الأدبي النزيه المتطور لعهد الولادة . كما أن أبناء الندوة قد نقلوا الفنون العربية الابتدائية التي كانت تدرس حتى الآن باللغة الفارسية ، فأعدوا سلسلة من المؤلفات في هذه الفنون ، يراعون في ذلك الذهن المتطور للطالب في الهند ، و قوة حفظه و وعيه ، و المسائل و القضايا التي تهم في ضوء الحياة المتطورة المتغيرة ، فقد كانت كتب المتقدمين تكشف مسائل من نحو و صرف و قد تكون الحاجة إليها ضئيلة ، فجاء منهج جديد يسد الحاجة و ييسر عملية الاستحضار و التمرين و الوعي للطلبة . و من هنا قام أبناء ندوة العلماء وضعوا بأنفسهم في الصرف و النحو و الأدب و الإنشاء و التاريخ و الجغرافية و السيرة و الكلام و الحديث و الفقه و غيرها تأليفات قيمة تزدان بمراعاة المتطلبات الجديدة بجانب ملاحظة أذواق الطلبة و مستوياتهم، و لايزال أغلبها داخلا في المنهاج الدراسي الجاري في دارالعلوم ندوة العلماء و غيرها من المدارس الإسلامية في الهند و خارجها ، إما دراسة أو مطالعة.

تقلب الزمان :

ظلت ندوة العلماء مشمرة عن ساق جدها مستقطبة لجهودها و كفاءاتها و مواهبها على تحقيق هدفها المنشود . و ظل الزمان يشهد جولات و قفزات واسعة و طفرات و تطورات هائلة إلى أن أصبح العلماء الذين عارضوا في البداية دعوة ندوة العلماء إلى إصلاح المنهاج و إدخال التعديل في المقرر الدراسي العربي و اعتبروا العدول عن القديم و نظم التعليم و الانحراف عنها قيد شعرة ضربا من التحريف و نوعا من البدع . أصبحوا يخضعون لفكرة ندوة العلماء و دعوتها لإصلاح المنهاج و تطويره بل و يتجاوبون معها و يتحمسون لها . فإليكم ما تم عليه الاتفاق في اجتماع "جمعية العلماء" المنعقد في ٢-٣-٤/ربيع الثاني عام ١٣٦١هـ من القرار بتائيد معهد دارالعلوم ديوبند :

"يشعر هذا الاجتماع لجمعية العلماء بالحاجة الملحة إلى إدخال الإصلاح و التعديل في المنهاج الدراسي السائد في المدارس

العربية الإسلامية وفق متطلبات العصر الراهن . و يأمل من الهيئات التعليمية و القائمين على المدارس العربية أن يلتجئوا . بالتشاور و التعاون و تأليف لجنة ما . وضع مقرر دراسي في العلوم كفيلا بتنشئة النبوغ و البراعة في المتطلبات الراهنة مع الإجادة و الإتقان في العلوم الدينية . و على جمعية العلماء أن تتشاور في ذلك أصحاب العلم و الفضل و تتخذ بأسرع وقت ممكن خطوة عملية مؤثرة." (٦٠)

انظروا . إن الشيء الذي كان موضع النقد و الاعتراض و عرضة التنديد و الاستنكار في حين من الأحيان إنما أمكن له أن يكون مثار الإعجاب و التقدير و مبعث الاستحسان و الترحيب بعد مرور هذه المدة الطويلة.

منهج دراسي متطور:

و حيث أن ندوة العلماء تتسع حسب مبدئها الأوضاع الحديثة و الظروف و الملابسات المتغيرة ، و تؤمن بالتطور في العلم و الأدب و النمو في الطريقة و السليقة العلمية و تدين . بتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية . "لفكرة الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع" و "بين التصلب في الأصول و الثابت، و التوسع و المرونة في الفروع و الآلات" فإنها لا تعتبر أي منهج دراسي منهجها دائما غير قابل للتغيير، فيمر نظام التعليم فيها بالتغيير و التعديل حينا لآخر.

هذا . و يحرص المعنيون بشئون التعليم على تفضيل الكتب العصرية الحديثة و يقومون بمتابعة نهضة التأليف و النشر في العالم العربي الإسلامي لتوفير أحدث المطبوعات لدار العلوم . و تزويد الطلبة بأوسع المصادر العلمية و المآخذ القيمة لتوسيع آفاق فكرهم و تطوير مناحي عقليتهم و تنويع ميولهم العلمية و تنشئة ثقافتهم الخاصة و تيسير ركب العلم مع التشبث بعروة الدين، و إقبال كل منفذ لمركب النقص الذي يعني به خريجو المدارس الدينية في عامة الأحوال.

و من المشاهد أن أبناء ندوة العلماء لا يشعرون . بفضل الدراسة العميقة الواسعة و الثقافة العالية و الخبرات الدقيقة . بالغربة و الاختناق في أي مجتمع رغم ما يتمسكون بالتعاليم الدينية و يعتزون بثقافتهم الخاصة و هويتهم العلمية و الدينية.

على كل كان القدر الذي حققته ندوة العلماء في مجال التعليم و الثقافة و التوجيه الفكري و تعديل المناهج الدراسية و تطويرها و تكييفها مع متطلبات العصر الراهن و مقتضيات الحياة مع الاحتفاظ بطبيعة الدين و روح الإسلام رغم قلة العناية و قصر التسهيلات و الإمكانات و كثرة الأكدار و الأخطار يكفي كدليل ساطع على بعد النظر و ثقوب الفكر اللذين كانا يتمتع

بهما مؤسسو ندوة العلماء و مفكرو فكرتها ، و إن لم يتم الجمع بين القديم و الحديث ، و بين العقل و النقل و استقلالهما على المستوى العالي الذي نشدته ندوة العلماء و القائمون عليها ، فإن الذي قد تم في هذا الإطار المحدود يبرهن على عمق الفكرة و ابتكارها و أصالتها و صدق الهدف و نبله و نزاهته ، و النموذج العملي الذي قدمه أبناء ندوة العلماء يمثل الطريق الواضح و يمهد السبيل لمن يريد أن يخطو خطوهم و يتبع منهجهم و يسلك مسلكهم ، فأحسن به من منهج و أنعم.

الإنتاج العلمي لأبناء ندوة العلماء:

شعر رواد حركة ندوة العلماء و تلامذتهم بأن إعداد منهج تعليمي مهما كان شاملا و سديدا لا يستطيع أن يساعد في سائر مراحل الحياة فلابد من إعداد مواد للقراء تغطي جميع مراحل الحياة و طوائف الناس.

ثم إن حملة التشكيك التي نفذها الغربيون على التاريخ الإسلامي و إثارة شكوك في سيرة السلف الصالح و معاملة ملوك المسلمين و قادتهم كانت تهدد الجيل الناشئ بالخطر المحدق ، كما نوجد أن المتعلمين في الجامعات الذين يعتمدون على مؤلفات الكتاب الغربيين و تلامذتهم يقعون فريسة مثل هذه الشكوك الركيكة و عدم الثقة بتاريخهم و حياة سلفهم من رجال الفكر و الإصلاح و القيادة السياسية و الإدارية. و أكثر من يقع عرضة لهذه الحملة المغرضة المتعلمون و المثقفون ، فيُصبح لهم ما يكتبه الكتاب و الباحثون الغربيون بمثابة مصادر و مآخذ علمية لا تقبل جدلا و لا نقاشا.

تفطن بناة الندوة و القائمون عليها لهذا الخطر المحدق و الشر المستطير، فوجهوا عنايتهم ، إلى هذا القطاع بدون صرف النظر من حركة إصلاح المناهج الدراسية و النظام التعليمي ، و قاموا ، بجانب حركة إصلاح المنهج التعليمي التي رفعوا لواءه في قوة و صرامة كما سبق بيانه ، قاموا بحركة إعداد مكتبة قيمة لتغذية الفكر الإسلامي و دعمه و للتصدي للغزو الفكري و حملة المستشرقين و تضليلهم ، و دعم رأس المال العلمي للمثقفين و المتعلمين من المسلمين ، و نقل الثروة العلمية الفكرية إلى اللغات الهندية و لاسيما إلى اللغة الأردية.

و بذلك أسس علم الكلام الجديد الذي اشتدت إليه حاجة المجتمع الإسلامي المبهور بالعلم و المفتون بالغرب و المسحور ببريق الحضارة المستاهية الهيولانية ، و صدرت من أقلام بناة ندوة العلماء و أبنائها مؤلفات يندر نظيرها في المكتبة الإسلامية العامرة المعاصرة ، فتكونت مكتبة حافلة مستقلة تمثل الفكر الإسلامي السليم ، و تجمع بين آثار السلف و روائع الخلف و تمثل المنهاج النبوي في إصلاح المجتمع و تزكية النفوس و بعث الإيمان و إثارة الفكر و الشعور ، فجاءت هذه المكتبة خير زاد زود به النشء الجديد في هذا الزمان ،

و من غيرها يوثق به و يعتمد عليه في فهم الكتاب و السنة ، و التذوق بهما ، و في البعد عن الانحراف و الزيغ و التأويل ، و فهم النظام الإسلامي و الاطلاع على مزاياه و خطوطه الفاصلة.

و أول بطل من صف الإسلام في هذه البلاد - كما قال العلامة السيد سليمان الندوي - كان العلامة شبلي النعماني الذي قام بمحض أباطيل المستشرقين المشتملة على طريقتهم و في أسلوب أنفسهم. و إن الدور الطليعي الذي لعبته مؤلفات العلامة شبلي النعماني و مقالاته التي صدرت في ذلك الوقت و أصابت هدفها ، لم تكن لتقل - في إنجازاتها و مآثرها - عن الجيش الظافر المنصور ، إنها قضت على تلك السموم التي دأب الكتاب الغربيون على دسها في الأذهان الفجة و التي أخذت تفعل فعلها في العقول الناقصة.

لما أصدر الأستاذ جرجي زيدان كتابه المشهور "تاريخ التمدن الإسلامي" من مصر في أوائل القرن العشرين كان له دوي في الأوساط العلمية . و قد كان في الكتاب تجنٍّ على الخلفاء الأمويين و العباسيين و تحريف لبعض الحقائق التاريخية و إعادة أسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية التراثية . ثارت في العلامة النعماني الحمية الإسلامية و تصدى لهذه الحملة الدقيقة بعيدة الأثر ، و ألف كتابه الشهير "الانتقاد على التمدن الإسلامي" في نقد الكتاب و الكشف عن دسائسه.

و كان لكتبه و مقالاته في "الجزية في الإسلام" و "حقوق الذميين" اللذين يبحثان في حقيقة الجزية الإسلامية و حقوق الذميين و واجباتهم في الإسلام ، كتابيه القيمين "مكتبة الإسكندرية" و "نظرة على أورنك زيب عالمكير" اللذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة و العامة ، و يكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة ، دوي و صدى في الأوساط العلمية ، و في الطبقة المثقفة الجامعية ، و كان لها فضل كبير في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد و المقررات الدينية ، و بالحضارة و الثقافة الإسلامية ، و بتاريخهم الزاهر ، و بلغتهم و آدابهم . و في إحياء الاعتداد بالنفس و الثقة بالذات ، و مكافحة "مركب النقص" الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في ١٨٥٧م ، و أحدثته الثقافة الغربية و الغزو الفكري الأوروبي.

و كان من فضل العلامة شبلي النعماني و مآثره الجليلة أنه عرض سير المسلمين بلون علمي جديد لم يكن مألوفا قبله ، فألف كتابا في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه باسم "الفاروق" يعد من أقوى ما كتب كتابا في هذا الموضوع ، و إنه غرس في قلوب كثير من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حب الإسلام و بذور الإيمان ، و أصبح حافزا لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية الفكرية و الحضارية ، و عرض نموذجا عصريا راقيا في تأليف سير الرجال و العظماء ، و قد يعتبر الكتاب من الآثار الأدبية

الخالدة و مثالا للإنشاء البليغ القوي . كما ألف كتابا يعرّف بالإمام الغزالي و أعمالــه و فلسفته و دفاعه عن الإسلام و مكانته العلمية و العقلية . و كتابا يعرّف بالشيخ جلال الدين الرومي و فلسفته و دوره الرائع الذي لعبه في تاريخ الفكري الإسلامي و الإصلاح الديني.

و رغم في كفاحه العلمي و لم يكتف بمشاهاته بل خطى خطوات جديدة في مجالات جديدة و اكتشف آفاقا حديثة و أبعاد طريقة لنشر العلوم الإسلامية و سدّ متطلبات العصر . يقول فيه سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي.

> *" لقد فاق العلامة السيد سليمان الندوي أساتذه أحيانا في سعة الدراسة و الاطلاع على المصادر الحديثــة الفقهيــة ، و الالتزام ما عليه الجمهور من أهل السنة مــن المسلك فــي المسائــل الكلامية و الكلامية ، و لكل درجات."* [11]

من مآثره العلمية الخالدة أنه أكمل السيرة النبوية الشريفة التي كان بدأ تأليفها أستاذه العلامة شبلي النعماني على نمط الذي رسمه أستاذه ، فحقق حلمه ، و خلد مأثرة علمية كانت عصارة مئات الكتب على الموضوع . عالج فيها مواضيع كانت مثار الشكوك لدى المستشرقين و مناقضة تضليلهم ، و كتابه *"الرسالة المحمّدية"* من أقوى ما كتب في السيرة النبوية و الرسالة المحمّديــة ، و أكثره تركيزا فاغزره مادة ، و أشده تأثيرا . و كذلك كتابه "سيرة عائشة" من أحسن ما كتب في هذا الموضــوع . و في سيــرة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها

و قد وصفه الدكتور محمّد إقبال بأنــه مفجر عيــون العلوم الإسلاميــة و مجريها من جبال جرداء في أرض صلبة في عصره ، و الذي يستحق أن يلقب "بفرهاد" (12) بالنسبة إلى خدماته العلمية الأصيلة.

و من أبناء الندوة النبلاء الذين مثلوا حركة ندوة العلماء و فكرتها لتأسيس علم الكلام الجديد الأستاذ عبدالباري الندوي أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقا ، فقد درس الفلسفة القديمة و الحديثة دراسة عميقة ، و سخرها لإثبات العقيدة ، و إبطال الإلحاد الذي يعتبره معظم العلماء المتصرفين نتيجة حتمية للعلم و الفلسفة ، و تهم كتبه في هذا الصدد *"الدين و العلوم العقلية"* و *"الدين و العلوم الطبيعية"* ، و هذان الكتابان عصارة دراسة طويلة عميقة ، لاسيما كتابه الفريد *"الدين و العلوم العقلية"* فانه يمتاز بإقناع الأذهان الجيدة ، و يمدّها على الطمأنينة و الراحة و حتى يومنا هذا ، و قد حلت العلوم الطبيعيــة محل الفلسفــة ، لاتــزال له نضــارة و طراوة و أهمية.

و قد التفتَ حول العلامــة الســيد سليمان الندوي ، روح دار المصنفين

و تعليمها ـ علاوة على الأساتذة عبدالباري الندوي المذكور آنفا طائفة طيبة من الكتاب الإسلاميين و المؤرخين الباحثين من متخرجي دارالعلوم ندوة العلماء . نكتفي هنا في هذه العجالة بذكر الكاتب الشهير البحاثة الشيخ عبدالسلام الندوي (١٣) صاحب كتاب "أسوة صحابة" الذي تلقي بالقبول في الأوساط الدينية العلمية ، و الأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوي ، و الكاتب الأديب الناشر المؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوي و الأستاذ الباحث السيد رياسة علي الندوي ، و الأستاذ السيد نجيب أشرف الندوي و الشيخ عبدالسلام القدوائي الندوي ، و الأستاذ مجيب الله الندوي . إن هذه الطائفة الندوية المختارة قد عملت في مجال علم الكلام الجديد في قليل أو كثير ، و قد ألقينا الضوء في الفصول السالفة على بعض مؤلفاتهم القيمة التي تندرج في علم الكلام الجديد.

و لا يخفى على متتبعي التاريخ أن أبناء الندوة العلماء لم يقاوموا فحسب كل تيار فكري و اتجاه منحرف بل صمدوا كالجبال الراسيات في وجه كل حركة هدامة تقضي على الفكر الإسلامي و حاربوها بما كانوا يمتلكونه من مواهب و كفاءات القلم و اللسان . فخلفوا آثارا تبقى على مدى الزمان في تاريخ الكفاح الإسلامي ، و زودوا المكتبة الإسلامية بثروة غنية ، و لعبت ندوة العلماء دورا بارزا في مقاومة إجهاض التضامن الإسلامي إثر الحرب العالمية الأخيرة و فتنة القاديانية و المسيحية ، و إنكار الحديث ، و التشاجر و التناحر بين رجال المذاهب الفقهية و الكلامية ، و انتشار البدع و الأوهام ، و أخيرا قضية تعديل قانون الأحوال الشخصية الإسلامية و إحلال الأحوال الشخصية الموحدة محلها و فرض الحظر على نشر القرآن الكريم ، و غير ذلك من القضايا ذات الحيوية و الخطورة البالغة ، فكانت كل قضية من هذه القضايا تنال عنايتها الموفورة و اهتمامها البالغ من علماء ندوة العلماء و أبنائها و بناتها.

و أخيرا ـ لا آخرا ـ فإن ندوة العلماء، أدت دورها الرائع في مكافحة القومية و الاشتراكية و الاستخفاف بالدين التي اكتسحت موجاتها العالم العربي ، و ذلك في وقت احتبست فيه الأنفاس و انكسرت الأقلام و اختلط الحابل بالنابل و الحق بالباطل و شق على الزمن الاحتفاظ بشمائر دينه و الاعتزاز بهويته ، و إنها شجعت على الجادة حين زلت الأقدام ، حافظت على حرمة الحق و الضمير حين خذلها فراعنة مصر على قارعة الطريق ، و ظلت داعية لمبادئها و فكرتها و متحمسة لها حين كتفت الأيدي و خفتت الأصوات إثر حملات شنيعة موجهة للإعدام و النفي و العنف و الاضطهاد و الكبت و التعذيب ، لم يرد عنها من ثانية واجبها بقوة و دقة و أمانة تهديد أو إغراء ، و وجدت حملة الندويين صدى في الأوساط العلمية و الثقافية و تلوتا إليها رغم كل محاولة لاسكات صوتها بفرض الضغط السياسي و تضييق نطاق

المنشورات التي كانت تصدع بالحق و تتصدى لمكافحة التيارات و الاتجاهات المنحرفة.

و قد كانت منشورات ندوة العلماء و رسائلها في ذلك الوقت بلسما للجروح ، و غذاء للروح و زادا للإيمان ، و كان من أقوى هذه الرسائل رسالة بعنوان "المستشفق لومه للقاهرة" و "اسمعوها مني صريحة أيها العرب" لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي . كما كان لكتبه "إلى الإسلام من جديد" و "الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" و "ردة و لا أبابكر لها" فضل كبير في إجلاء الحقيقة و فضح المؤامرة و الدسائس . و أسهمت مجلة "البعث الإسلامي" و جريدة "الرائد" الصادرتان من ندوة العلماء إسهاما كبيرا في بث هذه الأفكار و إجهاض هذه الحركة المضللة المنحرفة ، و دعم الحركات الإسلامية الملتزمة.

و إن ما قام به "المجمع الإسلامي العلمي" في ندوة العلماء بلكناؤ في العصر الأخير من خدمات فكرية و انتاجات علمية و أدبية ، على النطاق الواسع الكبير ، في شتى اللغات من العربية و الإنجليزية و الأردية و الهندية له فضل كبير في تغذية الفكر الإسلامي ، و إعادة الثقة في الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام لقيادة الركب البشري ، و حل المشكلات العصرية و العقد النفسية . و لاسيما كتاب سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" يأتي هذا الكتاب في طليعة قائمة الآداب الإسلامية . و يعالج الفكر الاسلامي الأصيل باستعراض التاريخ بوجهة نظرة جديدة مبتكرة و يحاول بنجاح استخدام طريقة العرض الجديد العاقل مع مراعاة تغذية القلب و العاطفة ، و إشعال مجامر الإيمان الشميمة التي تعتبر من مزايا علم الكلام - الذي حمل لواءه المؤلف الباحث - و الذي يمتاز به فكر ندوة العلماء ، و منهجه الجامع الشامل.

من هنا فقد أشاد الأعلام الكتاب و العلماء الباحثون بقيمة الكتاب و مكانته و أهميته الفائقة ، و تكررت طبعاته من كل من القاهرة و بيروت و دمشق و الكويت ، و صدرت له عدة طبعات غير رسمية كذلك ، و تم نقله إلى اللغات العالمية ، و أدرجته أوساط "الإخوان المسلمون" في برامجها التربوية.

و من بين الكتب الهامة الأخرى التي نشرها هذا المجمع العلمي العظيم و نشرت كذلك في كل من بيروت و دمشق و القاهرة و استانبول و الكويت "القادياني و القاديانية" فقد أحدث هذا الكتاب اضطرابا و قلقا شديدا في أوساط القاديانية و القاديانيين، فإن الكتاب يعالج قضية القاديانية و فتنتها العارمة التي شغلت الأوساط الإسلامية و الباحثين الإسلاميين كثيرا ، يعالجها بدراسة علمية رزينة و بحث أمين نزيه تجرد فيه من التطرف و الانحياز ، و اجتنب من طريقة المناظرة و الوعظ . أشادت الجريدة القاديانية الشهيرة "الفضل" الصادرة من لاهور بأهميته و قيمته . و اعترفت بأنه لم يصدر أي

بحث في رد القاديانية مثل هذا البحث الذي يقام له الوزن الكبير (١٤) و قد طبعت طبعات هذا الكتاب الإنجليزية في باكستان نفسها و في إفريقيا و أوربا نورا طلبها بارزا.

و من الكتب الهامة التي تدخل في نطاق علم الكلام الإسلامي الجديد من تأليفات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتاب *"النبي الخاتم"* تم تأليفه بعد أن صدر الحكم الحاسم بكون القاديانية أقلية غير مسلمة . و هو دراسة علمية عميقة حاول فيها (المؤلف القد). على هذه القضية الحساسة فكريا و عقليا كما قضى عليها إلى الأبد مما أصدرت الدولة الباكستانية حكمها سياسيا و رسميا . و من مزايا الكتاب . و هي كثيرة . أن كل قارئ سماير يتفاعل مع الكتاب في فكرته و مفاهيمه ، فان الكتاب يعالج عقيدة ختم النبوة مؤثلة بحجج و براهين عقلية و منطقية و كحاجة إنسانية ملحة . مما زاد القضية بلورة و وضوحا هو مقارنتها مع الأديان الأخرى و الدراسة الأمينة النزيهة

و لابد من ذكر كتب الأستاذ شهاب الدين الندوي الذي أنشأ مجمعا إسلاميا علميا باسم *"أكاديمية فرقانية"* إن جميع ما دبجه قلم المؤلف يضفي النضرة و الطراوة على دوحة علم الكلام الخضراء التي سقاها العلامة الكبير شبلي النعماني و تلميذه النجيب العلامة السيد سليمان الندوي بدمائهما . فمثلا كتابه *"تسخير القمر كما يراه القرآن"* أثبت فيه بدلائل قوية أن تسخير القمر بل الكون كله ليس بمستحيل و لا بشيء يثير الدهشة و الاستغراب . و للأستاذ كتب أخرى في أمثال هذه المباحث الحديثة مثل *"الإسلام و العلم الحديث"* و *"أسرار النبوة"* و *"القرآن و العلوم النباتية"* و *"العصر و القيامة"* و *"تخليق آدم"* و كلها تبرهن على أن الإسلام يشجع العلم و التكنالوجيا و تحث على الانتفاع مما يقدمه لنا العلم من اكتشافات حديثة و مخترعات جديدة و استخدامه فيما هو أصلح و أنفع . و تؤكد بأن محاولة التوفيق بين الدين و العلوم العقلية شيء لا حاجة إليه . فان التوفيق بين الشيئين يحتاج إلى سابق اصطدام و تعارض بينهما . و ليس شيء من تلك ههنا ، فان أحدهما يسير في طريق لا عهد به للآخر . فأنى الاصطدام ؟ و من أين التعارض ؟ و ما معنى التناقض يا ترى ؟ و بذلك تندفع كثير من التهم و الشبهات التي تثار حول جدارة الإسلام و صلاحيته لقيادة الركب البشري في العصر الراهن عصر العلم و التقنية و ينكشف زيف النظريات و الاتجاهات التي ترمي الإسلام بتهمة "الأصولية" و التزمّت و الرجعية.

و من الجدير بالذكر أن الانتاج العلمي القيم الذي حققته ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد ، قد تم نقله إلى لغات أخرى ، فزاد تأثيره و اتسع نطاقه و مجاله . و سد فراغا كبيرا في المجتمع الإسلامي . و تميز . إلى حد كبير .

جامعة الجاليات الإسلامية في الغرب.

هذا باستعراض خاطف لعلم الكلام الجديد ، الذي وضعت ندوة العلماء نواتها الأولى ، و خدمت عن طريقة الإسلام و المسلمين ، و مثلت دورها الرائع في مجالات الثقافة و التوجيه الفكري و الدور الطليعي في مكافحة حملات التضليل الفكري الموسعة ، و التيارات الضالة التي اكتسحت موجاتها العارمة العالم الإسلامي و العالم العربي حينا بعد حين ، و الكشف عن زيف الاتجاهات المنحرفة ، و المؤامرات المناوئة و الدسائس الخطيرة التي تمثلت في الحركات الهدامة و المنظمات المتطرفة ، و في ضوء هذه الانتصارات الباهرة و الروائع المدهشة التي حققتها ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد فحسب ، يستطيع المتتبع للأحداث أن يتحقق فراسة شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال و ثقوب نظره و عبقريته و مصابيته ، حيث إنه قال قبل أكثر من خمسين سنة:

> " *إني لا أزال أعتقد منذ مدة أن المسلمين في الهند الذين لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة إلى الدول الإسلامية الأخرى من الناحية السياسية ، يستطيعون أن يقدموا مساعدة كبيرة من الناحية العقلية و الفكرية و ليس من الغريب أن تكون ندوة العلماء أنفع و أجدى من جامعة "عليجره" الإسلامية في ميدان الأجيال القادمة للهند الإسلامية في هذه الناحية.*" (١٥)

أبناء ندوة العلماء في مختلف مجالات الحياة :

إن دار العلوم ندوة العلماء مدرسة فكرية تربوية نموذجية امتازت من غيرها من المدارس العلمية و الإسلامية في هذه البلاد على اختلاف أنواعها و أعصارها ، و خدماتها و إنجازاتها بالحكمة و التسامح ، و التوسط و الاقتصاد ، و الشمول و الجامعية فقد جمعت في مجال التفكير و العمل بين القديم الصالح و الجديد النافع ، و بين المحافظة على الأسس و المبادئ و المثل و القيم و التجاوب مع المتطلبات الإنسانية الواقعية المعاصرة و تلبية نداء المقتضيات الراهنة ، فكأنها قامت في تعبير أوجز و أفصح بين الجامعة المصرية و الأزهر الشريف ، أو بين معهد ديوبند الإسلامي الكبير و جامعة عليجره الإسلامية الوالية.

و انطلاقا من هذه الفكرة المتزنة الجامعة دأبت ندوة العلماء على أن تنظر إلى الأوضاع و الظروف بنظر حكمة و تطبيق ، و حرصت على أمانة الوصل بين جيل و جيل ، أمانة نقل التراث من السلف إلى الخلف بزيادة و غربلة و تهذيب ، و حاولت أن تعمل بسياسة التسامح و التضامن في الخلافات الفقهية و المذهبية ، و الاختلافات الهامشية الفروعية و أن تكون همزة وصل بين طبقتين متناحرتين متشاحرتين ، طبقة العلماء و الشيوخ ، و طبقة المثقفين

المصريين ، و مستقطبين جهودها على تأدية أمانة الوفاء بالدين الكامل الشامل و المسايرة للحياة ، أمانة القيادة الفكرية لمواجهة تحدي الغرب بدلا من الفرار منه و الإنزواء عنه ، أو الانحراف معه و الذوبان فيه.

و هكذا فقد تكللت مساعيها بالظفر و النجاح ، حيث أنجبت عددا كبيرا من العلماء الراسخين الواعين الذين أدركوا خطورة الفلسفات الهدامة الوافدة من الغرب و تصدوا لدحضها و الرد عليها ردا علميا جادا ، و أنجبت نخبة من نوابغ التاريخ الإسلامي المعاصر عنوا بعرض التاريخ الصحيح ، و دحض الشبهات ، و نفي الافتراءات و سد منافذ الشبهات و الاعتراضات ، و اعترفت بهم هذه البلاد ، و شهد بإمامتهم الفكرية و رسوخهم العلمي و الأدبي علماء الشرق و الغرب و العرب و العجم.

و قد اعترف بذلك فضيلة الشيخ الإمام الأكبر عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا ، في مستهل كلمته الضافية التي تقدم بها إلى ندوة العلماء ، بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين .

" و لقد وفق الله الندوة ، منذ أن تأسست في منهجها ، و وفقها في جهادها و وفقها إلى النتائج التي وصلت إليها ...

لقد كان من ثمار الندوة كثير من الأفذاذ في كل مجال. لقد تخرج كبار المحدثين و كبار الفقهاء و كبار المفسرين ، و تخرجت في جميع مجالات العلوم الإسلامية ، و كان من ثمارها ، الكثير من المدارس التي تربي أجيالاً على شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله." (٦١)

و يقول فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد المجذوب ـ رحمه الله ـ و هو يلقي الضوء على رسالة المهرجان التعليمي الذي عقدته ندوة العلماء بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين عام ١٣٩٥هـ

" إن ندوة العلماء دخلت بهذا المهرجان العظيم التاريخ العلمي و الفكري من أوسع أبوابه ، فالذين لم يكونوا يعرفونها حاوروا يفهموها حق الفهم ، و يعجبون بانتاجها الفني الخصب في مجالات التربية و الدعوة و الفكر غاية الإعجاب ، ...

و الذين كانوا يظنون أن الهند بلاد الغابات أو الأفيال ، أو بلاد الشعوذة و السحر ، أو بلاد التصوف العقيم ، أو مزدحمة قليلة من علماء الذين لا يعرفون الدنيا و لا يعرفون الدين ، رجعوا مأخوذين بعبقريتهم في سائر المجالات من العلوم الدينية المتداولة إلى مختلف الآداب و اللغات. حب ذلك في القديم ـــ أما في الحديث فلقد رأوا صورة حية مشرقة نابضة بالحياة

و الازدهار و صورة ناطقة زاهية من منهج الفكر الإسلامي السليم الذي سارت عليه ندوة العلماء ، و أطلعوا على تطارحها إلى سائر العلوم و النواحي الاجتماعية مطروحة في مطارحها و لوحاتها و في كتابات ثوليائها و نبغائها ، منجلية إلى حد كبير في طراز حياتهم و سلوكهم و ثوقفهم" (١٧)

و يشهد التاريخ أن الندويين قد خاضوا أنواع الميادين و الكتابة و التصنيف و التأليف ، إلى منصة التعليم و التدريس ، إلى حلقة التزكية و التربية إلى ميادين الصحافة و الإدارة إلى زوايا الفكر و الرياضة ، إلى ساحة السياسة المعوجة الشائكة إلى طرق الاقتصاد الوعرة ، إلى معترك المقاومة الفكرية للغزو الحضاري الغربي ، إلى جبهة مكافحة حملات التشكيك و التضليل و التشويه ، إلى حقول الأدب و التاريخ و العلم و الدين ، لم يتركوا أي مجال من هذه المجالات إلا و عملوا فيه و مثلوا أدوارهم الرائعة ، و لم يتركوا أي واد من هذه الأودية إلا و وطئوها و ذللوا صعابها و مهدوا عقباتها و شعابها.

كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر و في أوائل القرن العشرين بعد الاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية ، مستغلا كبيرا و مدخلا واسعا للشبهات حول الإسلام و حضارته و تظلم حكمه و معاملته لمن كان تحت حكمهم ، و كانت الحاجة تشتد إلى العناية بعرض التاريخ الصحيح و تفنيد الأباطيل و نفي الافتراءات ، فهنا أبرزت ندوة العلماء رجالاتها البارعين و نوابغ التاريخ الإسلامي الذين شهد بإمامتهم الفكرية و رسوخهم العلمي علماء الشرق و الغرب ، فقاموا بدحض الشبهات و نفي الافتراءات و إماطة اللثام عن وجوه الحقائق و المقررات و عرض التاريخ الصحيح عرضا مؤسسا على الوثائق و الدلائل ، مدعما بالتحقيق و الدراسة الفنية و الاتزان الفكري و سداد الرأي و متسما بالأصالة (Originality) و النزاهة و التجرد من التطرف و سوء الفهم ، أمثال الباحث الكبير السيد سليمان الندوي ، و الأستاذ الشاه معين الدين أحمد الندوي ، و الأستاذ عبدالسلام الندوي ، و الأستاذ مسعود عالم الندوي ، و الأستاذ عبدالسلام القدوائي الندوي ، و الأستاذ رياست علي الندوي ، و الأستاذ عبدالقيوم الندوي ، و سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي و الأستاذ رئيس أحمد جعفري الندوي و غيرهم.

لقد كانت الهند - بحكم عوامل و أسباب تاريخية لا يعلمها إلا الله - أكبر مسرح للصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية الملحدة ، و تليها بعض أقطار شمال إفريقيا و تركيا و مصر ، بلاد الشام حيث منيت شعوبها بأخطر التحديات ، و قد لقيت منهم أقسى الرد و أشد المقاومة ، فقام في الندوة من يحسن القيام بهذه المسئولية المباركة و يمثل دوره في هذا الصراع الفكري

و الأدبي و الإجتماعي و يجيد اختيار السلاح و يتقن طريقة استخدامه . كما أن دار العلوم ندوة العلماء كرست جهودها على إصلاح البين و جمع شمل المسلمين على اختلاف وجهاتهم و مذاهبهم و فئاتهم و هيئاتهم . فاذا الشباب المثقف الذي كان يشمئز من علماء الدين و يسخر منهم صار رهن إشارتهم و سهم كنانتهم. و إذا العلماء الذين تشاءموا هؤلاء، و انزووا عنهم يقبلون إليهم . و يحدبون عليهم كالأم الحنون و يتطوفون معهم إلى نهاية المطاف.

> " و رأى الناس أمة مبعثرة تتجمع و حواجز سميكة تتلاشى و جروحا غائرة تندمل . و فجوات واسعة تضيق . و مواهب ضائعة و قوى متصارعة تجد طريقها و منفذها و مسيرتها فتنسى خلافاتها و صراعها ، و تنسى حلوقها و حظوظها في سبيل الواجب الديني المقدس . واجب الحفاظ على الامانة . و إنقاذ الأبناء من جاهلية غربية جاءت بخيلها و رجلها . و خرجت بزينتها و سحرها و حيلها و مكرها."

و لما اكتسحت العالم العربي القومية و الاشتراكية و موجات الحضارة الغربية الفاتنة ، و نهض الطغاة المعادون للإسلام و المسلمين . و صمتت أصوات العلماء المكافحين في أرض المعركة الفكرية إثر حملات القتل و الإعدام و الكبت و الاضطهاد . و اكتظت الأسواق بالمواد السامة المضللة بأقلام المرتزقين و أذناب الغربيين . و اجتاح العالم العربي . في مثل هذه الأوضاع العصيبة . إلى سد أكبر من سد "أسوان" العالي . يقف في وجه السيول الجارفة و الموجات الطاغية و الفيضانات المدمرة من التيارات الجاهلية و الموجات الفكرية و النزعات اللادينية و الحضارة الحيوانية ، فكانت هي ندوة العلماء التي أخذت هذا السد العالي المنشود ، يقول في ذلك فقيد الدعوة الإسلامية الاستاذ محمّد الحسني رحمه الله

> " إن ندوة العلماء لتشكل هذا "السد العالي" لتقف كالحارس الأمين على أبواب الحضارة الغربية الساحرة الخلابة . فلا تسمح للجيل الجديد إلا بهذه العلوم البريئة و الوسائل البريئة التي لا تمس جوهر الدين، و لا تواجهه في أي مرحلة من مراحل الحياة . بل تساعده و تقويه ، و تقف إلى جانبه في حمل الدعوة و أداء الرسالة . و إقامة الحجة . و إثارة الوجدان . و إقناع الفكر . أضافت إليها العاطفة و الإيمان ، و الاعتماد عليه . و لوحت من بين أبنائها طائفة تمثل هذا الطراز و هذا التفكير، و هذا المنهج خير تمثيل، و تحمل هذه الرسالة بإخلاص و أمانة . و صدق و نزاهة . و جراءة و شهامة . و حكمة و براعة." (١٨)

على كل فإن أبناء ندوة العلماء رابطوا على أنواع البيئات و حافظوا على لمختلف الثغور و الحدود ، و هضم انتاجهم و بهر انتصارهــم و ظهــر فضلهم و نبوغهم في مختلف الحقول ، و لايزالــون يثابـرون على مختلف الثغــور و البيئات و يعملون في مختلف الحقول و المجالات و يشغلون وظائف كبيرة في ساحات التدريس و الصحافة و السياسة و الاجتماع ، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، يقول سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي:

> " و كان متخرجي الندوة فضلا أنهم أثبتوا أنهم لا يعيشون في عزلة عن العالم و في جزيرة منقطعة في بحر الحياة، فكان منهم أدباء، و باحثون ، و مؤلفون في لغة البلاد ، و اجتماعيون يشاركون في الحياة ، و كان منهم من كوّن للفكر الإسلامي الجديد المثقف مكتبة كاملة." (١٩)

إرتسامات زيارة

و إليكم الآن بعض كلمات الانطباع لزوار ندوة العلماء عن ندوة العلماء ، سجلها بعض كبار رجال العلم و الادب و السياسة في العالم الإسلامي على إثر زيارتهم لدار العلوم ندوة العلماء (٢٠)

كلمة وفد الأزهر الشريف -

زرنا مدرسة دار العلوم ندوة العلماء بلكنؤ واجتمعنا بتلاميذها ، طلابها و تحدثنا معهم ، و احتفلوا بنا و سررنا بلقائهم و اطلعنا على نصاب تعليمهم و منهاج تدريسهم فرأينا منهجا محكم الوضع متقن الصنع، جمع بين علوم الدين و علوم اللغة العربية ، التي هي مفتاح الكتاب العزيز و السنة النبوية ، و بين علوم الثقافة العصرية التي تبصر الطالب في حياته ، و تعينه على أداء مهمته ، و تجمع بينه و بين طبقات الأمة و عواطفهم و مشاكلهم ، و لقد أكبرنا هذه العلة في اختيار أمثل الطرق في التربية و التعليم ، و تساءلنا (هذا شأن النصاب و المنهاج فيا هل ترى ما خبر النتائج و الثمار ؟) حتى برز أمامنا الطلاب يتكلمون و يخطبون ، و إذا بنا نشهد مظهرا حافلا بالفصاحة و خلايا يجيدون البيان ، و لقد كان الطلاب الذين رأيناهم من مختلف الطبقات مما بين كبار و صغار .

إبراهيم الهبالي ، محمّد صلاح الدين النجار ، عبدالوهاب النجار
محمّد أحمد العدوي ، حبيب أحمد (سكريتر البعثة)

٨ ذوالحجة ١٣٥٥هـ

كلمة الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم تونس

زرت نادي أشعار الطلبة لمدرسة ندوة العلماء - و رأيت الطلبة مصطفين في القاعة - و هم على مقاعدهم كأنما على رؤوسهم الطير، يمثلون الكمال و الوقار - و هذا مظهر من مظاهر الكمال في النظر الذي استفادوه في هذه المدرسة القيمة من الآداب و التعاليم - و الطلبة المتلقي الأستاذ و التحصيل الذين تمكنت في نفوسهم هذه الثقافة المهمة لأول دليل على وجود النضج و الرشد في هذه المدرسة الناهضة - و أنا من شاكر كثير الدعو لها و لمديرها إدارة و أساتذة و طلبة

عبدالعزيز الثعالبي
يوم السبت غرة ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ

كلمة كبير علماء العراق الشيخ أمجد الزهاوي

لقد رأينا دار العلوم ندوة العلماء بمؤسستها وفية و المسئولة بالغرض السامي الذي أسست من أجله - و ذلك بتخريج علماء يرفعون راية الإسلام - و يبثون تعاليمه و أحكامه في أقطار الأرض - و يظهرون أمام الأمم الأخرى بالمظهر اللائق به - فهنيئا لمن يتخرج منها فيقوم بخلافة النبوة بنشر تعاليمه و إخراج الناس من الظلمات إلى النور - وفقنا الله و إياهم لخدمة الإسلام

كتبه أمجد الزهاوي
١٦ ذو القعدة ١٣٧٤هـ

كلمة سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود المعظم

لقد سرني أن أتيحت لي هذه الفرصة لزيارة مقر ندوة العلماء لكنئو - و كنت أسمع عن هذا المعهد الكثير الكثير من مجهوداته الطيبة في نشر العلم الديني و التثقيف الصالح - كما لمست أثر ذلك أيضا في كثير من الشخصيات العلمية التي أتيح لي التعرف عليها بالحجاز - و إنني أرجو لرجال هذه الندوة كل التوفيق و النجاح.

مساعد بن عبدالرحمن آل سعود
١٧-٤-١٣٧٥هـ

من كلمة طويلة للأستاذ الفاضل الشيخ علي الطنطاوي :

كنت أشتهي على الله أن يريني قبل أن أموت معهداً لا يجمد جمود الأزهر القديم و ما على إثره من المعاهد و لا (يسيل) سيلان المعاهد الجديدة معهداً فيه العلم و النظر ، و فيه القديم و الجديد ، فيه الدنيا و الآخرة و أنا أحمد الله أن كافأني على رحلتي هذه فأرانيه هذا في قلب الهند

و أما أن أقول إن هذا معهد خير و إنه خير معهد ، فهذا من تحصيل الحاصل، و لكني أقول كلمة من نفسي ، و الأدباء (مع الأسف) ما تكلموا من شيء إلا جعلوا الكلام عن أنفسهم.

و لقد عشت حتى قاربت الخمسين ، و رأيت دنيا الإسلام قاصيها و دانيها ، و جربت الحياة حلوها و مرها ، و أوتيت بحمد الله مالاً و ذكراً و منصباً ، و نلت ما يتمنى أكثر الناس أن ينالوه ، و مع هذا فإني أحلف أني ما زرت هذا المعهد حتى انحصرت أماني نفسي كلها في أمنية واحدة هي أن أعود طفلاً (لو كان إلى العود سبيل) حتى أنشأ في هذا المعهد فأجمع بين الدين و الدنيا ، و أمتع النفس بجمال الكون فيه ، و القلب بتوجيه مدرسيه ، و العقل بما فيه من علم و ما في مكتبته من الكتب.

و قد قطعت الأرض من دمشق إلى أقصى جاوة فما وجدت مكاناً ، تمنيت أن أقيم فيه إلا هذا المكان.

فأرجو أن يعرف التلاميذ ما قلت ليدركوا قيمة النعمة التي أنعم الله عليهم بها

علي الطنطاوي
ذو القعدة ١٣٧٢هـ

من كلمة سماحة المفتي أمين الحسيني :

دهشنا حين زرنا مدرسة "ندوة العلماء" الشهيرة التي تخرج منها الوف من كبار العلماء و الكتاب و الأدباء ، و التي تضم ألوف الطلاب ، فشهدنا فيها جميع الأساتذة و الطلاب في أقسام العالية و الثانوية حتى الابتدائية يتكلمون اللغة العربية ، و علمنا أن الكلام بغير اللغة العربية في جميع أقسام المدرسة محظور

كلمة الشيخ عبدالمنعم النمر والشيخ عبدالعال العقباوي :

كنا نسمع عن دار العلوم ندوة العلماء ، و نعرف عنها معلومات حببتها إلينا ، و شوقتنا إليها ، حتى أتاح الله لنا أن نأتي إلى الهند . و أن نزور هذه الدار التي أحببناها من قبل ، و نتلاقى مع الأصدقاء و الإخوان الذين عرفناهم شخصيا أو بالمراسلة . و لقد سرنا و شرح صدورنا أن وجدنا حقيقتها تفوق كثير ما سمعنا عنها ، و أن نجد طلابها على قسط كبير من معرفة اللغة العربية حتى لتعد دار العلوم ندوة العلماء في لكناؤ واحة العربية في البلاد الهندية.

عبدالمنعم النمر ، عبدالعال العقباوي

٢٦/ محرم ١٣٧٦هـ

كلمة المفتي ضياء الدين بابا خانوف
رئيس المعهد الديني الإسلامي السوفيتي (تركستان)
و الحاج أحمد جان مصطفى إمام و خطيب :

نحن الوفد الذي يؤلفه مواطنو مدن سوفيتية مختلفة ، قد شرفنا بزيارة ندوة العلماء لكناؤ ، و لمسنا الطابع الإسلامي هو الغالب على القائمين عليها ، و شعرنا بأن طلاب علوم الدين مخلصون في تولهم و مكتملون في الخلق الإسلامي ، و شهدنا في أساتذتها النبوغ العلمي و الفكري ، و قد وجه سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الندوي إلينا الدعوة للقدوم إلى هذه الدار ، إنه ألقى كلمة تعريف بالعلماء الذين ظهروا على أرض ماوراء النهر ، و خص بالذكر منهم إمام المؤمنين في العلم و الحديث الإمام أبو عبدالله البخاري ، و الإمام مرغيناني صاحب "الهداية" ، نحن جميع أعضاء الوفد نشكر القائمين على هذه الدار العظيمة و المشرفين على إدارة شئونها ، كما نوجه شكرنا و تقديرنا إلى الذين يؤيدون الحق ، و الحق أحق بالاتباع ، و يتحمسون له ، و نحن مسرورون جدا بزيارة ندوة العلماء.

ضياء الدين ، أحمد جان مصطفى

كلمة شيخ الإسلام مولانا السيد حسين أحمد المدني

تشرفت اليوم في ١٤/محرم الحرام عام ١٣٦١هـ بالحضور في دار العلوم ندوة العلماء ، و اتفق لي كذلك إلقاء كلمة في اتحاد الطلبة "الإصلاح" ، و الحمد لله على أن نظام الاتحاد المذكور محكم منسجم ، يرجى منه و لاسيما من أمثال الأذكياء المجتهدين أنهم سيطلعون في آفاق الأمة الإسلامية كنجوم زاهرة ، أدعو الله أن يمنح هذه الجمعية بتوسع مستمر ، و أن يحتل هؤلاء الشباب مكانة بارزة في قيادة الشعب و الأمة و البلاد.

(مترجمة)

حسين أحمد
١٤/محرم الحرام ١٣٦١هـ

كلمة سماحة مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني وزير الأمور الدينية في دولة حيدر آباد سابقا:

تشرف هذا العاجز الذي صلته قديمة و متينة بدار العلوم هذه الفرصة لزيارتها ، فشاهدت مختلف الصفوف الدراسية و استمعت إلى دروس كل من الحديث الشريف و الفقه و الأدب العربي ، فتأثرت بحسن الإلقاء ، و الذي شاهدته و استمعت إليه ثلج فؤادي و قرت به عيناي ، و ملأني فرحا و سرورا

و إنني لأشكر الله كثيرا على أن دار العلوم لاتزال مستمرة على مزاياها و تؤدي واجباتها متمسكة بأساليبها الناجحة في الدرس و البحث ، و رأيت أن الرحمة الإلهية لا تزال تكتنفها و تحيط بها ، بارك الله فيها و في أبنائها و خدمها (مترجمة)

حبيب الرحمن
١٧/فبراير ١٩٢٨م

الهوامش:

١ – حياة شبلي ص ٣٦٠

٢ – تقرير الاجتماع الأول ص ٦

٣ – تقرير الاجتماع الثاني ص ٦

٤ – مشروع المقرر الدراسي ص ٧

٥ – سيرة العلامة محمد علي المونكيري لمؤلفه محمد الحسني ص ١٥٩

٦ – حياة شبلي ص ٣٠

٧ – نفس المصدر ص ١٩

٨ – حياة شبلي ص ٤٩٦

٩ – مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز ج/٣٠ عدد ٢ ٣٠٤ ، سنة ١٣٩٤هـ ص ٧٩

١٠ – حياة شبلي ص ٣٢١

١١ – الإسلاميات عند كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص ٢٣

١٢ – ثم يظل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي، يضرب به المثل في لقائه و التلقي و الكلام سمعه في مشهور الخضر و شمه مستحيل، فإن عند عمره خضر كله أن يظهر منها من لين من الجسم، فاشتغل بالقدم ماله في سبيله

١٣ – يعتبره كثير من النقاد قمة تلاميذ العلامة شبلي بمشكلاته في الأسلوب و البيان و اللغة.

١٤ – بيام ندوة العلماء (رسالتها) ص ٦١

١٥ – إقبال نامه ج/١ ص ٦٦٨

١٦ – مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز من المهرجان التعليمي لأعداد محرم صفر و ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ ص ٩٥

١٧ – المصدر السابق ص ٢٩١-٢٩٢

١٨ – و هي كلها موجودة في الملف التذكاري لصحيفة الرائد و مجلة البعث الإسلامي.

١٩ – مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز لأعداد شعبان، رمضان و شوال ١٣٩٥هـ ص ١٠٤

دور تكنولوجيا المواصلات
في دمقرطة التعليم في الهند

بقلم : الدكتور جاشواز أحمد الصديقي
أستاذ قسم المواصلات
جامعة هلاريون بتطنانيا

التعريف :

هذه الورقة تهدف إلى تحديد العوامل الرئيسية المؤثرة في استخدام تكنولوجيا المواصلات في دمقرطة التعليم في الهند. أولا أنها تقوم بتعريف الأهداف العامة، و تحدد ملوحات ودمقرطة التعليم من منظورات متعددة، و ثانيا تتوجه الورقة إلى القوى الرئيسية التي اعترضت . و لاتزال ـ في سبيل عمل الدمقرطة هذا و ثالثا و أخيرا فإنها تعرض التوصيات من شأنها المساعدة في تجاوز تلك العقبات.

إن تكنولوجيا المواصلات ـ في تعريفة عامة ـ موجهة إلى الاستخدام كفاءة. أو هي عبارة عن عمل يضيف إلى الكفاءات الانسانية الفعلية و الفزيائية. و يسمها بذلك الطريق أن تمكن أبناء البشرية من التغلب على القيود المكانية و الزمنية أثناء التفاعل مع البيئات الطبيعية و الانسانية. الأدوات كلها من قطعة خشب أو حجر. إلى العقول الالكترونية المتطورة و الأقمار الصناعية . و أشكال متنوعة لتكنولوجيا المواصلات.

الهند ـ في زحفها المتواصل على طريق التنمية الوطنية ـ نجحت في تنمية التكنولوجيا المتطورة للأقمار الصناعية و ربطها من الفضاء مع محطات التلفزيون، و تستخدمها منذ أكثر من عشر سنوات لبث البرامج التعليمية إلى قرى نائية . و لقد عززت الأقمار الصناعية (انسات ١ اي ، و انسات ٢ بي) المساعي التي تبذل لتعليم الملايين من المواطنين الهنديه

الاقتصاد و السياسة و الثقافة بأنماطها المتعددة. بالإضافة إلى ذلك كان الإذاعة و الصحافة باتت تستخدم لنفس الأغراض منذ عدة عقود، و خاصة في العقود التي تعاقبت استقلال الهند.

لا داعي للتركيز على أهمية العلاقة بين وضعية نمو الموارد البشرية لشعب ما، و تقدمه الاجتماعي ـ الاقتصادي . و الهند لم تكن تفتقر منذ أول وهلة إلى مساعدة خبير أو استشاري أجنبي ليكشف لها الستار عن هذا السر، و منذ بداية انطلاقة حركة التحرير من بريطانيا قبل القادة من أمثال البروفيسور جوكليه و المهاتما غاندي يركزون على ضرورة تثقيف الجماهير الهندية، و تمكينها بذلك الطريق أولا من تأكيد حقها في الحرية و الاستقلال ، و ثانيا من المساهمة في عمل التنمية و اقتسام ثمارها في المراحل اللاحقة . تلبية لنداء غاندي لاتخاذ التعليم وسيلة لنهضة الريف قام السيد محمود (من بيهار) و راجاجي (من مدراس) و أمراء اقليم أوديشه بجولات بين القرى لمئات الكيلومترات يوميا ، ينظمون برامج تعليمية لذلك الغرض (بهولا ١٩٨٢م)

اذا اعتبرنا نوعا من التعليم و تعميمه بين الجماهير بمثابة محرك للتنمية الوطنية ، فعندئذ ينبغي أن تستغل تلك التنمية خدمة لجميع أفراد الأمة بغض النظر عن العرق و القومية و الثراء و العقيدة و الجنس و العمر. و دستور جمهورية الهند العلمانية الديمقراطية الشعبية هو الآخر يدعو لإنشاء و دعم نظام حكم من ذلك النوع. و اذا أريد للهند أن تحيا كدولة ، و تواصل مسيرتها على درب التقدم و الازدهار، فيتوجب على قادتها العمل على تأمين ربط الديمقراطية و التعليم برباط التكافل . و التكنولوجيا الحديثة للمواصلات يمكن أن تكون عونا كبيرا على تحقيق ذلك الهدف المنشود.

قبل تناول الدور الذي لعبته تكنولوجيا المواصلات لغاية الآن، أو الدور الذي ستستمر في اضطلاعه مستقبلا لدمقرطة التعليم في الهند، من الضروري أن نقوم بتحديد معنى «مقرطة التعليم» و نعرف أهدافها و مناهجها. بل الحقيقة ان الديمقراطية نفسها تتطلب شرحا و ايضاحا قبل الدمقرطة، ذلك لأن الديمقراطية تفسر أحيانا ـ من طريق الخطأ ـ بكونها هدفا وطنيا أو نظرية محضة ، و في زحمة هذه التفسيرات يتناسى المرء أنها عمل و منهاج لصنع القرارات ، و لا غير.

و لو قدر للديمقراطية ـ في دولة من الدول ـ أن تجد هذا التطبيق ، و تنعكس في صنع القرارات ، فعندئذ أيضا لا تكمن قيمتها الاجتماعية بين مختلف الطبقات . و إيجاد حل لهذه المشكلة يكون ذا أهمية حرجة ، و بدون حل مقنع لها، يمكن أن تلتبس على الأمة حتى معالم الوجهة العامة فضلا عن مخصصات أهداف التنمية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية .

و اذا كانت الأوضاع بهذه الدرجة من الغموض، فاستخدام تكنولوجيا المواصلات سوف لايثمر سوى عن المزيد من الانحطاط و الانهيار. و الولايات

المتحدة الأمريكية هي خير و أبرز مثال لذلك ـ يقول فريدريك وليمس (FREDERICK WILLIAMS) (١٩٨٢) ـ " الشر في المواصـــلات ، ما هو خيـر لذاته و عن مسائل قيمية أعمق و متصلة بالتكنولوجيات الخاصة بالمواصلات، فإنها تقع في إطار السلوك الإنساني ـ أي الأهم من الناحية القيمية نهائيا ، هو كيف ندير المواصلات و نديرها، و لا ماتصنعه المواصلات علينا.

حسبنا أن نركز هنا على أهمية الناحية القيمية للمواصلات بهذا القدر، و قبل أن نعود إليها بشيء من التفصيل يبدو من الضروري أن نتناقش دمقرطــة التعليم بمعانيها المختلفة. هاتان الكلمتـــان تقبلان عدة تفسيـــرات و شروح ـ و أبرزها أن يكون التعليم في متناول سائر أفراد الشعب. لكن نفس التركيب اللفظي يمكن أن يدل على ضرورة تكييف محتوى التعليم مع حاجات الديمقراطية ـ أي التعليم لأجل الديمقراطية ـ و يمكن أيضا أن يراد بدمقرطة التعليم إتاحة مختلف طبقات الأمة قدرا من الحرية في اختيار المواد الدراسية. و هناك معنى آخر لها، يتلخص في أن يكون إجراء صنع القرار مفتوحا لمساهمة جميع من هم على صلة بالأنشطة التعليمية مـــن الطلاب و الأساتـــذة و الإدارات و الموظفين و الآباء. و هكذا يجوز أن تفسر دمقرطة التعليم بكونها عملا موجها إلى تسهيل التعلم للجميع عن طريق إزاحة العقبات المتمثلة في المال و العمر و الوقت و الجنس و الدبلومات ـ و أي نوع آخر من المشاكل التي تعترض طريق التعلم ـ و كثيرا ما يراد بدمقرطة التعليم التعامل الذي يلقاه الطالب في الغرفـــة الدراسيـــة ، أو نوعيـــة العلاقات القائمـــة بين الأساتـــذة و الإدارة ـ بين الطلاب و الإدارة ـ بين الأساتذة و الآباء ـ أو بين الطلاب أنفسهم.

و لقد عرّف إم ـ أدلير (M. ADLER) (١٩٨٢م) العمل الديمقراطي هذا بأنه الانفتاح المشترك على (أ) المساهمة السياسية للجميع و (ب) تصميم التعليم من مستوى مماثل ، و بدونه تتحول الديمقراطية إلى الفوضوية. و يقول أدلير : الفشل في تلبية الواجب الديمقراطي ، فشل في تنفيذ الوعـــد الديمقراطـــي ، و التوصل إلى هدف مجتمع غير طبقي بمعناه الحقيقي ، يكون مرهونا بتحقيق مجتمع غير طبقي تعليميا. التعليم بداية للعدالة الاجتماعية. و المساواة الاجتماعية بمعناها الأعمق هي ـ أن يتهيأ لجموع السكان نفس مستوى الحياة الذي يتطلب أن يتمتع الجميع بتسهيلات تعليمية من نوعية نفسها. على هذا ـ كما يقول أدلير ـ فإنه بالسرعة التي يتحرك المجتمع الديمقراطي لمعالجة ظاهرة عدم المساواة على مستوى البيوت و البيئة العامة، بنفس الدرجة من السرعة يتمكن من إنجاز تطويره ـ توفير فرص تعليم متكافئة للجميع.

هنا أود أن أتقدم خطوة ، و أميز بين فرصة تعتبر متكافئة بمعنى أنها مفتوحة للجميع و بين أنها متكافئة لأن الجميع يقدرون على الاستفادة منها. يتولد الأطفال جميعهم مؤهلين للتثقف بشرط عدم إصابتهم بعاهة و توافر الظروف للبدء في حينه. و جملة ما في الأمر أن نوفر ثقافة مناسبة و ملائمة

لأزمات المدارس و كوادرها، و هنا يصبح لوسائل المواصلات أن تلعب دورا في أهمية قصوى.

ديمقراطية التعليم و مجموعة منتخبة من ملامحها:

في الفقرات السابقة تصفحنا لمجموعة من تعاريف ممكنة لمصطلح " ديمقراطية التعليم" . و مجموعة التعاريف هذه تتضمن عددا من الملامح الوصفية لذلك العمل . و هي تأتي ملخصا في النقاط آتية الذكر:-

أ) تعليم الكبار مائة بالمائة و بحسب المعايير العملية الدارجة.
ب) التحاق المائة بالمائة من المواطنين من مختلف مجموعات سنية إلى برامج تربوية رسمية و غير رسمية، أو الاستفادة من برامج تعليمية أخرى مفتوحة.
ج) كون مراكز التعليم - المدارس / الكليات - سهلة المنال بالنسبة للجميع و بغض النظر عن العمر و عن اعتبارات أخرى دينية و عرقية و اجتماعية و اقتصادية.
د) انخفاض نسب التهرب لدرجة لا يعبأ بها
هـ) مساهمة الجميع في صنع القرارات حيال شئون متصلة - مثلا - بحاجات المركز و تطويرها، و بالمواد الدراسية و المنهاج التعليمي و التقويم.
و) استبدال " المسئولية و السلطة " بأدوار نموذجية مختلفة يتم انتقاؤها برعاية الاعتبارات المصلحية المحددة.
ز) ربط كيه إس إيه (KSA) مع الحاجات التنموية و مع المساعي الموجهة إلى التغلب على الطائفية و العرقية و الأوهام وغيرها من العلل و الاجتماعية.

انجازات الهند في حقل التعليم :

لم تكن النسبة المئوية لتعليم الكبار تتعدى ١٤٪ لدى الاستقلال من الحكم البريطاني عام ١٩٤٧م، و منذئذ فقد قطعت الهند أشواطا كبيرة . و أصبحت أكبر دولة ثالثة في العالم من ناحية توافر المهرة و الفنيين، و مكانتها بين شعوب العالم الثالث - بدون شك - مكانة دولة قائدة في جميع الميادين. مع أن الانفجار السكاني يعد عقبة رئيسية في طريق التقدم في الهند، إلا أن نفس الطاقات البشرية الهائلة تشكل أهم و أعظم مورد . لأن الكمية - في التحليل النهائي - وحدها تصنع النوعية و القوة - و يجدر أن المنافسة الشديدة في مختلف مجالات الحياة الهندية . جعلت وجود الكفاءات العالية في شتى الحقول أمرا مضمونا رغم شيوع الفساد ومحاباة الأقرباء على جميع المستويات، و رغم كون هذه الظواهر تسببت في خلق شعور باليأس في أكثر من حالة.

و لو نظرنا إلى الوضعية فى إطار الأرقام المجردة ، لوجدنا أن نسبة التعلم بين الكبار (و هي ٤٠٪) ليست هامشية . منذ عام ١٩٤٧م ارتفع عدد الطلاب ثلاثة أضعاف . و فى الأهمية بمكان أن عدد الفنيين فى الهند قد وصل الآن ٢.٦ مليون. فيما لم يكن يتعدى عدد الطلاب الملتحقين بالمعاهد الفنية عام ١٩٤٧م سبعة آلاف . و من عدد الكليات الهندسية و الصناعية . فانه أيضا يبلغ ٦٠٠ بالمقارنة مع ٩٢ قبل أربعين سنة من الآن . الخلاصة أن التعليم فى الهند أصبح - بمرور السنين - أكبر صناعة ترشد الطريق إلى ثورة فنية فى المعلومات.

المشاكل العالقة :

بيد أن هذا الاتساع الهائل فى الأنشطة التعليمية لم يأت مقرونا بتطورات اجتماعية ايجابية ، و فى الوقت نفسه تسبب تباطؤ عجلة النمو الاقتصادي فى بقاء ظاهرة عدم المساواة مستفحلة لغاية الآن ، كما استمرت الفجوات المزمنة بين انتاج نظام التعليم العالي و حاجات السوق شاسعة كمالها فى الماضي.

لقد لفت جيه . بي سيتي (١٩٨٥) الانتباه إلى تفاقم نسب التهرب فى المراحل الابتدائية (٦٠٪) ، و إلى أن هذه الظاهرة قد تسفر عن تضخم عدد الأميين بين الكبار لدرجة قد يستحيل استيعابه فى الأنظمة المتوافرة لتعليم الكبار. ذلك اضافة إلى نسبة التهرب فى المراحل الابتدائية بين الأطفال من القوميات المدرجة فى قائمة القوميات المتخلفة، تصل ٨٠٪ و أن ٤٠٪ من المدارس ليست لها أية مباني، و أكثر بكثير منها لا تتمتع حتى بتسهيلات السبورة و الماء و المراحيض. و أن فى ٣٠٪ من هذه المدارس يوجد معلم لتدريس أربعة صفوف دراسية ، و ٩٠٪ من مجموع سكان الهند، حتى الآن يعيشون حياة يسودها الفقر و الأمية و البؤس.

و على أساس ما ذكره سيتي (Sethi) فى عرضه العام تم افراز ستة مواضيع تتصل بالهيكل النظامي ، و هي :-

أ) نوعية النظام التعليمي : نظام للغني و آخر للفقير.

ب) اجبار الفقير على دعم الغني فى تعليمه.

ج) ثمة أربعة أنظمة تعليمية فرعية تشتمل فى طيها على ما يعرف بمشاهير تعليمية خاصة و رسومية.

د) الطبقة المتوسطة المؤلفة من الموظفين، لسوا حصيلة لذلك النظام.

ه) المجموعة المستفيدة من البرامج التعليمية المهنية - كالطب - لا يميل لخدمة الريف .

و) يوجد ثمة ١٥ مليون مثقفا عاطلون .

الملاحظات آنفة الذكر تدل على أن الخطة التنموية الجديدة انتبهت إلى المشاكل المعيشية المتمثلة في الفقر و المجاعة، و إلى مواطن النقص في المنهاج التعليمي شاملة عملية الأقارب و الفساد الحاكم في اجراءات القبول في معاهد التعليم المدرسي. و المطلوب أن نعي أن المشاكل في التعقيد و الضخامة بدرجة أنه لا يمكن للحكومة أن تتغلب عليها بالاعتماد على أنظمتها الموثقة.

الاستعمالات المعاصرة لوسائل المواصلات :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الهند تستخدم وسائل المواصلات حتى و قبل استقلالها من الحكم البريطاني . و هذا التقليد مازال متواصلا - بصفة جزئية - في البرامج الزراعية و ما تطلبته من أعمال ميدانية مكثفة مدعومة ببرامج اذاعية . إلا أن اتخاذ النموذج الغربي - منذ الوهلة الأولى - للتنمية الصناعية و للزراعة الآلية المزعومة . أسفر عن استمرار معاناة المواطن الفقير في المدينة و القرية و بنفس القدر في مجال التعليم هذا ما ينطبق على تعليم الكبار أكثر من أي شيء آخر، فإن أمره بات منسيا للغاية عام ١٩٧٧م

و بالرغم من هذا و ذاك، ما انفكت وسائل المواصلات في أشكال المسرحية الشعبية و الاذاعة الارشادية و البرامج التلفزيونية تستخدم في الأنشطة التعليمية المرتبطة بالجانب العملي منذ بزوغ فجر الاستقلال . و أكثر هذه البرامج أهمية و منفعة كان تجربة "ساتيت" (SITE) تجربة الارشاد من خلال التلفزيون SATELLITE INSTRUCTION TELEVISION EXPERIMENT - الأولى من طرازها، و التي أجريت في أوائل و منتصف السبعينات. و يمكن أن نلخص النتائج التي وصل إليها التقرير (من اعداد يونيسكو ١٩٨٣م) عن هذه التجربة، في النقاط الآتية الذكر :-

أ) وصل هذا البرامج إلى ٢.٥ مليون نسمة من مواطني ست مناطق التجمع البشري ، و اقتسم جهاز التلفزيون حوالي مائة مواطن.

ب) المشاهدون طالبوا بمزيد المزيد من برامج ارشادية.

ج) بعد مشاهدة البرامج اجتمع القرويون في كثير من الأحيان لمناقشتها فيما بينهم.

د) غالبية المشاهدين كانت من الذكور ، و كانت عامة من الفلاحين و العمال الزراعيين ، فيما شكل الأطفال الثلثين من جمهور المشاهدين

هـ) أكثر القرويين استفادة من هذه البرامج خاصة في مجالي الصحة و الزراعة ، كان أكثرهم ميلا للتجربة.

و) الاقبال على مشاهدة هذه البرامج ، كان مقصورا على مدى المام المشاهد بمضمون المادة المرسلة.

ز) خلقت هذه البرامج لدى الأطفال اهتماما بمحتويات البرامج المنشورة .
ح) هذه التجربة ساعدت أيضا في اختلاط المشاهدين من قوميات مختلفة.
ط) نتيجة لتجربة "سايت" تقلصت الهوات بين المثقفين و المتعلمين من سكان القرى .
ي) و هذه التجربة أتاحت فرصا جديدة للمزيد من الأبحاث في مجالي العلوم الاجتماعية و وسائل المواصلات العامة.

لقد أثار المقومون و الباحثون سؤالين رئيسيين بهذا الصدد، أولهما كان على صلة بأداء المهندسين و علماء الاجتماع و خبراء الاعلام الهنود ، و ثانيهما عن مدى نجاح تجربة "سايت" في انجاز الأهداف ، و الإجابة عليهما أتت على النحو التالي :-

أ) العلماء و الفنيون الهنود أثبتوا كفاءتهم في جميع مراحل التخطيط و التجميع و التشغيل لكافة الأنواع من الأنظمة الثقيلة . و رغم بعض المشاكل و العقبات فان الاتقان كان ٩٨٪.
ب) وسائل الإعلام لعبت دورا متواضعا في ايقاظ الوعي العام ، و مساهمتها في احداث تغيير في الاتجاهات السائدة منذ أزمنة طويلة كانت تدريجية فقط .

و على هذا نعتقد بأن تجربة " سايت " فشلت في تحقيق هدفها الاجتماعي، و في مرده يعاد ذلك الفشل إلى تدني مستوى المادة المنشورة من ناحيتي التصميم و المضمون ، و إلى إساءة الادارة و إلى عدم وجود تنسيق مطلوب بين الوكالات المتعددة.

بعد انطلاقة قمرين صناعيين - انسات آي - ايه و انسات آي - بي - في عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣م ، أصبحت الآمال كبيرة في اشراك المناطق الخلفية في الاستفادة من البرامج الموجهة إلى التضامن الوطني و خلق الوعي العام حول التنمية الاجتماعية - الاقتصادية و السياسية ، مع التركيز على أن المساهمة العامة في العمل التنموي ضرورة لا مناص منها.

بيد أنه بالرغم من التوسع و من التزامات الحكومة ازاء برامج انسات ، فانه لم يتيسر بعد البت في قيمة الابتكارات التي طرحتها الصفوة المدنية على تلك التسهيلات، و حد محتوياتها العادية و السلبية كالأفلام السينمائية، و هكذا فانه لا توجد ثمة سياسة اعلامية واضحة تساعد في حل الصراعات التي تكون محة لأدوار و أهداف و سائل الإعلام العامة و استعمالاتها في الوقت الحاضر. و أثيرت أيضا تساؤلات عن مخصصات الميزانيات العامة لمختلف مقومات القطاع الإعلامي - في الخطة الوطنية السابعة تم ترصيد ١٣٧٠,٠٠ مليون

روبية هندية للانفاق على المواصلات ، إلاّ أن مجموع ما خصص (من المبالغ مؤخرة الذكر) للانفاق على أنشطة موجهة إلى ايقاظ الوعي العام على مستوى عموم البلاد، لم يتجاوز ما يعادل ١٦٩٠ مليون روبية.

و اذا أراد المرء أن يسلط الأضواء على المشكلة الكبرى التي يواجهها خبراء المواصلات في الهند، فله أن يبينها بهذه الكلمات: تم احراز تقدم هائل في تقنيات المعدات الثقيلة ، إلاّ أن هناك نقصا خطيرا في المهرة القادرين على تصميم ارسال مؤثر و في صلة بعمل الدمقرطة و التنمية إلى الحد الثقيف، بعبارة أخرى، وجود الوسيط في مكانه لا يأتي مقترنا بوجود الرسالة.

الدمقرطة من خلال الحملات لتعليم الكبار :

لقد ذكرنا في مكان أن الهند تسبق على غيرها من شعوب العالم النامي فيما يتعلق الأمر بالبدء في المساعي لاعداد عامة الجماهير للديمقراطية. و بالرغم منه فان تعليم الكبار تلقي اهتماما قليلا لغاية عام ١٩٧٧م. و لاول مرة حظي هذا القطاع بالأولوية في الخطط التنموية و التعليمية التي رسمت أثناء فترة حكم حزب جنتا بقيادة مورارجي ديساي في أواخر العقد السابع. في هذه الفترة شنت الحكومة برنامجها لتعليم الكبار استنادا إلى (كما ذكر بهولا ـ١٩٨٧) الافتراضات الآتية :

أ) الأمية تشكل عقبة خطيرة على طريق التنمية على مستوى الفرد و الشعب بوجه سواء.

ب) التعليم عمل متواصل من المهد إلى اللحد.

ج) التعلم و العمل و الحياة مرتبط بعضها مع البعض

د) وسائل التنمية لا تقل أهمية من أهداف التنمية .

ه) يمكن رفع مكانة الأمي و الفقر من خلال التثقيف و الحوار و العمل.

بعد عودة حزب الكونجرس إلى الحكم اسقط بعض المخططين "البرنامج الوطني لتعليم الكبار" من الاعتبار على قناعة بأن ذلك البرنامج لم يكن سوى حدث طارىء و قصير الأمد، أريد من خلاله تحقيق مكاسب سياسية عاجلة و بعيدة عن معنى الأمانة ، و لم يقترنه أي التزامات على مستوى الأمد البعيد.

كان البرنامج الوطني لتعليم الكبار موجها إلى تغطية مائة مليون رجلا و إمرأة في ٢٩ ولاية و تسع مناطق اتحادية (Union Territory) من عام ١٩٧٨م إلى ١٩٨٤م، و الثلث من هذا العدد كان من المتهربين. لقد وضع هذا البرنامج ليكون فيما بعد برنامجا تعليميا متنوعا و شاملا مدى الحياة كلها، و ليحول المجتمع كله إلى مجتمع متعلم في نهاية المطاف. و الأهداف المنهجية تضمنت معرفة القراءة و الكتابة و الوظيفة و الالمام بالتنمية، و رسمت المناهج بطريق

مفيد، و كانت مرنة و متنوعة ، و منتظمة بدقة . لقد أصبح البرنامج الوطني لتعليم الكبار، برنامجا للجماهير. و من ناحية التخطيط و التنفيذ اتصل بخصائص أي برنامج منتخب. و القراءة و الكتابة الوظيفتين ضمنه ارتبطتا - على وجه مؤثر - مع التنمية الريفية المدمجة، و مع التنمية العشائرية المؤسسة على التخطيط الموجه إلى خلق فرص العمل داخل المنطقة.

إلاّ أن هذا البرنامج أيضا أصيب بمواطن ضعف. تمثل أكبرها في عدم وضوح أهداف العملة، و بما أن المخططين أنفسهم لم يعرفوا الأهداف معرفة جلية، فان عدم الوضوح ذلك انعكس في المناهج المرسومة أيضا. و الأمر كان أسوأ منه بالنسبة لمن تولوا العمل في الميدان . فانهم كانوا أقل عدة و اعدادا و غير مؤهلين لزرع تلك الأفكار في صورة " عمل المكالمة " (Dialogic Action) و الجوانب الأخرى من المشكلة تمثلت في المكافآت القليلة (٥٠ روبية شهريا) المدفوعة للمتطوعين و في كونهم غير مدربين تدريبا وافيا و لائقا

و بالرغم من مواطن النقص انفة الذكر فان وسائل الارشاد كانت متنوعة ، و تضمنت الالكترونيات و المواد المطبوعة وغيرها من الوسائل الشعبية الدارجة، بجانب المواد التعليمية التي تلائمت مع حاجات الحياة العملية. و هكذا فان نظام التقويم كان مثاليا و لو أن تطبيقه لم يكن كذلك بأي وجه من الوجوه .

وسائل الإعلام العامة الأخرى المستعملة في التنمية الوطنية :

تستعمل الأفلام و المسرح و الاذاعة و الفيديو و الكمبيوترات استعمالا واسعا في الزمن الحاضر. لقد تسبب تفشي الأمية في شيوع استعمال الراديو و الأفلام كوسائل رئيسية للاستعلام و التسلية . و المتوقع أن تستمر الكمبيوترات و الفيديو لفترة زمنية من امتيازات الأغنياء ، و تكون بالتالي عقبة في طريق مقرطة التعليم. و بغرض خلق الوعي ازاء حاجات المجتمع أيضا تستخدم المسرحيات التي تقيمها الفرق على الشوارع في مختلف انحاء البلاد استخداما بليغا و مؤثرا.

تحليل المشكلة :

يمكن أن تصنف المشاكل التي نواجهها في استخدام وسائل المواصلات لأغراض مقرطة التعليم في فئتين . -

أ) البديهية من تلك المشاكل التي تتصل بالتكنولوجيا.
ب) و الدقيقة منها و التي هي في طبيعتها غير تقنية.

المشاكل المتصلة بالتكنولوجيا تتضمن المشاكل القابلة للانقسام إلى البسيطة و المتشابكة، و هي :

– عدم توافر الوسائل التكنولوجية بمقادير مناسبة.

- عدم التطابق مع الحاجات.
- اعواز المهارات لتخطيط و تصميم الرسالة
- انتقاص الأموال المخصصة للإنفاق على التخطيط على وجه العموم.
- تدني مستوى التدريب على التنظيم و تحديد الشبكات و العمل الجماعي.
- اعواز المهارات المطلوبة للإدارة المتوسطة.
- المشاكل النقلية المتمثلة في المسافات و قلة الأموال الموفرة للرحلات و كون البنية الاساسية غير موافية.

و من المشاكل غير التقنية التي تعترض الطريق المؤدي إلى هدف دمقرطة التعليم بالمعنى الحقيقي ، فهي :-

أ) المشاكل الايدولوجية و الروحية .

- الحياة سائرة في اتجاهات غير موحدة المعالم.
- التباس القيم .
- نظرة أحادية البعد تجاه الحياة (المادية)
- الايمان بالقدر و القضاء.
- كون العصوبية عند الخالق غير واردة في العمليات.
- فصل العقيدة و الاتجاه و السلوك بعضها عن الآخر

ب) المشاكل الاجتماعية :

- العلاقات بين الأشخاص يتعين في ظل الاتجاهات الاستعمارية.
- النظام القائم على الطوائف القومية.
- التعصبات اللغوية و الاقليمية.
- الفساد و محاباة الأقارب.
- وقوع القيم الفاضلة موقع رفض أعمى لا لسبب سوى كونها غير منسجمة مع تقاليدنا.
- التنكر للاستمتاع للغير و اعواز التدريب في العمل الجماعي و الديناميكيات الجماعية.
- شيوع الأمراض و الظروف الغير صحية.
- سرية المواد الاحصائية على المستوى الحكومي ، و من دون مبرر.

ج) المشاكل السياسية :

- الطقوس السياسية : الوصول إلى الحكم مهما تكن قيمته .
- عدم اتخاذ المبدأ / المرحلية سبيلا لتوجيه القضايا.
- استرداد الأموال التي تنفق على الحركة الانتخابية.
- الاقبال على الكلمة المنمقة اكثر منه على الخدمة الحقيقية لأفراد المجتمع.

د) المشاكل الاقتصادية :

- انخفاض انتاجية القيلة (بسبب النزعات و الفقر و الظروف الصحية).
- التوفير تحت المستوى المطلوب.
- اساءة ادارة الأعمال صغيرها و متوسطها بوجه خاص.
- الأقات الصارية.
- استخدام المناهج المهجورة في الخدمات و في انتاج القطاع المصغر للأعمال .
- الاعتماد المتزايد على الآلية خاصة في قطاع الصناعة الثقيلة.

ه) الغزو الثقافي : خطة وكالات الاعلانات الدولية لنشر اعلاناتها مماثلة من دون رعاية الحدود الثقافية، و استخدامها لتنمية الاستهلاك المادي.

- القوى العظمى و زبائنها المحليين (الجهتان الرئيسيتان المستفيدتان من عدم استقرار الظروف السياسية و الاقتصادية و من التهاب القيم الثقافية في العالم الثالث).

الاستنتاجات و الحلول المقترحة :

بالنظر في التقارير التي تتناول موضوع استخدام وسائل المواصلات لأغراض التنمية متعددة الجوانب في العالم الثالث على وجه العموم ، و في الهند على وجه الخصوص، يتبين أن هناك مبررا للافتراض بأن الأخطاء في الحسابات في سردها تعود لأسباب غير تقنية اكثر منها لأسباب تقنية ، و بعبارة أخرى فان المشاكل التي تواجه الهند في هذا المجال ، ناجمة من اسباب ايديولوجية اكثر من اسباب فنية.

في وقت توجد ثمة مشاكل تقنية ، و لها حلول تقنية ، لاتوجد ثمة مشاكل غير تقنية محضة و بحلول غير تقنية محضة. ففي مصر زمن حكم جمال عبد الناصر أزدوجت الرسالة الاشتراكية الالحادية و الثقافية السلفية، و اذاعة القاهرة تولت نشر تلك الرسالة مع الأغاني الشعبية في صوت أم كلثوم، إلاّ أن المستمع المصري الذي يستمع إلى الأغاني بشغف ، لم يكن يتردد في اغلاق الجهاز بمجرد أن بدأ في بث رسالة الحكومة. و بعكس الناصر كان غاندي و نهرو و أوكو و الخميني استخدموا ـ بنجاح ـ القنوات التقليدية مثل الاجتماعات العامة و الأسواق و المساجد لتوصيل رسالاتهم الثقافية الشعبية إلى عامة الجمهور. و الخميني دمج تكنولوجيا المواصلات مع المسجد في ايران لأغراض التعليم و نشر رسالته الثقافية و الاجتماعية و التعبئة السياسية معا. (مولانا ١٩٨٦م).

العالم كله يشهد ثورة في مجالي الثقافة و وسائل المواصلات، مما يؤدي بكل من الرأسمالية و الشيوعية تستنفدان طاقاتهما. و القضايا الرئيسية التي تواجهها الشعوب، ليست فقط سياسية أو اقتصادية أو تقنية ، و أنما هي جميعها مختلطة بطريق لا يمكن فصل بعضها عن الآخر. يحلل كونارميردال على هذا الوضع و يقول : يودي أن تكون لديهم (أي لدى الرأسماليين و الشيوعيين في العالم الثالث) جرأة لنقض العقائد و النظريات عديمة الصلات. و الغير منسجمة - كليا - مع الموضوعات المطروحة في بعض الأذهان. و للانطلاق من جديد من واقع الضرورات و المشكلات و دراستها الموضوعية هذه التوجهات ستساعد في الابتعاد عن كل من الماركسية و النماذج المهجورة للاقتصاديات الحرة الغربية.

و يقول صاتهيه (١٩٨١م) انه ينبغي العمل على البعد عن هواء طلق و منعطف في آفاق الاشتراكية المؤسسة على حرية الفرد و على النماذج الجديدة للتعايش الاجتماعي. كما يتوجب أن يكون هذا النظام الجديد قائما على مبدا المسئولية التي تجعل من الديمقراطية نبراسا لاستعمال القائمين خدمة للمجتمع لكي يتسنى بذلك الطريق تكثير ثمرات التقدم الفني و توزيعها بين الأفراد توزيعا عادلا.

من هذا المنطلق الثقافي نطرح بعض الاقتراحات أن تكون عونا على حل بعض المشاكل التقنية و غير التقنية و هي :-

١ - تدريب المعلمين و القائمين بتنمية عمل الإرشاد و علماء الاجتماع و الخبراء في المواصلات و في المواد المطروحة ، على العمل جماعيا.
٢ - المام هؤلاء الخبراء و العلماء و توريطهم في المناقشات التي تتناول المواضيع الاقتصادية.
٣ - توعية مخططي الاقتصاد و المستثمرين و اشراكهم في الشئون و القضايا المرتبطة بخدمة المجتمع.
٤ - تدريب واضعي البرامج وغيرهم من العاملين (في المواصلات) على التفكير الابداعي و على خلق تصاميم للارسال الابداعي و اعطاء الانتاج صورة و هيئة و تصميم البيئات التعليمية المقترحة.
٥ - تقدير الصلة بين العقيدة الصادقة (دون المتشدقة باللسان) و النزعة و السلوك ، و الجهد في الكلمات و الأعمال و المؤسسات و المنظمات.
٦ - رؤية واضحة للهدف الوطني و لهدف حياة الانسان، و رؤية للكون.
٧ - إقامة أنظمة للكوابح و الموازين ، و تطبيقها على القائمين بالعمل السياسي جميعهم - (ليس هناك أحد فوق القانون و المبادىء الخلقية).
٨ - احترام ملكات الجميع.
٩ - استغلال الموارد العامة خدمة للفقراء و المحتاجين، و ليس للأغنياء على حساب الفقراء.

تعريب : د. الشدهلي

التنعّم في الشقاوة و الانحلال

بقلم : البروفيسور نثار أحمد الفاروقي
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة دلهي

قبل أن نستعرض أوضاع مجتمع يجب علينا أن نعلم أن تقدم الشعوب و انحطاطها شئ طبيعي . و أن الانحطاط يعقب التقدم كما أن الانحطاط يتمخض عن التقدم و الازدهار ، و أن أي شعب من الشعوب لا يأخذ طريقه إلى الانحطاط و الزوال دون عوامل و أسباب. و من أكبر عوامل الانحطاط هو التعامي عن محاسبة الذات و نقدها. إن شخصا أو مجتمعا يعمى عن سيئاته يتعذر إصلاحه، لأنه إذا لم توجد فيه محاسبة الذات فلاتوجد فيها العقلانية أيضا. إن كل قضية تحمل عدة جوانب ، و كل من يريد أن يتبنى وجهة نظر عادلة فعليه أن يقلب الأمر على جوانبها. و الإنسان يفكر أولا و يتبنّى بعمله . فمن اللازم أن يقوم بإصلاح فكره قبل إصلاح أعماله. و الإنسان حينما يطرح العقل جانبا فتتحكم عليه العواطف. و المخّ مصدر العواطف. فيحتاج الى التفكير على خطوط سليمة صحيحة. و من الجهالة الجهلاء أن نأمل أن الدنيا تسير كما نريدها أن تسير. و العقل يحدث الاتزان في حياة الإنسان ، أما العواطف المفرطة فتخل بميزان الحياة.

و العواطف تلد عصبيات عرقية و دينية و لغوية و إقليمية، و العصبية تعمي قلوبنا. و تحملنا على الظلم و الإجحاف و الجناية و الخيانة تحرم الناس من حقوقهم ، و بالتالي يحدث القلق و التذمر في أفراد المجتمع ، و التذمر يحثهم على مواجهة التحديات . إن الإنسان حيوان اجتماعي . يتعذب بالعزلة و الوحدة، و يحب أن يعيش بين أبناء جنسه، و قد خلق الله سبحانه و تعالى المجتمع البشري بحيث أنه جعل الإنسان مرآة لأخيه الإنسان، و جعل أمور الناس متشابكة و مرتبطة إحداها بالأخرى، فإذا أخذ طبقة من المجتمع يحس أنه حرم من حقوق يتمتع بها الآخرون فتنشر فيها ثورة مقاومة الظلم و الخيانة ، و يؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى تهديد لاستقرار المجتمع و هدوئها. إن الطبقة التي تحكم على البلاد تسيطر على مصادر الانتاج فيها،

و تريد الاستمتاع بمواردها الاقتصادية أكثر فأكثر دون غيرها. فلايصير إلى أيدي عامة الناس إلاّ قدر ما يجب لبقاء مصالح الطبقة الحاكمة و هكذا يجري تقسيم الأموال بصورة غير عادلة . و يتولد التذمر و القلق في الطبقات المختلفة. و لكن إذا قسمت الأموال بصورة عادلة مشروعة فحينئذ لا يوجد الاستغلال ، و تشعر كل طبقة على أنها على قدم سواء مع الطبقات الأخرى ، و يسود الرفاه و الرخاء في المجتمع . و ينبغي أن لاننسى أن الشعور المتزايد بحقوقنا يؤدي إلى إجحاف حقوق الآخرين

و الطبقة التي تستغل مصادر الانتاج ، و تنتفع بها دون سائر الناس ، تسعى إلى أن تشغل الجماهير في قضايا تافهة غير مهمة ، إذا أمعننا فيها النظر أو استعرضناها استعراضا محايدا فلا تبدو تلك القضايا قضايا وطنية البتة . و هكذا يسقط الأبرياء السذج ضحايا لاضطرابات طائفية ، و يتهالكون فيما بينهم . و تسنح للطبقات المستغلة فرص لتكديس الأموال و جمعها. هناك طرق عديدة لإبعاد الناس من المنافع الحاصلة من السلطة و الحكومة ، و إلهائهم عن الحقائق . و أنجع هذه الطرق و أكثرها تأثيرا هو استغلال الدين. و من ميزة الدين أنه إذا لم يطلع الإنسان على روحه و فلسفته و نظريته من الحياة و الكون، فإنه يوصله إلى عالم خيالي لايمت إلى حقائق الحياة الحية بصلة ما. و يجلس المرء ، مغمض العينين، في أي مكان شاء، و يستغرق في الخيال، و يظن أنه يستفيد من هذا المكان نفسه.

إن نفع الدين الأصيل هو أنه يتكفل بإصلاح الإنسان ، و يطهر المجتمع من الفساد و المساوئ الخلقية . و يخلق التسامح و الحب و الصداقة و المواساة بين الناس . و لكن معرفة ناقصة عن الدين تولد التوهم . و يأخذ الإنسان يظن أن الأشجار و الأحجار و الحيوانات و الكواكب كلها تعلم ماضيه و حاله و مستقبله و هو بوحده لا يعلم شيئا بين سائر موجودات الكون . مع أننا نرى أن الإنسان هو أعظم المخلوقات بأسرها قدرة و قوة و أكثرها علما و معرفة ، و هو بالرغم من ذلك يعتبر نفسه عاجزا غير قادر على شئ و قد يذهب به التوهم لحد أنه يذبح بيديه حتى فلذة كبده لأغراض تافهة، و لايهمه تحليل الحقائق مثلما تهمه التنبؤات. إن التوهم و العقيدة الواهنة و الهيام بعالم خيالي يسفر عن الكسل و فقدان الفعالية بصورة لازمة، و بالتالي يفقد الإنسان الثقة على مؤهلاته و فكره و عزائمه . و قد قال علي رضي الله عنه : " عرفت ربّي بفسخ العزائم " و ذلك يعني أن عزيمة الإنسان قوة عظيمة لا يستطيع أن يفسخها إلاّ شئ مافوق الطبيعة. كذلك يدلنا التاريخ على أنه حينما يشيع تفسير خاطئ للدين، فانه يتدخل في العلوم، كما نرى في القرون المظلمة في أوروبا، حيث كانت الكنائس تنزل عقوبات صارمة على اللذين كانوا يميطون اللثام عن الاكتشافات علمية. إن كبت البحث العلمي و الأفكار الحرة في مجتمع إلى حد لهما يؤدي إلى الانحطاط. و المجتمع التقدمي

لا يكبت الأفكار الجديدة ، و إن كانت ضربتها على التفكير التقليدي ضربة قاضية. و ينبغي أن يكون الدين ينبوعا للقوة الروحية، لا باعثا على الفوضى و الكراهية و العداوة و الفساد في المجتمع. إن هذا الاستغلال المهيب للدين يرقى إلى إهانة التعاليم الأساسية للديانات و مؤسسيها و كتبها المقدسة. أي كتاب مقدس لدين من الأديان يقول إن السرقة فعال حسن ، أو أن الكاذب يثاب على كذبته ، أو يحل قتل الأبرياء ، أو أن من اقتحم جامعا فقد أثم. و المجتمع الذي يعيش فيه أتباع ديانات مختلفة يجب على أبنائها أن يطلعوا على المعتقدات الأخرى و يتعرفوا على نقاط مشتركة فيما بينهـا، و يسعوا لترويج نظرية عالمية للدين. و من لا يعلم إلاّ دينه كأنه لا يعلم دينه نفسه.

و اتخاذ العدوان وسيلة للنهضة الحضارية أيضا سبب من أسباب الانحطاط. إن العدوان الحضاري لا يوجد مجتمعا صالحا بل بالعكس من ذلك إن مجتمعا متحضرا توفر فرص النمو و الازدهار لحضارات متنوعة مختلفة إزدهارا طبيعيا حراً. و الطبقة النخبة قد تبنّ الشعب بإيقاعهم في حب الحضارة. إن الحضارة لا توجد بقرار يتبناه مؤتمر أو باجتماعات تعقدها أكاديمية علمية ، و لكنها حرة كالهواء، و جارية كالشلال ، و نواميس الطبيعة هي التي تبرزها إلى الوجود ، و لذلك ثقلت مجهودات تكوين حضارة مصطنعة في كل عصر. إن الحضارة إنما تتولد من الرياضة الاجتماعية الممتدة عبر القرون ، و المساوئ الصغيرة لمجتمع مشرف على الزوال تمزق فورا جسم تلك الحضارة، و بعد فترة تلفظ روحها أيضا. حتى تصبح أخيرا جزءا من التاريخ تحتذي بها الأجيال القادمة. و دولة الروم العظيمة مثال لذلك. و قد تولدت حتى الآن ثمان و عشرون حضارة على هذه المعمورة ، و كانت لكل منها دولة و صولة في الزمن الذي وجدت فيه . و لكن ثماني عشرة حضارة منها -فيما قال المؤرخ الفلسفي توين بي- قد اندثرت اندثارا تاما ، و تسع حضارات آخذة في الاندثار ، و لم تبق حتى الآن إلاّ الحضارة الصناعية ، و لكن هذه الأخيرة أيضا تصنع أسلحة فتاكة يمكن أن تقضي على حياتها ، و قد أن أنه لو بقي الإنسان لحرب كونية رابعة على هذه المعمورة فانه يحارب بالطين و الحجر. إن التوتر و الاستغلال الاقتصادي اللذين يتراءى لنا في العصر الراهن هو نوع من أنواع قانون الغابة - حيث تفترس السباع القوية حيوانات صغيرة لا قبل لها بها. و إذا لم يستطع الإنسان التخلص من هذا القانون بعد، فكيف يحمل به أن يزعم ازدهار الحضارة.

ثم ما هي معايير العزة و الإجلال و التقدير في مجتمع متحضر؟ و لو كان الإنسان حيوانا كاسبا فحسب ، فإذن ماهو الفارق بينه و بين حمولات الدولاب . إننا ما تعلمنا حتى الآن كيف ينبغي أن نقدر العلم و الفن. كما لايوجد لدينا تصور واضح من القيم العليا. و كذلك ما عرفنا تعريفاتو صحيحة للخير و الشر و المعروف و المنكر و الصلاح و الفساد ، فكيف

يمكننا أن نصف المعلومات التي نلتقطها من هذا المنهج التعليمي الناقص بصفة العلم. إن النار تحرق كل ما تصيبه . ولكن الشئ الذي لا يحرق لكيف يرضى أحد منا أن يقوله ناراً .

إن غاية العلم هي أنه يعرفنا بالحقيقة، فإذا كنا غافلين عنها، فمن دعانا علماء كأنه أهان العلم نفسه. إن التعليم المصطنع الناقص يحدث الفوضى في تفكيرنا ، و يعوّدنا على تحليل و تفسير الحقائق تفسيرا خاطئا . و يدفعنا إلى انتهاك القيم العالمية و يحول دون تطور وعي سليم صالح عن المجتمع و التاريخ . و ذلك لأننا قد فصلنا التربية عن التعليم ، و ليست الأخلاق جزءا من مناهجنا الدراسية. و لو كانت الأخلاق جزءا من مناهجنا لنجدنا خيثا تصور للعظمة الإنسانية إلى حدما. إن الإنسان هو الأذل و الأقل اعتبارا في هذا المجتمع ، و بخاصة في ذلك المجتمع الذي يتخلف عن المجتمعات الأخرى في سباق الحضارة الصناعية.

و لكن المأساة الكبرىٰ هي أن المجتمع الذي هبط في هوة الطمع و الحرص و أصبح فريسة للاستغلال يحب أسباب الانحطاط ، فمثلا إذا لم يستطع مجتمع من المجتمعات أن يتقدم فكريا لأنه كان يعبد موتاه، و كان يحبهم أكثر من الأحياء ، فلا تستطيع أن تجرأ على إبداء رأيك فيه . و إنه لايلبث أن يتهمك بإهانة الأسلاف و التقليل من شأن الآباء . إن الإنسان يولع بأسباب الإنحطاط ، لأنه لايتعود على محاسبة ذاته . و يحسب نقد الناصحين له سما قاتلا ، و يستلذ الإنحطاط ، كما أن المتعاطي للأفيون يضع جزءا من الأفيون في فمه. و ينتشي و يظن أنه يجوب السموات العلىٰ. هل يمكن أن يتخلص مجتمعنا من هذه الكارثة ؟

حمى الدق
في ضوء الطب الإسلامي (اليوناني)

* بقلم : الدكتور ضياء الدين أحمد الندوي

إن مرض حمى الدق الذي يوجد في سائر العالم و في الهند المشتملة بصفة خاصة ، ليس من مكتشفات الطب الحديث . بل الطب الإسلامي و الأطباء الكبار القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبوسهل المسيحي وغيرهم تناولوه بشرح و بيان في كتبهم و تصانيفهم . و بينوا ما له من خطورة و ما هي الأسباب التي تؤدي إليه و ما هو الطريق الأمثل لعلاجه.

ينشأ هذا المرض من "مادة السل" (MICOBACTERIUM TUBERCULI) و من خصائص هذا المرض أنه يؤثر في القلب وغيره من الأعضاء الرئيسية و يبدأ بتحليل الرطوبات. يقال لهذا المرض " حمى الدق " ، و معنى الدق لغة " الدقة و الهزال " ، و معنى الدق لأنه يهزل بدن الإنسان. و يقال له باللغة الإنجليزية (Hectic Fever) ، و أصل ذلك الكلمة اليونانية (HEKTIKOS) و هي تعني " المعتاد و المألوف " لأن الحمى تتعود على الإتيان مرة بعد أخرى.

عرف هذا المرض في الطب الإسلامي منذ قديم . ففي تصانيف الأطباء القدامى و الأطباء المسلمين من أمثال بقراط و جالينوس و ربطاوس و الطبري و الرازي و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي و علي بن عباس المجوسي ، يوجد تعليمات مفصلة عن هذا المرض. و لكن الجرثومة الخاصة التي هي سبب هذا المرض كشفها للمرة الأولى الطبيب الشهير الألماني روبرت كوخ (ROBERT KOCH) عام ١٨٨٢م ، أما بعض الأطباء القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي فجعلوا سبب هذا المرض "مادة السل" (التي تتولد بسبب دخول بعض الجراثيم في البدن). و أما نظرية عدوى هذا المرض فهي من الاكتشافات أطباء العرب. و دليل ذلك أن عمدة علم التشريح "ماركهنكي" و "وانسلوا" كانوا يحذرون من تشريح الأجسام للميتة حتى القرن السادس المسيحي مخافة ألا يصيبهم المرض عينه ، و من ثم كانوا يصرفون

فراش المصابين بالسل و ثيابهم و ملابسهم كلها بعد موتهم.

إن الجسم البشري يتألف من ثلاثة أشياء - "الجامد" كأعضاء البدن، و "المادة السائلة" كالرطوبات ، و "المواد الهوائية" كالروح، كما قال بقراط -

"إن البدن الإنساني هو مركب من الأشياء الجامدة و السائلة و الأرواح".

و قال أبو سهل أستاذ أبي سينا مثل ذلك:

"جملة البدن تشتمل على ثلاثة أصناف من الأجسام .

أحدها : الأجسام التي لها في أنفسها تماسك و صلابة ، و لاتحتاج إلى الانحصار في الأوعية بحيث تمنعها عن السيلان، و هذه هي الأعضاء".

و ثانيها : أجسام رطبة سيالة محصورة في أوعية تمنعها من السيلان ، و هي أخلاط.

و ثالثها : أجسام رقيقة بخارية محصورة في أوعية صفيقة تمنعها من التحلل سريعا، و هذه هي الأرواح".

و الطب الحديث أيضا يوافق على هذه النظرية أنه توجد في البدن ثلاثة أشياء : الجامد (SOLIDS) و السيال (LIQUIDS) و الروح (GASES) .

ثم قسمت الأجسام الرطبة إلى ثلاثة أقسام كما ذكر ذلك أبو سهل المسيحي في كتابه.

" و رطوبات البدن ثلاثة :

أحدها : الرطوبة الاسطقسية التي بها اتصال أجزاء الأعضاء بعضها ببعض ، و هي التي متى فنيت تناثرت الأعضاء.

و الثاني : الرطوبة التي في العروق.

و الثالث : الرطوبة التي في التجاويف الخالية بين الأعضاء".

و الطب الحديث أيضا يؤيد هذه النظرية فيقول إنه يوجد في البدن ثلاثة أنواع من الرطوبات (Intercellular, Extra cellular, Intra cellular) .

و إنما تصيب الحمى إذا تولدت الحرارة الغريبة في البدن التي تؤثر في أحد الأجسام الثلاثة (الأعضاء و الأخلاط و الأرواح)، ثم إن أثرت هذه الحرارة الغريبة في الأرواح فتصيب "الحمى" اليومية" و إن أثرت في الأخلاط فتصيب " الحمى" الخلطية " . و إذا أثرت في الأعضاء فتصيب "حمى الدق". كما كتب أبو سهل:

"الحمى حرارة خارجة عن الطبيع . فهي تكون في موضوع لا محالة و ليس في البدن جسم هو جزء من الأجزاء غير الأعضاء و الأخلاط و الأرواح.

فمتي كانت في الأرواح كانت حمى يوم ، و متى كانت في الأخلاط كانت حمى العفونة ، و متى كانت في الأعضاء وجدت حمى الدق"

و كذلك قسم ابن سينا و الطبري الحمى إلى هذه الأقسام الأساسية.

و ذكر الأطباء المسلمون سببين لهذا المرض:

الأسباب المهيئة للمرض (Pre - disposing Causes)

و الأسباب الخارجية (External Causes).

إن الأسباب المهيئة هي التي بوجودها يتم الاستعداد لقبول مرض السل كالعمر و الجنس و الوراثة و المهنة و السكني و شمّ الغاز السامة. هذا ، و من الممكن أن تكون بعض الأمراض الأخرى أيضا سبب هذا المرض من مرض الالتهاب الشعبي الرئوي (BRONCHO PNEUMONIA) و الشهقة أو السعال الديكي (HOOPING COUGH) و النزلـــة الوافـــدة (INFLUENZA) و ديابيــط أو البول السكري (DIABETES) و ما إلى ذلك.

و الأسباب الخارجية هي التي تؤثر من الخارج كالحزن و الوهم و الغضب و التعب و الأرق المفرط و الجماع المفرط و الغذاء غير المتوازن و البيئة القذرة و البيوت الضيقة و تعاطي الخمر و التدخين و ماإلى ذلك .

إن هذه الأسباب المهيئة و الخارجية تضعف قوة مدافعة الإنسان فتخلق الاستعداد لقبول الأسباب الواصلة (EXCITING CAUSES) أي الجراثيم في البدن. و هذا النوع من الأجسام عند الاتصـــال بالمصـــاب بالسل ، إنسانا كان أو حيوانا ، يقبل هذا المرض بكل سهولة ، و عامة تكون عملية التعدي هذه بواسطة التنفس أو بالأكل و الشرب حيث تدخل الجراثيم في البدن، و في الرئة على وجه التحديد، للوهلة الأولى ، ثم تولد مادة السل . و هذه المادة بعد تحللها في الدم تصل إلى القلب ، و يأخذ القلب يحترق و يولد الحرارة الغريبة ، و تسري هذه الحرارة إلى سائر أعضاء البدن بواســطة جريان الدم ، و تبدأ تؤثر في الرطوبات البدنية.

و قسم الأطباء المسلمون هذا المرض إلى ثلاث درجات و الطب الحديث أيضا يؤيد هذا التقسيم.

درجات المرض :

في البداية يتراءى المريض كئيبا يائسا حزينا، و يحس بالوجع بعد الأكل في الصدر و فوق عظم الترقوة و تحته ، كما يشعر الألم في جنبيه إلى الظهر ، و يشتد الوجع عندما يسعل ، و أحيانا يأتي بعد تناول الطعام ، كما يشكو سوء الهضم . و يكره المريض الأغذية الدسمة و تصبح حركة قلبه و نبضه سريعة ، و كذلك حركة التنفس أيضا تكون سريعة إلى حد ما، و يجد صعوبة في التنفس عند العمل الشاق ، و المريض يهزل و يضعف يوما فيوما . و في المساء تزداد الحرارة عامة.

و في الدرجة الثانية من المرض يقل جوع المريض ، و ينضـوق القـدم و الكتف . و يشتد السعال و يطرح البلغم الذي يكون مزيجا بالقيح، و يجد صعوبة في التنفس ، و لايزال الضعف و الهزال يزدادان على مرّ الأيام ، و كذلك حركة النبض أيضا تستمر في تزايد، و تركبه الحمى ليلا و نهاراً.

و في الدرجة الثالثة من المرض تكون هذه الأمارات شديدة وتكون آثارها

ترشح في الرئتين ، و يشتد السعال صباحا ، و يخرج البلغم أكثر بزيادة من القيح ، و كذلك يسيل العرق كثيرا في الصباح ، و يكثر الهزال ، و تسقط الأشعار، و تبيض الأظفار و تصير معوجة ، و تبدو آثار في الصدر و الظهر، و قلما يحس المريض بالجوع ، و لاهزال المريض يعاني من القيئ و الإسهال ، و يهزل هزالا شديدا، و تتورم اليدان و الرجلان حتى تكون مصيره الموت.

الإجراءات الوقائية :

إن الجسم البشري لا يتأثر بالجراثيم أو الأسباب الواصلة (Exciting Causes) إلا إذا ضعفت فيه قوة الدفاع ، فمن الواجب الاحتياط في كل ما يؤدي إلى ضعف البدن الإنساني ، و تنشأ فيه الاستعداد لقبول المرض كالأمكنة القذرة و السكنى في البيوت التي لاتصل إليها الهواء و النور و استعمال الغذاء الناقص و تعاطي الخمر و استعمال المسكرات و الإفراط في الجماع و التورط في العادات القبيحة و استعمال اللحم الناقص الطبخ و تناول الطعام دون غسل الأيدي ، و لذلك نجد في الإسلام تعليمات تهدف إلى حفظ البدن الإنساني من سائر الأمراض الخبيثة ، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، " لا يغمسن أحدكم يده في إناء حتى يغسل يده ثلاثا" و قال في حديث آخر : "كل مسكر حرام " و ما إلى ذلك.

طريقة العلاج :

لابد من مراعاة البرودة و الرطوبة في الطعام و الغذاء و الأدوية ، فالواجب أن يعطى هذا النوع من المرضى الأغذية اللطيفة كماء الشعير و خبز الحنطة الموضوعة في الماء البارد و لحم الغنم و فراخ الدجاجة و الخضراوات اللطيفة، و تعد هذه الأغذية من أحسن الأغذية للمصابين بمرض السل ، و كذلك يحسن أن يأكل المريض البيض و الحلوى ، و لكن من الواجب أن لا يأكل أكثر من شهيته، و من الأحسن أن يعطر غرفة المريض العطر و الرائحة الطيبة، و كذلك يجب أن ينظف المكان باهتمام ، كما يجب إزالة الهموم و الأحزان من ذهن المريض، و بصدد العلاج يجب إزالة أسباب المرض قبل كل شئ، و فيما يلي الأدوية التي تستعمل في علاج حمى الدق بصفة خاصة.

الإسم العام	الإسم العربي / الإسم النباتي
طباشير	طباشير (من قصب الهند) Bambusa bambos Druce
گل ارمني	الجذع الأرمني، طين أرمني Armenian Bole

ريشه برگد	التين البنغالي، لحية ذات الذوائب Ficus bengalensis Linn
بادام	اللوز Prunus amygdalus Batsch
كدو	اليقطين ، القرع Lagenaria siceraria Standl
كاهو	الخس Lactuca sativa Linn
بارتنگ	لسان الحمل Plantago major Linn
خشخاش	خشخاش Papaver somniferum Linn
كافور	كافور (مادة عطرية) Cinnamomum camphora Nees
زهر مهرة	سليكات المغنسيوم Silicate of magnesia & Iron
حب الآس	حلموش ـ آس Myrtus communis Linn
مرواريد	لؤلؤة Pearl
ياقوت أحمر	ياقوت احمر Ruby
تخم ألسي	بذر الكتان Linum usitatissimum Linn
اسبغول	بذر قطونا Plantago ovata Forsk
گلسرخ	الزهرة الحمراء ، الوردة Rosa damascena Mill
خرفه	الرجلة ، بقلة الحمقاء Portulaca oleracea Linn
زعفران	زعفران Crocus sativus Linn
گلنار	زهرة الرمانة ، جلنار Punica granatum Linn

اسفتاس	خيارشنبر ، الأبنوس الكاذب Cassia fistula Linn
كثيرا	كثيرا Astragalus gummifera Linn
انجبار	انجبار Polygonum viviparum Linn
صندل سفيد	صندل أبيض Santalum album Linn
ملهتي	أصل السوس Glycyrrhiza glabra Linn
بيهدانه	السفرجل Cydonia oblonga Mill
كل نيلوفر	اللوتس Nymphaea alba Linn

المراجع:

١ ـ أبو علي ابن سينا : القانون في الطب (ترجمة أردية) الجزء الأول ، الطبعة الأولى ـ مكتبة ناسي ، منشي نول كشور ، لكناؤ عام ١٩٣٦م

٢ ـ علي ابن العباس مجوسي : كامل الصناعة (ترجمة أردية) ، الجزء الثاني ، مكتبة نامي ـ منشي نول كشور ، لكناؤ ، عام ١٨٨٩م.

٣ ـ أبو سهل مسيحي (كتاب المائة) ـ كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مبحثا للمسيح طبع دهلي ، عام ١٩٤٦.

٤ ـ جون شيلر (أنيس الطرمين) كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مبحثا للمسيح ، طبع دهلي ، عام ١٩٤٦م.

٥ ـ غلام جيلاني ، مخزن الحكمة ، الجزء الأول ، طبع كتب خانه ، جيلاني كيمد ، لاهور عام ١٩٥٤م

٦ ـ منير البعلبكي : المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، عام ١٩٦٢م

شاه عبد اللطيف

و

الثقافة المركبة من عناصر مختلفة في الهند

بقلم : ك. ك. كوالر

كان من عام ١٧٥٢. الشهر الذي تنضب فيه الكراكي و المشلق يتلوهون، شهر مايو، شهر العاصفة الهوجاء، و الهواء المسموم في السند. مرتدية عباءة طويلة سوداء و عمامة بيضاء، كان درويش مع عصاً في يده يمشي عبر الصحراء. فأوقفه جمّال شهاة عند وانغ ويلا سور (WANG WILLA SUR) قرب كوتش.

"أين تذهب في هذه الصحراء، أيها الشاه الكبير؟ إن مريدك المتواضع يحييك" "إلى كربلا" أجابه الشيخ. "فقلبي يحن إلى كربلاء يا بني". "لكن يا أبي الموقر، كنت تقول دائماً إنك سوف تدفن في بهيت (BHIT) في السند. فلماذا غيرت رأيك، و لماذا تغادر وطنك في نهاية مطافك؟" سأله الجمّال و أخذ سبيله

متأثراً تأثراً عميقاً بكلمات الشاب، رجع الشيخ إلى بهيت و مات بعد بضعة أيام.

كان هذا، الشاه عبد اللطيف، مبدع "الرسالة" الخالدة، الشاعر الذي بلغ إلى مكانة حافظ و الرومي و السعدي في الفارسية، و فريد و وارث شاه بالبنجابية. إنه فعل نفس ما فعله تشوسر (CHAUCER) للإنجليزية و الشيخ فريد للبنجابية. فجعل الشعر سنديا و السندية شعرا.

تكشف دراسة نقدية تحليلية دقيقة لتاريخ الهند المتحضرة و عبر العصور الممتدة إلى أكثر من ألفين سنة أن بعد كل ثلاث مئة سنة إجتاحت الهند حركة أزالت كل حواجز الطائفية، و اللون و العقيدة و تحولت تدريجيا إلى حركة دينية، و في نهاية المطاف تستفيد من نتائج سياسية عنيفة.

فعندما قامت البوذية على رماد البرهمية في القرن السادس ق. م. ظن الناس أن البرهمية إندثرت للأبد. و لكن لم يحدث هذا فقد تعرضت البوذية بعد ثلاث مئة سنة للتغيير في عهد أشوكا حتى انضمت للفلاحيين. و خلال القرن الأول الميلادي حدث إنقسام في صفوف البوذية في شكل " هنيـانا " (HINYANA) و " مهـــايانا " (MAHAYANA) و حدثت ثورة دينية في عهد " هرشا " (HARSHA) لا في الهند فحسب و إنما في العالم كله. و ثم برز الإسلام كقوة دينية جديدة ليقهر مصير عدد من البلاد فعند ما دخل الهند، أنشأ حركات جديدة مثل التصوف و الطرق الأخرى على يد نظام الدين أوليا- و أمير خسرو. و بعد ثلاث مئة سنة بالضبط نجد بروز حركة بهكتي (BHAKTI) و تبعتها بعد ذلك بثلاث مئة سنة حركات دينية جديدة في القرن التاسع عشر مثل برهمو سماج و أريا سماج و جمعية ثيوسوفية وغيرها. إن دراسة حركة بهكتي على طول الزمن ليست طريفة فقط و إنما هامة تاريخيا و مفيدة إجتماعيا و ممتازة إقتصاديا أيضا. كانت بعض الحركات منها بسيطة و الأخرى معقدة، و لكن الجوهر الذي تملكه هو هو. و لم تهدد حركة وحدة الهند. بل أغنت كل حركة بطريقتها الخاصة الثقافة المركبة من العناصر المختلفة في شبه القارة الهندية. و من جهة منظور تاريخي أوسع، كان شاه عبد اللطيف جزءا لهذه الحركة و أثناها بصورة ملموسة جدا كما استفاد منها.

أحدثت حركة بهكتي تاثيرات إجتماعية و سيكولوجية هائلة، و خلقت شعورا من الوحدة و التضامن بين أهل الهند الذين اعتبروا كل فاتح أجنبي عدوا مشتركا لهم. و من الطريف العلم بكيفية إندماج الغزاة واحدا بعد آخر في الثقافة المزيجة الهندية. فكان هنا مشهد تاريخي، يمكن مقارنته بمشهد قطار مزدحم متحرك إلى الأمام فقد حاول فيه مسافرون جدد الدخول فيه في كل محطة، و المسافرون القدامى الجالسون فيه أبدوا كل المقاومة المتوفرة لديهم. إنني أدعو دائما هذا القطار قطارا ثقافيا هنديا متحركا على الدوام رغم المقاومة. و كما يحدث دائما قد انقلب غزاة المحطة السابقة إلى المقاومين في كل محطة تالية. و حاول المسافرون الغزاة الدخول فيه بكل مالديهم من الوسائل، منها بوسائل العنف أو بأية وسيلة أخرى. و الراكبون القدماء في القطار و منهم المسافرون الغزاة الراكبون في المحطة السابقة، إتحدوا ليقاوموا الغازي الجديد بكل قواهم. مما ترتب على ذلك أن عنـــد كل محطة قد تم إدخال بعض الغزاة في القطار الثقافي الهندي الواسع و هو يتحرك إلى الأمام. هذه العملية جارية منذ أيام الآريين، إن قائمة الغزاة في الهند طويلة جدا. فعندنا الفرس، و الإغريق، و البكترانيون، و البـــارسيون، و الهون، والجوك، و الساكيون، و العرب، و الأفغان، و الأتراك. و تتجلى هذه الروح من التركيب و الإندماج أيضا في أساطير الحب في البنجاب نمثها على سبيل

المثال في قصص سـوهني و مهيوال، و ساسي و بونو، و سيهاتي و مـــراد، و ميرزا صــاحبان و هير و رانجها. و يتحدث وارث شاه الذي ألف قصة هير (HEER) في القرن الثامن عشر، عن الأعياد المشتركة و تقاليد الهندوس و المسلمين. كان رانجها (RANJHA) المسلم يلبس ملابس زعفرانية اللون المختصة بالدراويش الهنود و يحلق حلقات كبيرة في أذانه و يلوّث جسمه بالرماد و يعزف المزمار، و هي آلة موسيقية محبوبة لدى الإله كريشنا. كما يذكر رانجها زواج مهاديو مع باربتي. و يتحدث عن بهراكيين و لوماسيين و راماننديين و العديد من الطوائف الهندوسية، كما اشترك أيضا في مهرجان السند قرب جهيلم، و كانت له مهارة تامة في أكثر من ١٦ من الألحان الكلاسيكية الهندوسية و عندما لدغ " هير " ثعبان، عالجه الشفاء باستخدام أدوية ايورويدية. إنها كانت تضع الزنجفر في شعرها. و كانت مهرها مهرا هندوسيا نظريا مما يعرض في بيت العماد و كان رانجها مولعا بالقدر الذي يستعمل في الرياضيات الهندوسية فقط. و مع ذلك يتحدث عن الصوفية المسلمين و يرى وارث شاه أنه لا فرق بين الدرويش الهندوسي و الصوفي المسلم حيث أن كلا منهما يعتقدان بأن الله موجود في داخل الإنسان. و بأن العبادة ليست إلا سلما للبلوغ إلى مكان الخلاص. توجد تقاليد الدراويش المسلمين في كشمير حتى الآن كما يوجد مسلمون (يحترمون شيئا في ذلك الوادي) و قد تبقى المسلمون في باكستان تقاليدهـم الهندوسية، فتضع نساؤهم الزنجفر في شعرهن، و هناك أسماء هندوسيـة للشيوخ و هكذا أسماء إسلامية لكهنة الهندوس. كان تصوف شـاه عبداللطيف أكبر جسر بين الهندوس و المسلمين إنه كان ضد الطقوس الدينية و زيف الكهنة و نفاق المتعصبين و أشار إلى نهر المنبع كنهر الهند. النهر الذي اجتذب إليه الآريون بمجرد النظـرة الأولى إليه. النهـر الذي تتطهر الروح بالإستحمام فيه. أنظر إلى بيت شعر من أنشودة رامكالي حيث يقول الشاه الدرويش ذلك:

" إغتنم فرصة صحبتهم
كن معهم و زد تجربتك
إنهم قريبا ينطلقون إلى سفر طويل
تاركين هذا العالم البهيج للمنبع المقدس.

يتحدث الشاه عـــن " سادهنا " (SADHANA) و يتحدث عـــن " ستنام " (SAT-NAM) فيقول :

تأمل في هذا العالم. إنه يشفيك من كل بؤس،
إحتفظ " بالميم " في لحنك وضع " الألف " قبل ذلك.

قال السوامي رام تيرات نفس الشيء بعد ذلك بمئتين سنة . كانت

ولادة الشاه عبد اللطيف في ١٦٨٩ بقرية بهارقور بمقاطعة هالا- في حيدر آباد (السند) في عهد أورنجزيب. إن وادي السند لكون أرضها خصبة و مناظرها خلابة تتتبع الذهب منذ عهد هرابا (HARRAPPA) و موهينجـدارو " (MOHENJODARO). كان العرب أول من فتحوا السند و لكنهم إستسلموا بعد أن واجهوا حضارة أعلى. و لكن مرّ في السند حين من الزمن تحمل أهلها فيه النكبات، و في أيام طفولة الشاه كانت السند تمر بأوقات عصيبة جداً. و بعد ذلك بعشر سنين، مرّ سياح إنجليزي بشهر السند فقال أسيرها لما رأى الإنجليز في أسطولهم الصغير، يا للأسف إنهم شاهدوا السند. فقد حدث إنه بعد مئة و أربعين سنة فقط ضم السير شارل نابير السند إلى أراضي اللورد دلهوزي، و قد تجلى شعوره هذا في سيرته الذاتية التي كتب فيها فصلاً تحت عنوان " بكاري " (أرتكبت إثماً) و بعد ذلك بقليل إنتقل أبوه شاه حبيب إلى مكان آخر إسمه كوتري في نفس المقاطعة و على مسافة أربعة أميال من هذا المكان تقع بهيت. الهضبة الصغيرة التي قضى فيها الشاعر سنواته الأخيرة بين الرهبان و الدراويش. المكان الذي لا يوجد فيه شيء تذكاري للشاعر ما عدا مسجد صغير و لكنه مشهور عالمياً. و مثل ضريح بابا فريد، هذا المكان أيضاً مجمعٌ للناس. كان جد الشاه عبد اللطيف الشاه عبد الكريم (١٥٣٦ - ١٦٢٣) شاعراً كبيراً. هاجر إلى هذا المكان من هيرات مع الأمير تيمور في ١٣٩٨.

كان درويش قد تكهن بأن الطفل الجديد في أسرة الشاه حبيب سوف يرفع المعاناة عن أهل السند، و يقرض أبيات ملهمة و يعتبر نجماً قطبياً في صحراء السند. يقال إن الطفل لما أرسل إلى نور محمد بهتي للتعليم و هو ابن خمس سنين، رفض أن يتعلم شيئاً بعد الحرف الأول من الأبجدية و هو " الألف " و أيضاً هو الحرف الأول من كلمة " الله " و قد رأى المعلم نوراً في عيون الطفل فصاح قائلاً - سيكون هذا الطفل متعلماً بنفسه فمنذ ذلك الوقت لم يذهب أبداً إلى مدرسة و في سن الشباب تجول بين دراويش الصحراء حتى قابل شاه عنايت، الصوفي الأكبر في السند أنذاك. إن الزهرتين اللتين منحهما الصوفي الكبير للشاه عبد اللطيف كانتا رمزاً للرؤية الجديدة التي أدركها في عيون الشاب البراقة. هناك حكاية تروي أن الشاه عبد اللطيف دخل في حصب بسبب عوائق وضعها والد البنت ميرزا مغول بك في طريقهما. فهام في صحراء السند وفي هذا الهيام وصل إلى ملتان ثم اتجه إلى مكران في بلوشستان كما زار جيسلمير و كوتش و لجيرات كاتياوار. و زار الأماكن المقدسة للهندوس في غيرنار حيث رقص أمام تمثال الإله كريشنا، و قدم إجلاله للإلهية دروجها في هينجلاج في لاسبيلا. و اختلط بصرية مع أتباع جوركناث و تحدث مع دراويش نانك بالتفصيل و اشتغل بالموسيقارين الهندوس وقضى معهم وقتاً ملحوظاً.

و أعجب بالإثنين منهم إعجابا شديدا و هما أتال و شنشال. إن الألحان كليان و رام كالي من تأليفه تعبير رباني رائع في عالم الموسيقى. فهذان التأليفان يشتملان على رؤية الشاه نحو التصوف و الموسيقى. و فعلا، توفى الشاه و هو يستمع إلى الموسيقى . إن تأليفاته الأخرى مثل " السموندي " و " سريراج " تشير إلى رحلاته البحرية.

و يحكي لنا الأستاذ فتح شاند شلسطاني في مقدمته لرسالة الشاه قصة لشبابه عنه ما فشل في الحب فيقول : لما أدرك بعدم استطاعته في الوصول إلى حبيبته، رقد على كثبان رملي في حزن و كآبة غير منتبه للبيئة المحيطة به حتى أخبر راج والده فجاء به إلى البيت و لكنه هنا أيضا لم يمكث طويلا و غادر قريته و جال مع المراويش الهندوس لمدة ثلاث سنين و قد تحولت هذه المدة إلى التعليم العملي الحقيقي بالنسبة له. في الواقع يشبه شغفه في الترحال بالشيخ السعدي و غوروتانك. و لما عاد يوما فجأة إلى دار أبيه، وجد هناك بهجة و حبورا.

تزوج الشاه من سعيدة بيجوم في ١٧١٣م. و قد أعطى له هذا الزواج رفيقة في إحداث ثورة اجتماعية كما خططها و كان تصوف الشاه المعروف عند سواد الناس في السند بـ "رُوحي السند". متأثرا في جانب بكتب فيدا الهندوسية. و في جانب آخر مركزا بصورة راسخة على التعليمات القرآنية. كان الشاه عبد اللطيف لباسا جزءا من حركة بهكتي في شبه القارة الهندية و رفع مشعل الثقافة الهندية المركبة عاليا خلال أصعب وقت مرّ به السند. و قد شجب نفاق رجال الدين و عارض الضرائب التي فرضها الحكام الظلمة على الزوار الهندوس. و من أقواله إنه لا فائدة في تحريك الأصابع على حبات المسبحة و العقد. و إنما المطلوب هو العمل الصالح. كان الشاه شيعيا و لكنه كان محترما جدا لدى السنيين و كان مسلما بل كان محبوبا لدى الهندوس أيضا. احترمته جماعة السيخ لأنه كان تابعا صادقا لغوروتانك في الواقع كان الشاه هنديا، أنه لم يكن محترما في طول الهند فقط و إنما في العالم الإسلامي بأسره.

مرتديا لباسا درويشيا طويلا مقابلا بخطوط الحويت السوداء، كان الشاه شاعرا من طراز الشيخ فريد يقال إن المهاتما غاندي اتخذ فكرة الغزل من كلمات الشاه عبد اللطيف عندما زار السند بعد عودته من جنوب أفريقيا. خلص الشاه الشعر السندي من خليان العربية و الفارسية و تبنى شعرا شعبيا (DOHA) بدلا من الغزل ، إن الشاه عبد اللطيف الذي كانت أشعاره معروفة بالأفكار النيرة و الأخيلة الخصبة و حبه للطبيعة و جمالها ، استخدم على طريقة غوروتانك في البهاكتي و السواسي رام تيرات بجد ذلك إستعارات و حكما محلية كثيرة مستلهمة من رعاة الأغنام و الجمال في السند. أنظر كيف يعبر عن لوعته:

مثل النبات المتسلقة إشتبكت الأحزان بقلبي
مثل الصغراني نبت الآلام إلي صدري
و حلّت فيه كما يحل الملح في الماء
هكذا يعشق قلبي الحب
مثل شجرة النيم يدخل الأثر في قلبي.

كان الشاه عبد اللطيف أساسا شاعر الحب مثل الصوفية. الحب الذي لا يعرف حدودا جغرافية أو تاريخية و لا تقليدا شخصيا. إنــه زار هينجــلاج و كسومن قوي بالثقافـــة الهندية المركبة. اعتبر البلاد كلها بلدا متحدا جغرافيا و كيانا ثقافيا موحدا. إنه كان درويشا مسلما يعتقد بعظمة جميع الأديان. و اعتبر الهندوسية و الإسلام مظهرا لحقيقة واحدة و كافح من أجل ذلك بحزم و ثبات بغض النظر عمن تعلق بها أو من أين جاءت.

يقول الدكتور اتش. إم. جوربخشاني - إن الشاه كان مديد القامة، عريض الكتفين، معتدل الجسم، متمتعا بصحة جيدة طول الحياة. في الصغر، كان شعره أسود و مدورا، و له لحية أنيقة و جلد قمحي اللون مائل إلى البيض، عريض الجبين و وسيم الطلعة ، له عيون جذابة سوداء تلمع دائما مثل ضوء المشعل. و في الكبر، عكست خاصة الرونق و اللمعان. كان يحمل كأسا مصنوعا على شكل مركب في يده الصدفات على طريقة الكهنة البوذيين و الصوفية في العصور الوسطى. و في جلسته لازم دائما مروحة. لا ينام إلاّ قليلا و لا يأكل إلاّ ما يغنيه من جوع. إن مثل هذا الحكيم فقط يستطيع أن يبدع شعرا عظيما في الحب و الشفقة و الرحمة . و مثل هذا الذهن فقط يستطيــع أن يهضم الملـــسي (SASSI) و البنــو (PUNNU) و تاماتـــي (TAMACHI).

تميز القرن الثامن عشـــر بطغيان الأساليب العــربيـــة و الفارسيـــة و رغم إنحطاط الإمبراطوريـــة المغولية، بقيت للعربية و الفارسيـــة سيادة و سيطرة، و كان الرجوع إلى الكتابة في لغة محلية محفوفة بالمخاطر. يعتبر الشاه عبد اللطيف في السندية مثل مير تقي مير في الأردوية و غوروناناك بالبنجابية. الناس يغنون أبياته و أناشيده حتى الآن بسهولة كان الشاه ملما بالقرآن و جرّب صاحبه و حمل مشعل الثقافة العلمانية مثلما فعله بابا فريد في القرن الثاني عشر، و نظام الدين أولياء في القرن الثالث عشر. و فيما يلي أنشودة من السندية إنها أغنية مقدسة من الصحراء- من SHAH JO RISALO الكلام الكلاسيكي و الرسالة عن الحب،

إنتفى صت مثل بابيو (BABIO)
في هيئة رياح حار.
لو كان في مقدوري ان أنسى حبيبي للأبد،

يتجلى أثر "جيتا" في شعره، و هو يريد من أتباعه أن يستمروا في العمل بدون أمنية في الجزاء لأن الله دائما في عــون من يكافــح و يعمــل، و البطال لا تجزيه بالأكاس للمتكاسلين و البطالين

أنشد الشاه الرجل المتواضع و الشفوق أبيات سلسة و رقيقة و غناها بطريقة حساسة جدا. و قال : الإتكال على أحد إثم ما عدا التوكيل على الله و إنه لم يوافق على التوكل على الله أيضا إذا كان مع الكسل. بل أراد التوكل على الله مع العمل. و قال : من أجل السباحة عبر التيار، لا بد أن تعرف السباحة جيدا. و عندئذ فقط يكون الله في عونك. إن الديناميكية و الحركة هما ميزتان بارزتان لفلسفة الشاه. فلو إستطاعت زهرة حقيرة أن تلقن دروس الإنسانية للقلب ورد زورده الجريح، فإن ذرة عشبية في التيار كانت درسا للشاه.

أنظر إلى وريقات الأعشاب هذه
إما إنها تنقذ الرجل على وشك الغرق
أو تنغمس معه في التيار.

كواحد من الرجالات الأفذاذ في القرن الثامن عشر في الهند، حمل الشاه عبــد اللطيف، مثل بوليه شاه (BULLEEH SHAH) و وارث شاه (WARIS SHAH) في البنجاب مشعل الثقافة المركبة في الهند و التي توارثها من الدراويش و الصوفية في العصور الوسطى. و مثل السانت فــرانسيس (ST. FRANCIS) من أسيسي أولا و المهاتما غاندي فيما بعد، قد نشر رسالة الحب و عدم العنف و تطلع إلى مجتمع يكون فيه القوي عادلا و الضعيف مستحقا لعدم العنف و عدم الإستغلال و العدالة الإجتماعية و الإقتصادية. كان هو نفسه أميا و لكنه ناضل من أجل التعليم للجميع، و رفع صوته ضد الجور و عدم المساواة في عصره . و حتى في لغته الموازية عن الطيور كان يعطف على الطيور الضعيفة و الهزيلة و الجريحــة و التي يسيل منها الدم، و حذر الصياد من أن يصيد الطيور الضعيفة لأن هناك صائدا أكبر، و هو الموت الذي سوف يصيد كل واحد و قال : لا تقتل الطير لأنك لن تنال إلا جسمها فقط لا الطير.

مات الشاه عبد اللطيف في ١٧٥٢م و دفن في بهيت في حيدرآباد السند ولكنه خالد التكريم بفتح الموت فاتح القلوب هناء فإنه يعيش في حيوه.

يقول سوين بورن (SWINBUM) إن أعلى شعر لابد أن يتحلى مع الموسيقى. فنظرا لهذه الميزات كان الشاه عبــد اللطيف شاعرا عظيمــا. و يقول الأستاذ إن. ايه بلوتش (N. A. BLOCH) فــي بحثه الرائع بعنــوان "شاه عبد اللطيف - مؤسس موسيقي جديدة" طبعته إدارة الإعلام في باكستان في ١٩٦٢م: ابتكر شاه عبد اللطيف آلة موسيقية جديدة و أسلوبا

جديدا للقافية و أسس تقليدا جديدا في الموسيقى مبنيا على تأليف فن أعلى و فن شعبي. و الآلة الجديدة التي ابتكرها هي "الطنبورة" مع سلك اضافي. فالطنبورة السابقة لها أربعة أسلاك. وإنه زاد واحدا بجوار " زبان " إن " شاه جو رسالو " (SHAH-JO-RISALO) عمل فني موسيقي رائع إلى جانب كونه عملا أدبيا كلاسيكيا.

و في رأي الدكتور موتي لال جتواني انضم شاه عبد اللطيف متأخرا إلى حركة بهكتي في الهند. و لكنه نهض بها بأفكاره النيرة و عمق إحساساته. و قال الدكتور ك. م. سين. في كتابه بعنوان " الهندوسية " إن مثل تصوف المناطق الأخرى في العصور الوسطى تأثر البهكتي بالأفكار الصوفية. و في الهند لم يبق طريق صوفي بدون أن يتأثر بأفكار بهكتي. و قد أنجب القــرن السابع عشـر شاه عبد الكريم و شاه عنايت و شاه عبد اللطيف و هذه الحركة مستمرة حتى الآن.

منح شاه عبد اللطيف أتباعه أملا و فرصة جديدة للحياة و نفخ فيهم روح الاحترام الذاتي و حب الله. و خلص أهل بلاده من عبودية رجال الديـن و لعب دور جسر بين فئات مختلفة في شمال الهند. إن كلماته و أبياته مليئة بالأمثلة العلمانية و الثقافة المركبة في الهند. و لما دخل معبدا هندوسيا في ثاثا (Thatta) قال "نحن ندخل الضريح بمعية إلاله و ستجرو المقدسين".

الأحداث التاريخية :

١٦٨٩ ـ ولد بقرية هالا حويلي بمقاطعة هالا، بحيدر آباد (السند) باكستان الآن.

١٦٩٤ ـ أرسل للتعليم إلى أخونه نور محمد بهتي بقرية ثالي. ورفض الطفل أن يتعلم شيئا أكثر من الحرف الأول من الأبجدية العربية و هو الألف.

٨ ـ ١٢ . فشل في الحب بسبب كونه درويشا.

١٧١٢ ـ ١٧٠٩ ـ تجول في الصحراء وزار لا كهات، و سيرتار، و دوارکا، و جيسلمير، و بهكانير، و ثار، و تجرات، و هارو، و آهوت، و لاسباكار، و كابول، و هنجلاج، و كراتشي، و بهامبور، و موكابهيم، و تورسمدو، و ثاثا.

١٧١٤ ـ تزوج من سعيدة بيجوم بنت الميرزا مغول بك.

١٧٢٠ ـ مات شاه عنايت شاه.

١٧٣١ ـ زار ملتان، دير حاكم ملتان، ميان نور محمد، مكانها عقيدة للكلف، و بعد أن فشل في هذا العمل و أدرك بمناسبة الكفاءة، خرّ علـى قدمـه و طلب العلم منه.

١٧٤٢ ـ مات أبوه شاه حبيب.

١٧٥٢ ـ مات في بهيت في ١٧٥٢، أقام ميان غلام شاه كرلهورو ضريحا فوق قبره من و سبني الضريح تصميم إيدان، الفنان الكبير في ذلك الوقت.

مراجع البحث المختارة
(الإنجليزية)

١ ـ الوادي الحزين : ريتشارد بورتون، لندن (١٨٥١)
٢ ـ الرسالو : أرنست ترومب، ليبزيج (١٨٦٦)
٣ ـ حياة شاه عبد اللطيف بهتائي : ميرزا قليج بيك (١٨٨٧)
٤ ـ حياة شاه عبد اللطيف و مباحثه وشعره : ليلا رام و آنا ميل (١٨٨٩)
٥ ـ السند جازيتير : إي . إتش. أيتكين بومباي (١٩٠٧)
٦ ـ الصوفي السندي : سي. ايه. كينكايد (١٩٢٢)
٧ ـ شاه عبد اللطيف : إم. إم. جيدواني، إنديا سوسايتي لندن (١٩٢٢)
٨ ـ السند و صوفياؤها : جيثمال برسرام، حيدر آباد (١٩٢٤)
٩ ـ شاه عبد اللطيف من بهيت : اتش. تي. سورلي لندن (١٩٤٠)
١٠ ـ السكان الرحالون في الصحراء : مليك غورديال (١٩٤٩)
١١ ـ روح الأدب السندي : ال. اتش. آل. قلسواني (١٩٥٤)
١٢ ـ الشاعر النابغ في السند : كريم بخش خالد، حيدر آباد (١٩٦٦)
١٣ ـ الفتية المكة : فيرالد ماس هو خاند، حيدر آباد (١٩٦٦)
١٤ ـ الصوفية و المتصوفون و اليوجيون في الهند : بينكيه جيواري، بومباي (١٩٥٣)
١٥ ـ تقييم الشعر الباكستاني : جي. الانا، كراتشي (١٩٦٢)
١٦ ـ شاه عنايت شهيد الجهاد : آنيه ماري شيميل، لندن (١٩٦٩)
١٧ ـ شاه عبد اللطيف : حياته و أعماله موتيلال جوتواني، جامعة دلهي (١٩٧٥)
١٨ ـ شاه عبد الكريم الشاعر الصوفي من السند، موتيلال جوتواني، نيو دلهي (١٩٧٠)
١٩ ـ شاه عبد اللطيف : كليات إدواني : ساهتية أكاديمي، نيو دلهي.
٢٠ ـ الشعراء بالفارسية في السند : اتش. جيه. سدارنجاني.
٢١ ـ التصوف في السند : اتش. جيه. سدارنجاني، جورنال جامعة البنجاب للأدب الهندي في العصور الوسطى
٢٢ ـ المهارليا رنجيت سينغ - باب السند ... كهوللو نيو دلهي (١٩٨٠)
٢٣ ـ التصوف الاسلامي : تارا شاند رستوجي، استرليتج (١٩٨٢)

الأردوية

١ ـ عكس لطيف : آغا تاج محمد - حيدر آباد (١٩٥١)
٢ ـ ملكو مهران : أختر انصاري - كراتشي (١٩٥٢)
٣ ـ نظر لطيف : كراتشي (١٩٥٤)
٤ ـ روح لطيف : رشيد أحمد لاشاري حيدر آباد (١٩٥١)
٥ ـ شاهكار لطيف : كراتشي (١٩٦٠)
٦ ـ شاه جو رسالو - الشيخ اياز، حيدر آباد (١٩٦٣)

الهندية

١ ـ شاه لطيف كاويا : موتيلال جوتواني، نيو دلهي (١٩٦٩)
٢ ـ شاه لطيف : كليان ادواني، نيو دلهي (١٩٦٦)

تعريب : شميم الحسن أمانة الله

قصة قصيرة :

عقــار الغابــة

بقلم : أمريتا بريتم

كانت لأنجوري زوجة جديدة لخادم في بيت جار لي بجوار جيراني. جديدة لأنها كانت زوجة ثانية لزوجها. على هذا كان زوجها ذو زواجين. فلذه دخل عالم الزواج الثاني و أنجوري جديدة لأنها كانت حتى الآن في عالم الزواج الأول و جديدة أيضا لأنها لم تمض على زفافها سنة كاملة.

مضت خمسة أعوام منذ أن ذهب بربهاتي إلى قريته في إجازة للاشتراك في جنازة زوجته الأولى و المراسيم الأخيرة لها . يقولون إن والد أنجوري قد عصر منديل بربهاتي يوم المراسيم الأخيرة في القرية. فمن لم يبلل منديله بدموعه لموت زوجته ، فيبتلل في اليوم الرابع أو يوم المراسيم الأخيرة بمسح جبينها. و عندما ينهض والد بنت في ذلك اليوم ليعصر ذلك المنديل فكأنه يقول " إنني أعطيك إبنتي مكان تلك الزوجة الميتة. فلا داعي لك الآن للبكاء. إنني جففت منديلك المبتلة.

هكذا تم زواج بربهاتي الثاني بأنجوري. و لكن لكونها صغيرة و إصابة أمها بمرض وجع المفاصل تأخر زفافها لمدة خمس سنين. على أي حال مضت تلك السنون الواحدة تلو الأخرى. و كان قد أخبر بربهاتي مستخدميه عند ذهابه إلى قريته للزفاف بزوجته هذه المرة بأنه إما أن يأتي بزوجته لتسكن معه في المدينة أو أنه لن يرجع من قريته. فتردد مستخدموه أولا لأنهم لم يريدوا أن يتحملوا نفقة أكل شخصين مكان شخص واحد. و لكنهم وافقوا بعد ما سمعوا خادمهم يقول إنه سوف يتخذ المكان الخلفي فوق المطبخ لغرفته مطبخا لزوجته بعد تنظيفه. هكذا جاءت أنجوري إلى المدينة. إنها لم ترفع قناعها لمدة أيام أمام رجال الحيّ حتى أمام النساء. و لكن بعد تلك تخفف تدريجيا. كانت أنجوري تتشوف إلى رونق الحي عندما كانت تمشي لابسة خلاخلها الرنانة. و كذلك تزيد البهاء هناك بابتسامتها العذبة الفتانة. و مع أنها كانت تنفق معظم أوقاتها في غرفتها ، إلا أن رونقا عجيبا تصاحبها لما كانت تخرج من بيتها.

" أية حلية هذه في قدميك يا أنجوري ؟ "

" إنها خلاخل القدم "

" و ما هذا في أصابعك ..؟ "
" إنه خاتم "
" و في ذراعيك ..؟ "
" إسمها بخيلا "
" و على جبينك ..؟ "
" يقال لها على بند "
" اليوم لم تلبسي شيئًا في خصرك ..؟ "
" إنها ثقيلة جدا ألبسها غدا . اليوم أنا ما لبست الطوق أيضا. فقد انكسر لحامه. أذهب غدا إلى المدينة لأستصلحها. كما أشتري مسمارا لأنفي. كانت عندي حلية كبيرة لأنفي أعطتها لي أم زوجي "
هكذا كانت أنجوري تلبس حلاها الفضية بتدلل و تريها بتدلل.
و بعد قليل لما تغير الجو و صارت أنجوري تختنق في غرفتها ، كانت تجلس أمام بيتي . عند أشجار النيم.
و كانت بئر قديمة على مكان مرتفع بالقرب من تلك الأشجار و كانت البئر مهجورة فلم يكن أحد يجلب الماء منها إلا أن عمارا كان يجيء بالقرب منها على شقة الحكومة. و العمال كانوا يستعملون ماء البئر. لذلك كان يوجد هناك وحل في معظم الأوقات
" ماذا تقرأين يا سيدتي .. ؟ "
" يوما لما جاءتني أنجوري ، كنت أقرأ كتابا تحت أشجار النيم "
" هل تعرفين القراءة يا أنجوري ..؟ "
" لا أعرف "
" فتتعلمي . ؟ "
" لا "
" لماذا . ؟ "
" إن تعلم القراءة إثم بالنسبة للمرأة "
" هل القراءة إثم للمرأة فقط و ليست إثما للرجل ..؟ "
" لا . . ليست إثما للرجل "
" من قال لك هذا ..؟ "
" أنا أعرف ذلك "
" لكنني أقرأ .. هل أنا آثمة .. ؟ "
" النساء في المدن لا يرتكبن الإثم و لكن نساء القرى يرتكبنه "
انفجرت أنا ضاحكة و ضحكت أنجوري و لكن كل ما كانت أنجوري قد سمعت و اعتقدت ، كانت حقيقة. لذلك لم أقل لها شيئا. فلو كان باستطاعتها أن تقضي أوقاتها فرحة مسرورة داخل حدود حياتها . فكان ذلك شيئا حسنا. كنت حينذاك أحدق في وجه أنجوري. إنها كانت ممتلئة الجسم سمراء اللون. يقولون إن المرأة مثل عجينة الدقيق و البعض منهن يكن ألين من العجينة حتى لا يمكن جعلها خبزا مدورا و لكن جسم البعض فقط يكون مثل خمير

الدقيق و يصحب طلعها بطلمة. و إن لم يعني المرأة يكون حملها بجهد بسيل منح أي شكل من الشيز منه.

فظللت أحملق إلى وجه أنجوري ، و إلى صدرها و إلى أرجلها. إنها كانت متماسكة الجسم متناسقة الأعضاء. و كنت قد رأيت زوجها بريهالتي أيضا فإنه كان قصير القامة ، منكمش الوجه.

فلما رأيت شكل أنجوري ، خطرت لي في نفسي مقارنة عجيبة بأن بريهالتي لا يستحق أكل هذه المهينة المتصلّبة. و إنّ من يضع هذه المهينة مغطيا بغطاء كثيف ، فهو قاسي القلب. فضحكت بنفسي على هذه المقارنة. و لكنني ما شئت أن أشعر أنجوري بهذه المقارنة.

فانتقلت بحديثي إلى أمور بسيطة متعلقة بقريتها و أبويها و إخوتها و أخواتها و حقولها و مزارعها ، فسألتها :

" ما هي طريقة الزواج في قريتك ..؟ "

" عامة تكون البنت صغيرة في عمر خمس سنين فأوبيا حينما تعهد في خدم شخص."

" كيف تعهد القدم ..؟ "

" يحمل والد البنت صينية مملوءة بالزهور و فيها روبيات فيضعها أمام الولد."

" إنها عبادة الأب و ليست عبادة البنت ..؟ "

" لكن الوالد يعبده نيابة عن البنت "

" و هل تنظر البنت زوجها المنتظر..؟ "

" لا .. ، البنات لا ينظرنه "

" هل البنات لا ينظرن أزواجهن .؟ "

" كلا .."

" ألا ترى أي بنت أبداً ..؟ "

" لا أبداً "

" قالت أنجوري أولا " لا " ثم سكتت قليلا فقالت :

" البنات العاشقات ، ينظرنه "

" هل بنات قريتك يعشقن ..؟ "

" بعضهن "

" هل البنت التي تعشق شخصا (لا تكون آثمة ..؟ " (في الحقيقة ، أنا تذكرت كلام أنجوري بأن المرأة تكون آثمة لو تعلمت القراءة ، فاستذكرت أن الحب أيضا على هذا يكون سببا للإثم). فقالت أنجوري فوراً :

" إنه إثم ، إثم كبير "

" إذا كان الحب إثما فلماذا هن يعشقن أحدا ..؟ "

" في الحقيقة ، يطعم شخص البنت شيئا ، فيتولد في قلبها الحب له "

" ماذا يطعمها ..؟ "

" عقارا من عقاقير الغابة ، يطعمها في الحلاوة أو في الكنبول فتبدأ البنت

حبه و تفضله على كل رجل في العالم."

"صحيح ..؟"

"نعم أنا أعلم. فقد رأيت بعيوني"

"رأيت من ..؟"

"كانت لي زميلة ، تكبرني قليلا في السن"

"إذن ، ماذا حصل ..؟"

"إنها ، صارت مجنونة. و هربت معه إلى المدينة"

"لكن كيف علمت أنه أطعم زميلتك عقارة .. ؟"

"هل أطعمها في حلاوة .. ؟ ! تظنين أنها هجرت أبويها و ذهبت معه إلى المدينة ..؟"

"إنه كان يعطيها أشياء كثيرة ؛ يعطيها الساري، و أسورة زجاجية و عقودا من الخرز."

"هذه أشياء ! و لكن كيف علمت أنه أطعمها عقارة ..؟"

"إذن كيف أخذت حبها إذا لم يطعمها شيئا ..؟"

"الحب قد يحدث له بدون ذلك أيضا"

"كلا .. ، كيف يمكن لأحد أن يحب شخصا يكره أبويه ..؟"

"هل رأيت ذلك العقار ..؟"

"لا .. ، ما رأيته . هم يجلبونه من بعيد جدا و يخلطونه خفية في الحلاوة أو في التنبول. لذلك نصحت لي أمي بألا آكل شيئا من يد أحد."

"استحسنت جدا بأنك لم تأكلي شيئا من يد أحد . و لكن كيف أكلت زميلتك ..؟ سوف تجد ما عملته ..؟"

"نعم .. تجد ما عملته" قالت أنجوري ذلك و لكنها أحست بعد ذلك شفقة على زميلتها. فقالت في حزن .

"أصبحت المسكينة مجنونة. فلم تكن تمشط شعرها. كانت تنهض مرات في الليل و تغنّي."

"ماذا تغنّي ..؟"

"لا يعلم أحد ماذا كانت تغنّي. إن التي تأكل عقارا تغني كثيرا. و تبكي أيضا كثيرا."

انتقل الحديث من الغناء إلى البكاء. فلم أسأل بعد ذلك من أنجوري شيئا آخر.

لم تمض إلا أيام قليلة. لما جاءت أنجوري يوما و وقفت أمامي ساكتة. قبل ذلك كلما أتت كانت حليتها ترنّ " شم شم " تسمعها و هي على بعد عشرين قدما. و لكن اليوم لا يعرف أحد أين اختفت رنّة قدميها. فرفعت رأسي من الكتاب و سألتها " ماذا حدث يا أنجوري .. ؟ فظلت أنجوري تنظر إليّ برهة ثم قالت بصوت خفيف .

"علميني القراءة يا سيدتي ..؟ علميني كتابة الإسم ..؟"

"هل تكتبين رسالة إلى أحد ..؟"

لم [illegible] و [illegible] الى وجهي [illegible]

لا [illegible] ؟

لم [illegible] في [illegible]

كان [illegible] الظهر [illegible] لي [illegible]

[illegible]

[illegible] الهوا [illegible] في [illegible]

[illegible] و [illegible] على [illegible]

[illegible] لا [illegible]

[illegible] و [illegible] الى [illegible]

[illegible]

[illegible]

و [illegible] الى [illegible] و [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

هل [illegible] ؟

[illegible]

[illegible] في [illegible] أربعة [illegible]

و [illegible] أربعة [illegible] و الهوا [illegible] أربعة [illegible]

[illegible] ؟

[illegible] و [illegible] على [illegible]

كل [illegible]

يكون [illegible] الأربعة [illegible] و يكون

الموسم [illegible] الهوا و يكون

[illegible] الأربعة [illegible]

و [illegible] الى [illegible] على [illegible]

هل [illegible] ؟ و [illegible] على [illegible]

و [illegible]

هل [illegible] ؟

الطعام [illegible] و [illegible] و [illegible] على

[illegible] الأن [illegible]

[illegible] في موسم المطر و الهوا [illegible] في موسم [illegible] و [illegible]

[illegible] في موسم [illegible] في [illegible]

[illegible] و [illegible]

[illegible] الطعام [illegible] و [illegible]

[illegible]

" هل طبخت الطعام اليوم أم لا ..؟ "
" ما طبخته حتى الآن "
-" هل طبخت صباحا و هل شربت الشاي ..؟ "
" الشاي ..؟ اليوم لم يكن اللبن موجوداً "
" لماذا لم تأخذي اللبن اليوم .. ؟ "
" لن لا آخذ اللبن. بل ...."
" ألا تستخدمين الشاي كل يوم ..؟ "
" إنما تشرب "
" إذن ماذا حدث اليوم ..؟ "
" اللبن - في الأصل رام تارا ......

رام تارا خفير في حينا. و هو حارس مشترك لكل واحد. يحرس البيوت طوال الليل. و يخمر بالنوم العميق صباحا. تذكرت أنه لما لم تكن أنجوري قد جاءت ، كان يأخذ رام تارا كوبا من الشاي من بيوتنا صباحا، من بيت يوما و يوما آخر من بيت و يشربه ثم ينام على سريره حتى الظهر. و منذ أن جاءت أنجوري ، كان يأتي بلبن من صاحب جاموس. ثم يضع على موقد أنجوري قدر الشاي، و كان بربهاتي و رام تارا و أنجوري كلهم يشربون الشاي جالسين حول الموقد. و لعلي أذكر أن رام تارا كان قد أخذ إجازة و سافر إلى قريته منذ ثلاثة أيام.

شعرت بضحكة مؤلمة ثم قلت لها:
" و أنت يا أنجوري ! ألم تشربي الشاي منذ ثلاثة أيام "
" لم تقل أنجوري شيئا بل هزت رأسها بالنفي فقط "
" ألم تأكلي الطعام أيضا ..؟ "

لم تحرك أنجوري الكلام و بدا لي أنها إما لم تأكل الطعام مطلقا أو إن أكلت فقدراً يسيراً منه.

و قد تمثل أمام عيني شكل رام تارا تماما. وسيم القامة ، سليم البنية ، و صاحب عيون جذابة مجهولة . و ذا أسلوب خاص للتكلم
" أنجوري ..؟ "
" نعم يا سيدتي "
" هل أكلت ثمار الغابة ..؟ "

صالت صرخة على وجه أنجوري فبللت شعرها و شفتيها. و كانت الكلمات الصادرة من فمها أيضا مبللة " أحلف لك بأنني لم آكل أبدا حلاوة من يده. و لم آتبل الكشول أيضا ، ماعدا الشاي ، يمكن أنه قد ....." ثم غرقت أصوات أنجوري كلها في دموعها.

تعريب : سراج الحسن

استعراض الكتب

إسم الكتاب : فلسفة الحب في "طوق الحمامة" دراسة تحليلية

تأليف : عبد الله كوتي - سي - في.

الناشر : مكتبة الهدى ، تيروورانكادي ، كيرلا ، الهند

عرض : د/ شميم الحسن أمانة الله .
جامعة جواهرلال نهرو ، نيودلهي.

يتناول هذا الكتاب بدراسة تحليلية أحد المنجزات المهمة في الفكر و العلم المفكر اندلسي إسلامي كبير و هو كتاب طوق الحمامة الذي ألفه ابن حزم الفقيه و الطبيب و الشاعر و الفيلسوف و المؤرخ (٩٩٤ - ١٠٦٤) في علامات الحب ونشره المستشرق بتروف في ليدن في ١٩١٤م و مما تتبين أهمية هذا الكتاب انه ترجم إلى لغات عالمية عديدة مثل الإنجليزية و الروسية و الألمانية و الإيطالية و الفرنسية و الأسبانية كما حلل و طبع في البلاد العربية مرات.

قسم الباحث هذا الكتاب إلى أربعة فصول فدرس في الفصل الأول تاريخ الأندلس ثم حياة ابن حزم و شخصيته و البيئة التي عاش فيها و في الفصل الثاني تناول تحليل طوق الحمامة من كل النواحي تحليلا علميا دقيقا. وبهذا الكتاب ذكر نظرية الفلاسفة و المفكرين في الحب منذ أفلاطون إلى الوقت الحاضر. و مثل ما قاله أفلاطون " بأن محبة الله هو أحب المثالي " و قول ابن حزم " إن محبة الله هي الدرجة العليا في الحب .

ثم تحدث الباحث في الفصل الثالث من الحب و أقسامه مثلا الحب الجنسي و غير الجنسي ثم الرومانطيقي و الوفائي و ما إلى ذلك .

و في الفصل الرابع يبحث في الاتصال الشعري و الإتصال الوجوهي و الاتصال بالكلام و الاتصال بالإشارة و الاتصال في القرآن وغيرها.

و هكذا حلل الباحث كتاب طوق الحمامة تحليلا جيدا و استنتج من ذلك بأن ابن حزم مع كونه فقيها، فقد كان من أوائل الكتاب الذين كتبوا عن الحب و أقسامه في ضوء العلوم الحديثة و علم النفس بصورة خاصة - و إن النظريات و الآراء التي ذكرها في هذا الكتاب تتوافق تماما مع ما توصل إليها علماء النفس في موضوع الحب في العصر الحديث.



